www.kotobarabia.com

رواية

فؤاد قنديل

حكمة العائلة المجنونة

www.kotobarabia.com

حكمة
العائلة المجنونة

بقلم

فؤاد قنديل

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

مملكتي
ليست من هذا العالم
لو كانت من هذا العالم
لكان خُدامي يجاهدون
حتى لا أُسلّم لليهود

يسوع
إنجيل يوحنا ١٨

(١)

الحجرة الرمادية يشملها سكون غامض.. تجدف في بحارها رائحة انتظار مشوب بالقلق.. ما الذي يمكن أن تقوله المرآة لوجهها المصلوب أمامها.. يقترب ويبتعد.. داخلها يتقافز سؤال له شفرة حادة.. هل يا ترى وضعت أقدامي على أول طريق الشيخوخة.؟

طلعت على هذا الوجه شموس كثيرة. تمسحت به آلاف الصباحات والمساءات تجاوزت السابعة والثلاثين.

- لا أحد يطرق الباب.. أختي راوية تزوجت وهي في أولى ثانوي.. بنات كثيرات تزوجن في الثامنة عشرة ويحملن أطفالاً. وهن بين النساء ربات بيوت.. لهن كلمة لا ترد.. أنا أجمل منهن.. فما بال الرجال عميت عني عيونهم.

قالوا لها: اخرجي.. فخرجت..

سارت في الشوارع ولبست الكعب العالي الذي يحيل المشية إلى نغم جذاب ومثير، ويهدهد البدن الطري ويؤرجحه لكن الرجال كانوا يمضوا في طريقهم دون مبالاة، كأنها كائن غير منظور.. صبت العطور الغالية، لكن أحدا لم

يشم.. مرات قليلة عاكسها بعض الشباب، لكنهم كانوا عاطلين، يتلطعون على النواصي، ولا تبدو معاكساتهم ذات طعم، أو تدل على جدية في التقدير أو في العرض..

فوق السرير. جنب الجدار الجواني كانت هناك أكوام كبيرة من الأحلام. مركونة كما الهدوم، مطبقة ومكوية، لكن ألوانها حالت، ومن يقترب منها يشم رائحة عطنة.

في المرآة عادت تطل.. تشد لحم الخدين وتحدق بقوة، لعلها تعثر على شيء يمكن اعتباره هو المسئول عن تأخر نصيبها، لا زالت تقبع داخل هذه الجدران التي لم تشهد في حياتها غيرها، ولعلها وجدت مع بدء الحياة على كوكب الأرض، بيت قديم، جدرانه مرتفعة ومتهرئة وشبه مقوسة في حارة "شق التعبان".. حارة سد ومظلمة، تبدو كأنها قاع العالم.. لا يؤنس وحشتها على الدوام إلا رائحة الخبز الساخن تسطع بقوة في فرن نصحي عبد النور، وتطلق سحرها الهمجي اللذيذ في أجواء الحارة، لتجعل منها بؤرة للحياة المغمورة في سنواتها الأولى. أما في المساء فمقص سيد الحلاق خاصة عندما يأكل الهواء وأنوار محله مع

ثرثرته هي النبض الباقي بعد أن تهمد في غرفتها كل الأصوات.

بعد الدراسة الإعدادية.. قالوا لها:

- يكفيك ما حصلت عليه من التعليم.. مستقبلك في البيت، فانتظري عدلك، وما زالت تنتظر.. وتمنت أن تعرف أين يقيم هذا العدل.

إلى المرآة يتسلل وجه ينشق عنه الضباب، تبدو ملامحه غائمة لكنه يواصل البزوغ.. تتضح قسمات وجهه تدريجيا.. تعرفت عليه. كانت قد نسته. منذ مدة لم تره.. تقدم لخطبتها. أخوها نبيل رفض، وهي لم تر العيب في شكله، لكن في عمله. سائق. سألت نفسها عدة مرات: ماذا يكسب وما هو مستقبله؟.. لن يكون يوما رئيس مصلحة أو وزير مواصلات، أو رجل أعمال، سيظل سائقًا لأتوبيس الأولاد، ينقلهم إلى مدارسهم في الصباح، ويعيدهم إلى بيوتهم بعد الظهر.

لا تدري لماذا اختفى وأين راح، بعد أن كان يحوم حولها ويحضر كثيرا ليراها متعللاً بالسؤال عن أخيها جمعة، وهو يعلم أنه في الورشة، كان يقف قبل الغروب على ناصية

الحارة بجوار مكتبة ملاك.. يفتعل حديثًا بينما تكون في موعد جلوسها، أو يجلس مع يونس اللبان أو سيد الحلاق..

ها هي بسمته تطل في المرآة.

- افرض إني قلت لا.. على طول تجري.
- أخوكي.
- أنا من سأتزوجك يا خيبة.
- رفضت.
- وكرامتك "نقحت" عليك؟
- فعلاً.
- فالح.. لو جئت مرة ثانية وطلبتني بقلب جامد. سأساعدك. تحرك يا بني آدم.

اتسعت ابتسامته، فأخذت تشجعه.

- الفلوس.. لا يهمك. أسرق لك كردان أمي.. سأتزين وأنتظرك. تحرك.. ساكن مع أختك المطلقة؟.. أمري إلى الله.. أسكن معها.. هذا الكلام مؤقت حتى تجد لنا شقة خاصة بنا فقط.. راضية حتى لو حجرة واحدة فقط وصالة.. سلام.. أنا داخلة الحمام.

تستطيع أن تستحم براحتها ما دام الذكور غادروا البيت غير مأسوف عليهم.

مضت تتراقص وهي تسعى إلى الحمام.. أقفلت بابه، وخلت ملابسها قطعة قطعة. اطمأنت في المرآة لا ترى فيها إلا نصف جسمها.. على أن جسمها ما زال "صاغ سليم"، وأنه في الحفظ والصون، ما زال بخيره وجاهز للزواج.، إذا جاء يحيى، أو غير يحيى، المهم شخص يكون عليه "القيمة".

دعكت كل بدنها بالليفة.. ظلت تدعكه ليخرج إلى السطح أجمل ما فيه. جلست على الكرسي الخشب ودعكت كعبيها بالحجر الخفاف، ثم وقفت تحت الدش وتركت الماء ينزل على رأسها ويترسب على التمثال العريان. يكتب بقطراته البللورية كلاما لذيذًا على لحمها الأحمر الذي هيجت دماءه الليفة، وغطته طبقات كثيفة من رغاوي الصابون المعطر.

التفت بالبشكير الأبيض الكبير، وأسرعت إلى غرفتها قبل أن تراها أمها وتقول لها كعادتها:

- "الكوبانية" اتصلت تشتكي وتقول المحروسة هنية خلصت ماء البلد.

تستطيع أن تجري بالبشكير وبدونه ما دام الذكور رحلوا.. أبوها والأخوان.

- رجالة كمالة عدد، أبي ساب الشغل وأصبح لا يهش ولا ينش. نبيل خاص دراسة وقاعد عاطل.. وجمعة ميكانيكي. نصف أجرته على السجائر وطول النهار يغني.. ولا يصدقني عندما أقول له: صوت الحمار أحلى.

تذكرت قرني الميكانيكي الذي تقدم لخطبتها ورفضته، قالت لجمعة:

- تريدني أن أتزوجه لأنه معجب بصوتك.

لما لبست ملابسها الجوانية، سرحت نظراتها إلى صور الشباب الجميل المعلقة على الحيطان.. كانت كل العيون العفية التي تطل من وجوه جون ترافولتا وحسين فهمي وآلان ديلون وروك هدسون وتوني كيرتس ووجوه أخرى، تحدق فيها.. كيف اختارت زواياها بحيث ينظرون جميعا إليها إذا وقفت في أي ركن، بينما وضعت في وسط هذه الحلقة.. صورة كبيرة لها وهي تبتسم في إغراء.

- لماذا تنتظرون إلي هكذا؟.. أول مرة تقع عيونكم على واحدة حلوة.

تنهدت من الأعماق.

- لماذا أنتم كما أنتم.. وأنا التي تكبر.. والأيام ركبها عفريت.. الشمس مستعجلة، تطلع ساعة وفجأة تغرب، والعداد يعد.

تحولت إلى صور الأطفال الكثيرة التي صفتها على الجدار الثاني.

- حبايبي.. أنتم أجمل شيء في الدنيا.. كل الرجال لا يساوون إصبع واحد منكم، لكن للأسف لابد منهم كي آخذكم بين أحضاني.. نفسي آخذكم بين أحضاني. ضل رجل ولا ضل حيطة. حتى الظل أخذته الشمس وغابت. يحيى.. هيا نتزوج.

نظرت في المرآة. حدقت في وجهها من جديد لتحدد لنفسها وتتأكد بنفسها هل هي جميلة، أم متوسطة الجمال أم لا قدر الله دميمة.. اعترفت بان عينيها ضيقتان، وشفتيها رفيعتان وجبهتها عريضة ورموشها خفيفة وفقيرة، لونها قمحي.. أم خمري.. نقول خمري. ذقنها جميلة،.. شعرها بني قصير، أنفها صغير وكذلك الأذنان. صدرها عامر.. عودها رشيق وطويل نسبيا وممتلئ قليلاً عند الردفين.

سيدات كثيرات تتحدثن عن جمال ساقيها. المشكلة منحصرة في حاجبيها المتصلين ببعض ولما حاولت أمها الفصل بينهما فشلت.

جلست تمشط شعرها. تتناثر منه المياه، بينما كانت تداعب رأسها أمانيها المتعثرة. استبقت أسنان المشط عدة شعرات. مدت شفتيها امتعاضا.. تابعت زينتها. ضبطت على شعرها "التوك" الصغيرة الملونة، وزعتها في الأجناب وفوق الرأس وفي الخلف على قمة ذيل الحصان القصير.

فتحت الدولاب واختارت أجمل فساتينها.. لفت به يمينًا وشمالاً وبدت راضية عن نفسها.. مدت يدها. سحبت شماعة عليها بدلة رجالي.

- سلمت يداك يا أم رمزي.
- بص يا يحيى ماذا اشتريت لك؟.. البسها كي نخرج..

وضعتها على السرير، وعادت تطل في المرآة.. رشت العطر وحطت طلاء الشفاه.. طلاء بمبي خفيف، والتفتت إلى يحيى وقالت:

- البدلة توشك أن تنطق عليك.. بطل تخِن بمنخارك..

رفعت الشماعة بالبدلة.

- امش جنبي. رأسك مرفوعة. لازم الناس تحس أنك "ملو" هدومك، لا يهمك. اصاب طولك.. تمام.. بطل تخن.. تعالَ في حضني.

ضمت البدلة إلى صدرها، ورقصت مع يحيى بعض الوقت.. دارت بالبدلة عدة دورات في المساحة التي تفصل السرير عن الدولاب.. تستطيع أن ترقص وتتحدث إلى نفسها وتتقلب في السرير منذ تزوجت راوية.. تحقق لها قدر من الحرية.. وقعت نظراتها على شكلها في المرآة الكبيرة. رأت البدلة في يديها، تكاد تعصرها وهي تراقص يحيى، الذي تنبهت فجأة أنه ليس بداخلها.. توقفت.. طفرت الدموع من عينيها وألقته على الأرض. ارتمت على السرير، حاولت أن تقاوم الدموع وهي تقبض بأظافرها على الملاءة وتأكلها بأسنانها، ولم ينقذ الملاءة إلا صوت أمها.

- هنية.. داخلين على الضهر، والبيت يضرب بقلب.

نهضت بتكاسل ومسحت عينيها وهي تهمس بصوت متحشرج.

- الخدامة قادمة يا ست هانم.. لابد قادمة.. المنطقة محاصرة. فين طريقك فين.. ما بين قرني المقشف ليحيى الكحيان يا قلبي لا تحزن.

انثنى عودها. مدت يديها إلى طرف فستانها ورفعته. تخلصت منه وعلقته. انحنت من جديد لترفع بغيظ بدلة يحيى المطروحة على الأرض. طوحتها بقوة في الفضاء. لطشت البدلة في سكتها عروسة المولد التي كانت تتابع الموقف من فوق الدولاب.. كانت هناك منذ سنوات.. سقطت العروسة على الأرض وتهشمت.. تهشمت.

انزعجت هنية وأظلمت الدنيا في عينيها، وغابت لحظات عن الوعي أو كادت. حطت على بدنها جلباب البيت أبو سفرة.. تنهدت ثم قالت:

- حتى أنتِ.. انقصف عمرك.

جاءها صوت أمها قويا متعاتبا ممطوطًا بعد أن فاض بها:

- يا هنية.

ضحكت ساخرة:

- لو أعرف العبقري الذي سماني هنية.. هنية مرة واحدة يا مفتري!.

(٢)

لم تستطع الضجة التي تشهدها الحارة صباح كل يوم أن توقظ نبيل.. يمدد جسده الميت على سرير يشاركه فيه أخوه جمعة، ولم يفلح في ذلك غطيط جمعة العالي الذي لا يتوقف لحظة منذ أن يحط رأسه على الوسادة بعد منتصف الليل.

غطيط جمعة له سمعة. عدد كبير من الجيران يبلغهم طبله وزمره، والشقق الملاصقة لشقتهم يشكون مر الشكوى لأن هذا الغطيط ينفذ من الجدران، فيوقظ أصحاب النوم الخفيف ويؤرق المرضى الذين يتمنون أن يغيبهم النوم لحظات قليلة، فينام بنومهم الألم.

الباعة ينسون أنهم ينادون زبائنهم في حارة ضيقة عرضها لا يتجاوز أربعة أمتار.

.. باعة الخضراوات والفول والبليلة، وأهل الحارة أنفسهم يشاركون في الضجة، فمن تحاول أن توقظ ولدها ليذهب إلى المدرسة، توقظ عشرات غيره يسكنون البيوت المجاورة والمقابلة.

كان نبيل قد طلب من أمه أن توقظه في التاسعة على الأكثر ليذهب إلى مكتب القوى العاملة يسأل عن خطاب التوزيع. هذا الخطاب يحدد الجهة التي سيذهب للعمل بها، ونسي أن أمه إذا طلب أحد إليها أن توقظه فسوف يستيقظ معه العالم أجمع، وسوف يصحو وقد كره اليوم الذي ولد فيه.

بقوة هزت جمعة الذي كان على الطرف، فتعطلت لغة الغطيط واصطدمت كل الآلات التي كانت تصدره، وشرعت مبكرا التساؤلات تخرج من فمه.

- فين.. مين.. ليه.

فجأة وقبل أن يصحو من لم يصح في الحارة. استيقظ الشابان وتقلبا قليلاً تمهيدا للقيام. كان الاتفاق بين جمعة ونبيل أن ينام نبيل دائما قبله، لأنه اشتكى عدة مرات من عدم قدرته على النوم إذا بدأ جمعة تسجيلاته الليلية، والتزم كل منهما بهذا الاتفاق، وسارت الأمور بلا مشاكل، بعد أن كانت مثار النزاع إلى حد الصراخ منذ سنوات لأن علاقة جمعة بالغناء علاقة قوية ومتأصلة، ولا يملك الاستغناء عنها في ليل أو نهار، والكثيرون لا يجدون أدنى

علاقة بين الغناء والميكانيكا، والبعض يرى أن من الطبيعي وجود مثل هذه العلاقة.

هب جمعة واقفًا، تخلص على عجل من جاكتة البيجاما وأسرع إلى الحمام. أدخل رأسه تحت الحنفية وغسل وجهه وذراعيه وإبطيه وقدميه.. سوى بالمشط شعره الكثيف الأسود المفلفل.. أدخل ساقيه في البنطلون وقدميه في حذاء من القماش. دس سيجارة في فمه وخطف قميصه وهبط السلالم ببراعة متفاديا كل الدرجات المهشمة دون أن ينظر إليها. مضى يدخل ذراعيه في الكمين وهو يهرول في الحارة ولم يتم ارتداء القميص إلا في شارع بديعة.

نبيل لا يزال مغمض العينين. عزم على أن ينهض. لكنه عندما أطلق ذراعيه وجد أن السرير كله أصبح له. البراح الجميل. الغرفة كلها له ولو للحظات. لا داعي للعجلة، لأن عليه أن يذهب إلى مكتب القوى العاملة في التاسعة والنصف أو حتى العاشرة.. المهم أن يتقلب في السرير طولاً وعرضا ويستمتع بحلاوة المساحة الإضافية.

أخيرا نهض ودخل الحمام وصفر أمام المرآة وهو يمشط شعره الأسود الناعم. فتح باب البلكونة. وزع نظراته

على الحارة التي دبت فيها الحركة. فتحت البيوت أبوابها وشبابيكها.

- الجميل لم يفتح بعد.

استنشق الهواء الطازج.. رأى علي جودة في غرفته يقرأ جنب الشباك.

- صباح الخير يا دودة.

تعود أن يناديه بهذا الاسم لأنه لا يكف عن القراءة.

شعر بنسيم الأمل يداعب روحه المشتاقة للتغيير.

- نفسي أبدأ الحياة.. ذاكرت وسهرت وتعبت وخلصت الجامعة من سنين.. نفسي أبدأ الحياة.. أشتغل وأكسب وأثبت وجودي.. يضمني والجميل بيت واحد. أسافر. أشوف الدنيا. أعيش.. يا عالم أعيش. نفسي أخرج من شق التعبان.. أخرج من الحبسة للدنيا الواسعة.. أحس أني قادر على عمل أشياء كثيرة.

كان مستثارا ومتأهبا للطيران..

قبض على حديد البلكونة بقوة حتى اهتزت في يده، نظر أمامه إلى البلكونة المغلقة.. تنفس من جديد. أطلق من شفتيه صفارة، تردد لحنًا عاطفيا رقيقًا.

- اسبقني يا قلبي اسبقني.. عالجنة الحلوة اسبقني.

اسبقني وقول لحبيبي.. أنا جاي على طول يا حبيبي.

اسبقني قوام اسبقني.. عالجنة الحلوة اسبقني.

دخل غرفته.. أدى بعض التمرينات الرياضية. أحس بخواء داخلي. استشعر حاجة إلى الطعام. مضى إلى الصالة. نادى أمه. لم يسمع ردا. خمن أنها ذهبت إلى السوق. دخل المطبخ. قلب في أوانيه، كانت كلها بقايا عشاء الأمس. فتات خبز وأطباق فارغة متسخة وأطراف خيار.. رءوس الفلفل الأخضر.. قشر بيض. حبات قليلة من الفول المدمس.

مط شفتيه وعاد. بلغه صرير انفتاح باب البلكونة المقابلة.. رقصت روحه. رأى فتاته ذات الوجه الصبوح. الإيشارب على رأسها وجلبابها الأخضر، تطير عليه عصافير صغيرة ملونة. الشعر الطويل يتهدل على الأكتاف. ابتسامة مشرقة تتشكل على الشفتين وغمازتي الخدين.

- صباح الخير يا رباب.
- صباح الخير يا نبيل.
- الناموسية كحلي.
- اليوم هو الأحد.

- آه.. إجازه.
- تصورت إنك من البدرية تكون خرجت.
- كيف أخرج بدون شحنة.
- أخذت بالأمس كل الشحنات المخصصة اك.
- هذا بالأمس.. فأين نصيبي اليوم؟
- هيا اذهب.. وثق أن ربنا سيكرمك.
- قولي سيكرمنا.
- سيكرمنا.
- شربت الشاي؟
- لا.. أعمل اك؟
- خالتك أم جمعة خرجت
- حالاً يكون عندك
- لو كانت معه بيضة يكون أفضل
- يا خسارة. انتهى كله بالأمس
- أنزل على لحم بطني
- صدقني
- تبدأ حياتك معي بتجويعي
- انتظر حتى أعد اك الشاي

- اطلعي للدجاجة واحكي لها عن أحوالي، ربما كان قلبها أحن علي من قلبك.

- انتظر

بدل ثيابه. فتش عن أي نقود. لم يجد لها أي أثر في جيوبه ولا جيوب جمعة. ولا في غرفة أبيه. عثر على نصف جنيه في درج ماكينة الخياطة. عاد إلى البلكونة. طلعت عليه رباب وهي تحمل صينية ألومنيوم عليها طبق فيه جبن، ورغيف بايت مر على النار، وعودان من الجرجير وكوب شاي. مد جزعه في فضاء الحارة، ومدت. أراد أن يمسك يدها. ابتسمت. حذرته.

- الصينية يا مجنون

دخل بالصينية المطبخ. وضع الجبن في الرغيف وفوقه الجرجير.. صب الشاي في كوب آخر وأعاد الكوب والطبق على الصينية، وهو يقول:

- وحياة غلاوتك يا جميل لأطلبك من أبيك بعد خروجي التاريخي مباشرة من مكتب القوى العاملة.

اتجه إلى الموظف المختص الذي لديه أوراق التوزيع.. جاء إليه من قبل عشر مرات.. في كل مرة يجده

نائما.. ضاق نبيل بتصرفات الموظف، لكنه تفاءل وغفر له، لأنه في آخر مرة قال: المرة القادمة هي آخر مرة ولن يترك الوزارة إلا والخطاب في جيبه.. المهم يفتكره بالحلاوة.. كل شيء انتهى لا يبقى غير توقيع المدير.

اليوم يبدأ عهدا جديدا في حياته.. ينتقل من حالة إلى حالة. لن يتسول بعد اليوم ولا حتى من أبيه وأمه.. كفى ما أنفقاه عليه برغم ظروفهما. سوف يقوم هو بالعمل والمساعدة في مصروف البيت.. لن يسمح لوالدته بعد اليوم بالدوران على البيوت لتعمل لهم "بلانة" أو تحمل "بؤجتها" لتبيع الملابس الجاهزة التي يوردها لها شفيق الضبع.

- من أول مرتب سأشتري زجاجة عطر لرباب وكذلك مجموعة مناديل يد، ومثلها بالضبط لهنية، وفستان لأمي لأجل المناسبات، وطبعا لابد من بدلة لي وساعة وحذاء أجلاسيه يلمع دائما، وعددا من القمصان الملونة. كل يوم أرتدي واحدا.. ولا داعي لربطات العنق فربما لا تكفي النقود.

عصفور فرحه يحلق بامتداد كل أعماقه..

الحجرة الكبيرة مملوءة بالموظفين والمكاتب المتراصة والمتلاحمة، بعضهم نائم وبعضهم يحل الكلمات المتقاطعة وبعضهم يشرب الشاي ويدخن السجائر.. وبعضهم يعمل وبعضهم يثرثر حول كرة القدم ومهازل الفرق المصرية ومفارقاتها العجيبة وعبادة اللاعبين برغم الخيبات الثقيلة.

كان الموظف المختص نائما، ورأسه محطوطة بين ساعديه. وشعر إبطه يظهر من تفكك خياطة القميص، جاء الساعي ووضع على المكتب كوب شاي:

- الشاي يا أستاذ شحات.

أخذ نبيل ينادي الأستاذ شحات، ثم تجرأ وهز ساعده عدة مرات، قال الموظف المجاور له:

- خلاص يا أفندي: تعالَ غدا أو بعد غد. ثار نبيل فجأة.
- أي غد يا أستاذ، أنا أحضر على يدك منذ شهور، وكل مرة يقول تعالَ في الغد.
- كان عنده ظروف قاسية أمس، ويشكر لأنه لم يفكر في الغياب.

- كلنا عندنا ظروف، ولازم "يفوق" ويسلمني الخطاب.

عاد نبيل يهز الموظف، الذي كان ينام نومة الموت، هزه بقوة، ولما لم يجد أي استجابة تدل على أن الرجل حي، رفع كوب الشاي وصبه على رأسه.. انتفض الموظف هلعا، وصرخ.. اندفع نبيل يجري.. واصل الموظف صراخه وأخذ يتقافز، تنبه كل الموظفين، أسرعوا وراء نبيل. هبط الدرج. الموظفون يتزايدون ويتبعونه، ويزعقون:

- الحق يا عمر. امسك.. امسك حرامي. امسك يا حسين.

لم يستطع أحد أن يمسكه، وخرج جميع موظفي الوزارة يركضون في الشارع، منهم من لا يعرف لماذا يجري الآخرون.. جرى نبيل بكل قوته، والموظفون وراءه، إلى أن قفز في أتوبيس كان يشرع في الانطلاق من المحطة، وسرعان ما حمله بعيدا واكتشف أنه خالي الجيوب فغادر الأتوبيس في أول محطة توقف فيها. أخذ يمشي في شوارع لا يعرفها.. يمشي ويمشي بحماس كأنه يعرف هدفه حتى

أحس بالعرق يتسال خيوطًا من خلايا لحمه ويتمشى باردا على بدنه.

توقف فجأة وتنفس بعمق ثم قرر أن يجلس على حافة الرصيف.. شعر ببرودة الحجر، وببرودة النهار وببرودة الناس وببرودة الجدران والملامح والأرض والسماوات. خالجه شعور بأن ثمة تواطؤًا مبهما يتولد من كل شيء ومن كل جهة ولا يكف هذا التواطؤ عن التقدم نحوه من تحته ومن فوقه، وعن يمينه وشماله.. بل من الماضي والحاضر، وهاهي ذي بشائره تكاد تبدو من بين غلالات المستقبل البعيد والقريب.

- هل هذه هي الحياة؟ هل هذا هو الإنسان؟ حتى الهواء يمنعه البعض عن البعض.. كان من الممكن أن يكون اليوم هو بداية عمر جميل وعمل كثير ومستقبل منير وأيام بهيجة.. ونزهة وفرح.. خيرا أحمله بين أحضاني وأدخل به على بيتي.. أمي وإخوتي.. تستقبلني زوجتي وأولادي.. نجلس معا نقزقز لب الهناء.. آه.. يا رباب ماذا أقول لك وأنتِ الآن تنتظرين على جمر النار في البلكونة.. لا تفصلك عن أهم كلمة في حياتك غير ساعة أو ساعتين وبعدها تطلع

لك الأجنحة.. لا تلوميني أرجوك.. كنت مضطرا.. أنا حقا أخطأت.. ماذا كان علي أن أفعل وقد أوشكت على الجنون؟! ماذا كان علي أن أفعل وأنا أراه يغرق في النوم بعد أن أغرق الآخرين في التعاسة.. تكلمي.. ابعدي عني نظراتك القاسية.. ارحميني.. كان عليه أن يكون بابا واسعا للأمل.. الحياة تبدأ فقط في هذا اليوم لي ولغيري.. ضعي نفسك مكاني.. كان عليه أن يكسر كل الأقفال التي تحبس في غرفتها سعادتنا.. كل شيء كان بيده.. تصوري الوضع.. يغلق في وجهي كل أبواب عمري القادم ليهنأ بلحظات من الراحة.. ألم يعلم ويحس مرة أنه لن يكون سعيدا إلا إذا أسعد الآخرين أولاً.. يكفيني لومك.. نعم تسرعت.. لكني شعرت ساعتها أني مكبل بألف قيد تقبض على كل ذرة في جسدي وروحي.. وقبل أن يخرج من صدري وعقلي آخر خيط من خيوط الحياة لم أجد غير الشاي الساخن.. أنا آسف.. آسف فقط لوجود مثل هذا الكائن.. أنا أخطأت.. وأعدك أني لو عدت إليه يوما ولم أجد الخطاب جاهزا فسوف أصب الشاي الساخن عليه وعلى رئيسه وعلى كل الذين يتحكمون في الهواء والحياة والحب والحرية.

نهض ومضى يتسكع هنا وهناك.. ويمر على من يتذكرهم من الأصحاب حتى انقضى النهار وهبط الليل دون أن تتناقص جبال التعاسة والمرارة.

(٣)

أحس يس أنه فقط بعد أن شرب الحجرين وكوب الشاي يستطيع أن يتكلم طول النهار، ويستطيع أن يمشي عشرين كيلو مترا، ويستطيع أن يعمل ساعات طويلة، ويمكنه أن يصبر على أذى العباد، بدونها لا يسمع ولا يرى ولا يحس.

في الثامنة صباحا يتسلل يس من جنب زوجته جندية بهدوء تاركًا إياها تحلم بما رأته في التلفزيون. تحرك بحذر في اتجاه الحمام ليخلص صدره من أكوام البلغم المتراكمة التي تكبس على رئتيه وتمنعه من التنفس، وتسد عليه كل المنافذ.. وبعد ذلك يمر على ميشو أصغر أولاده ليذهب بسرعة إلى المدبغة خشية ألا يحتسب اليوم إذا تأخر خمس دقائق.

يلبس يس القميص والبنطلون وهو لا يمتلك غيرهما إلا جلباب البيت، ويبحث عن الشراب الوحيد الذي تركه في حوض الحمام بالأمس لتغسله من تعثر عليه. وفي العادة تكون هنية، ثم تنشره، وعليه أن يتوجه مباشرة إلى البلكونة ليسحبه من تحت المشابك ويرتديه، ومن بعده حذاؤه الذي

فكر في تغييره عشرات المرات، لكن الفرصة لم تسنح بعد، لأن أم هنية تقبض على كل الفلوس التي تكسبها والتي ترد لها من وليديها ميشو وجمعة، ولا تسمح له إلا بجنيه واحد كل يوم.

- أريد علاوة.. كل الناس تحصل على علاوة.
- انس.
- القهوة رفعت البنديرة، ثمن الحجرين وحدهما جنيه كامل.
- معك الجنيه
- والشاي
- يكفي حجر واحد
- لا يفيد
- الموجود
- إذا لم أشرب الحجرين لا أصلح لشيء.
- وهل تصلح إذا شربت؟
- وبعدها معك
- كلمة واحدة
- أمري إلى الله.. أنت تنكدين على بلد.

في أحوال كثيرة كان يظهر من يدفع له الحساب، كان الجيران في حارتهم أو في شارع طه وحتى في شارع بديعة الواسع حتى الميدان والجنينة يحبون عم يس ولا ينسون أيامه عندما كان كاتبا أمام المحكمة، يكتب لهم شكاواهم وينصح الواقعين في مخالفات أو مشاكل قانونية بأفضل الطرق للخروج من الورطة يتعاطف مع الجميع ويقدم مشورته بلا مقابل. يحب الناس والنكتة، ويتمنى أن تكون الحياة "سبهللة"، أما زوجته فلا تتصور الحياة إلا وفي فمها لجام.

عندما شاهد ناهد لأول مرة. دق قلبه وسرت في بدنه رعدة غريبة لم يستشعرها من قبل. شعر أنه لأول مرة يرى بنات، مع أنها ليست باهرة الجمال فتاة بسيطة في شكلها ولبسها وتسريحة شعرها، على وجهها هدوء وفيها جاذبية نائمة. في صوتها أدب. عيناها أبرز ما فيها ورموشها طويلة، وما عدا ذلك فهي عادية.

ناهد بنت صديقه بركات السكري رئيس العمال في مخازن حديد التسليح التي يملكها نزيه النمر، وكان يس

يعرف مشكلة بركات الذي أصيب في ساقيه، والنمر أهمل في علاجه وتهرب من حقوقه.. وجاءت ناهد تسأل المشورة.

فجأة اكتشف أن هناك كائنات اسمها البنات. شرع يفكر في صباه وشبابه. بينما كانت تتحدث إليه عن الجديد في مشكلة أبيها.. قدح ذاكرته محاولاً أن يتذكر شكل البنات أيام زمان، ولكنه بدا واثقًا أن البنات لم تكن قد اخترعت على أيامه. لم يكن هناك غير الشيوخ والنساء ومعظمهن كزوجته والأولاد الذين هم في الأغلب عفاريت. لكن أن ترى مخلوقًا جميلاً كهذه الفتاة التي اختارته من دون كل الرجال لتكلمه. شيء جديد وعذب ولذيذ. كل الناس ترقبه الآن وتحسب عليه حركاته وسكناته. قال لها:

- تعالي نقعد في جنينة ناصر واحكِ لي الموضوع بالتفصيل.
- لقد حكيته لك يا عم يس.
- متى؟
- الآن.
- تعالي.. تعالي.. سنبحث له عن حل.

بدت منكسرة، لا تكاد ترفع عينيها عن الأرض، بينما كان يس يتطلع إلى الحركة الدائبة في الشارع الكبير، وعلى الجدران تنتشر لافتات ضخمة عليها صور المطربين والممثلين ولاعبي الكرة، كان يعرف بعضهم لأن الناس طيلة النهار تردد أسماءهم وكذلك الإذاعة والتليفزيون، سألها:

- أنتِ تلميذة.
- أنا موظفة يا عمي.

ابتسم وقال: موظفة.. شيء حلو خالص.

- سكرتيرة مدرسة النديم الابتدائية
- عمرك لا يزيد عن عشرين سنة.
- خمسة وعشرون.
- شيء حلو خالص.

جلس في الجنينة على كنبة حجرية. جلست إلى جانبه، سألها من جديد وأجابته. كان ينظر إلى عينيها حيناً وإلى شفتيها اللتين تفتحان وتغلقان، ويخرج من هذه الحركة كلام، ويرى بعض الأسنان وجزءا من اللسان الأحمر الصغير.

انتقل إلى شعرها الأسود اللامع، ونزل إلى فستانها الأصفر الطويل، وحذاءها البني الصغير المبطط بلا كعب.. توقفت عيناه طويلاً عند يديها الرقيقتين المحطوطتين فوق بعضهما في وداعة بالغة على ركبتها.. الأصابع النحيلة المتلاصقة.. الأظافر المقصوصة. تذكر هنية ولم يجد ثمة تشابها، فطرد صورتها بسرعة، عاد يتأمل الكيان الحبيب. بعد أن حكت الحكاية ربما لرابع مرة، قالت له:

- ما رأيك يا عم يس.. كيف سنتصرف؟

كان ساعتها في منتهى الاندماج. يتابع رحلته ويحاول أن يحفظ كل المعلومات المكتوبة على الخريطة، وكافة التضاريس.. كان يبتلع هذا الكيان الجميل جزءا جزءا، وعضوا عضوا ويحفره في ذاكرته، ولما لم يجد ذاكرة، حاول أن يحفره في قلبه، ويحفره في عينيه، ونسخة من هذه الصور في خياله، لأنه على ثقة أنها هي التي ستبقى، والباقي ليس إلا جوالاً مثقوبا.

عادت تسأله، ولما أحس بالحرج، قال لها:

- أفضل شيء، أروح معك لأزوره، وأفهم منه بنفسي.

نهضت الفتاة وهي في ذهول حقيقي. ونهض يس ببطء، كان شاردا يستقطر السعادة وقلبه مفعم بزغب المشاعر، والسؤال المهم لا يزال كما هو: أين كان عندما مرت البنات به منذ ولدت وحتى الآن، وما السر فيما يشعر به؟.. هل اندلعت في حطب الروح نيران الوجد؟

لم يفق من رحلته مع جنس البنات إلا لحظات، عندما وقعت عيناه على الست زينات العايقة التي كان نهايته على يديها، لما بكت له بكاء مرا وحارقًا من نذالة طليقها، حاول أن يسرق لها ورقة مهمة جدا من قلم المحضرين، ولما ضبطوه طردوه من المحكمة وحرم المحكمة. جلس بعيدا بمظلته والترابيزة، لكن أحدا لم يأتِ إليه في منفاه الوظيفي.. وفي نهاية اليوم الذي ينتهي عادة في الواحدة أسكن أدواته تحت سلم العمارة التي يقف أمامها وعاد منكسا.. فات شهر دون تغيير. وفي يوم لم تطلع له شمس طال صبره حتى الظهيرة وفجأة وقف ولم الشمسية وطبق الترابيزة بعد أن أدرك حجم المصيبة ومساحات العزلة مع إيمانه بأن الناس لم تتوقف عن الشكوى، لكن كتابة الشكوى في الأغلب تتم أمام المحكمة وليس بعيدا عنها.

وضع أدواته تحت سلم العمارة ومضى مبتعدا وهو يشعر بالاختناق.. ظل يمشي حتى وجد نفسه أمام النيل. أسرعت إليه النسائم العليلة تربت على وجهه وروحه، وراحت أنفاسه تبكي على صدرها.

(٤)

حمل الصباح قرص الشمس على ظهره، ومضى يصب منه في أوعية النهار، اشتعل الضوء وتردد في كل ركن، وكانت خطوات الصمت لا تزال تزحف على جفون الشوارع المهجورة وكل الحواس تنعم بالغياب.

فتح مكتبته قبل أن يخرج أحد من داره، وأول ما عمل في نهاره مثل كل يوم، أخرج اللوحة السوداء وكتب عليها بالطباشير حكمة اليوم "الدنيا ملأى بما يكفي حاجاتنا، لا بما يكفي جشعنا".

كان حريصا على أن يغلق كل يوم لوحته بعد أن يكتب عليها الحكمة التي يصيغها في العادة بنفسه، يظل طيلة النهار يفكر في الحكمة ويحاول جاهدا أن تكون من وحي الأيام وسلوك الناس.. وعندما يتوصل إليها لا يشعر بنفسه لأنها تكون محمولة على أجنحة الرضا والبهجة.

حتى يوم الأحد يفتح دكانه ليخرج اللوحة ويكتب عليها الحكمة ويغلق المحل، ويعلقها على بابه.

كان سكان الحارة وما جاورها من الحارات يتوجهون مباشرة كل صباح إلى دكانة ملاك ليقرءوا حكمته ومن لا يستطيع القراءة يسأل من يعرفها ولو تعتعة.

هاهو ذا ملاك ذو الشعر الرمادي ينظر للعابرين من فوق نظارته البيضاء المستديرة ويتظاهر بالانشغال في قراءة كتاب أو ترتيب الكشاكيل، أو فتح العلب أو مسح البنك بينما هو يريد أن يطمئن على أن الناس تقرأ الحكمة، لكنه يدهش لأنه لا يكاد يجد أثر هذه الحكم على سلوكياتهم، وأصبح بمرور الوقت على ثقة أنهم يقرءونها من قبيل الفضول فقط، لا رغبة في الاستفادة والائتناس في مسيرة الحياة بضوء الحكمة وأنوار الكلمات التي تلخص خبرات الأجيال. وإلا لماذا قال له صديقه الشيخ إبراهيم إمام المسجد:

- ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

كتب مئات الحكم وسجلها في كراس كبير، وأمام كل حكمة تاريخ نشرها على اللوحة، نشر في مناسبات حكما للرسول محمد عليه الصلاة والسلام مثل "جنة الرجل داره"، و "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"، و"المرء كثير بأخيه"

ونشر بالطبع حكما للمسيح عليه السلام وللفلاسفة والمفكرين والزعماء، لكن أكثرها من بنات أفكاره وتأملاته.

تضم المكتبة الكتب الحديثة المقررة على الطلبة في مراحل التعليم المختلفة وكتبا قديمة، وكتبا لكبار الأدباء بالإضافة إلى الأدوات الكتابية، وقد تعود ملاك أن يفتح المكتبة النهار كله، وتعود أيضا أن يدعو الأولاد والشباب للقراءة، وشجعهم أن يستعيروا الكتب ويعيدوها فور فراغهم منها ولا يزيد ذلك على أسبوع، ويكتفي بأن يسجل في دفتر عنده: أن كتاب "الأيام" أخذه سمير ابن المعلم حميدة الجزار، وكتاب "البخلاء" للجاحظ أخذه رءوف أخو عواد السروجي، وكتاب "حول العالم في ٢٠٠ يوم" أخذته سنية بنت شرارة البقال.

علي جودة له وضع آخر، فمنذ كان صبيا وهو يذهب إلى المكتبة ولا يستعير الكتب، طلب من ملاك أن يقرأ في المكتبة.. كتابا بعد كتاب ومجلة بعد مجلة، ولا ينسى أبدا قول ملاك له أيام الزيارات الأولى:

- أنت تتعلم من أبويك المشي والكلام، ولكن حين تبدأ القراءة تشعر أنك تعلمت الطيران.

لا يكاد يغيب عنه يوما واحدا، لابد أن يمر عليه، على الأقل ليلقي التحية وهو في الطريق إلى المدرسة، ويقرأ الحكمة، وإذا لم يفهمها سأله. تعود أن ينام ساعة بعد العودة من المدرسة وبعدها يذهب إلى مكتبة ملاك.. يقرأ فيها كتب المدرسة ويعمل الواجب، ثم يطالع صفحات من هنا وهناك، وقد يتحدث إلى ماجدة إذا جاءت أو يصحبها إلى البيت، وقد ينتظر في المكتبة وحده حتى يذهب ملاك إلى داره القريبة لبعض أغراضه، ويقدم للناس ما تعود ملاك أن يقدمه لهم، أو يبيعهم ما يودون شراءه من أقلام وكراريس ومساطر.

قبل أن يلقى عم جودة النمس ربه وكان يعمل خفيرا للشونة، مر يوما بملاك وسأله:

- أين ولدك يا ملاك؟

قال:

- ذهب مع أمه إلى جدته بالصعيد.

قال جودة:

- أسألك عن الثاني.

- أنت تعلم أنني لم أنجب غير مجيد.

ولدك علي يا رجل.. أنسيت؟

تتألق ملامح ملاك وتنفرج أساريره، وهو يقول:

- حقا.. إن علي ولدي وما أنجبه من ولد.. ربنا يحفظه.
- ويحفظك يا رجل يا طيب.
- يا سيدي.. ذهب علي إلى مطبعة الحاج سلامة.. يشتري ورقًا أبيض.

بلغت أذنيه هتافات الأولاد في المدرسة. تحيا جمهورية مصر العربية. أنصت باهتمام. تحيا جمهورية مصر العربية. رأى بأذنيه أصواتهم وهي تتكور بلهفة وحماس داخل أقفاص صدورهم ثم تندفع بقوة من حناجرهم إلى أبواق شفاههم، مشتعلة بالبراءة والصدق، كأنهم يريدون بهذا النداء أن تزول سحابات الغبار، ويصفو الجو ويفهمون الدروس وتتعالى الضحكات.. تصور ملاك أنهم يحاولون مسح الآذان والقلوب من كل ما فيها ليبقى فقط هذا الأمل الكبير.. تحيا مصر.. مصر.. مصر.

* * *

في أعماق الدكان حيث يسود السكون، وتقل الإضاءة ويتناثر العديد من الكتب والأدوات والأشياء الصغيرة، وعلب

بلاستيكية بها حلوى رخيصة. جلس ملاك على منضدته يصب كل نظراته واهتمامه في صحيفة يبسطها أمامه. لم يكن في المكتبة غيره، وقد أتاح له الهدوء أن يقرأ الجريدة كعادته كلمة. كلمة.

في صفحة الوفيات التي يحرص على مطالعتها ليعرف أسماء من رحلوا، وكثيرا ما كان يجد فيها أسماء أشخاص يعرفهم ولهم في قلبه إعزاز، وقعت عيناه على اسم من الأسماء.. توقف عنده. قبض الاسم على ذاكرته وعلى عينيه، أحس أنه كان يعرف صاحبه يوما ما، لكن العنوان لم يساعده على التذكر. وبعد جهد جهيد ومرهق توقف عن محاولات التقليب في دفاتر الذاكرة إذ فشل تماما في استدعاء أي معلومة. وقد حدث هذا من قبل، عرف أناسا كثيرين، وعاش أياما كثيرة، وزار بلادا كثيرة، ومواقف كثيرة جمعته مع بشر وتركت علامات في وجهه ورأسه وروحه.

رأى الأيام تقف وراء بعضها كطابور طويل من الشموع المحنية المطفأة، ليس بينها إلا القليل الذي لا يزال فيه بقايا لهب أصفر مختنق يوشك على الذبول والفناء، ينبعث منها الدخان الذي يتلوى في غموض.

طول عمره كان يتمنى أن يكون كبيرا ومهما ومؤثرا ولافتًا للنظر، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وكيف يحدث هذا وهو غير مستعد لأن يخسر نفسه، فقد كان على قناعة بأن من يلفت الأنظار، هو إما من المجانين أو المذنبين، وهكذا بقي سعيدا بحاله، ويكفيه كما يقول أنه ينام قرير العين، يجد متعة في أن يقول الصدق ويستمتع بالتسامح، ويميل دائمًا إلى حسن الظن بالبشر، ويبرر لهم الأخطاء ويبتكر لهم الأعذار.

تساءل.. هل الباقي من العمر يكفي كي يفتح نافذة يطل منها الناس على الحياة الأفضل.. يشعر دائما أنه يود لو يمد يده للناس جميعا، لكن ما الذي يمكن أن يعينهم به؟ ما الذي يملكه حتى يقدم لهم؟.. أكثر المحيطين به فقراء في المال والعقل والروح.. خاصة الروح.. فكيف يأخذ بأيديهم. كم من البشر يتخبطون في طرق مظلمة وقد غشيت بصائرهم سحب الأطماع والحاجات والهواجس والعقد؟.

ليس عنفوان الجسد وحيوية الشباب أو المال مطلوبة كي يكون الإنسان ذا نفع لأهله وأحبابه، يكفي توقد العقل وتوثب الروح.

لكن الأيام الجديدة – فيما يبدو – لن تحمل لنا إلا وجوها أخرى لما قد جرى في الأيام القديمة.. اللحظات متشابهة في تعاستها وإثارتها للمال، ومن الممكن للمرء الذي يفكر لبرهة أن يتعرف على ما سوف يحدث، فلماذا لا يفعل ذلك أحد؟؟.

من قال: لا جديد تحت الشمس صادق إلى حد كبير، بمعنى واحد، هو أنه من كتاب الأمس نعرف ما سيأتي غدا، ليس بالضبط شبيهه، ولكنه ابنه وحفيده فالغد يولد من الأمس وينضج على نار اليوم.

- لا تحمل هما يا ملاك، مهما كان عملك صغيرا ودورك ضئيلاً، فيكفيك أن تقدم للدنيا ولدين فاضلين، وأن تكون من خلال مكتبتك منارة لكل العابرين.. سوف تنتهي حياتك في سلام وملل، ولكنك لن تكون أبدا ممن يقفون ضد الحياة، ولن تتسبب أبدا في تعاسة أحد، وهذا هو أقصى ما يتمناه الرب.. فلا تندب حظك وكن دائما على استعداد لأن تفتح نافذة للبشر يطلون منها على المجهول، وتطل عليهم منها شرائح نور، فلو لم يكن بإمكانك أن تصنع حياتك كما تريد، فشارك في صنع حياة الآخرين.

- الآخرون هم أنا.. وأنا الآخرون.. الآخر ليس غيري، ولن أنظر إليه شذرا حتى لو اختار الجميع طريق الذئاب.

فجأة ظهرت أمامه زوجته طيفًا ثقيلاً.. صرخت فيه بلا صوت. كانت كل ملامحها تصرخ فيه حتى شعرها. اندفعت تقلب علب الألوان وترمي الكتب وتقذف زجاجات الصمغ والحبر وعلب الكربون وتمزق اللوحات البيضاء.. لم يحتمل المشهد البائس فأسقط وجهه في كفيه.

- وكرهتها وكرهت بسببها جنس النساء.. لم تكن كذلك في بداية الزواج. بدأت رحلتها التعسة بعد سنوات قليلة، خاصة بعد اتصالها بأقاربها الأغنياء هنا في مصر عتيقة وفي شبرا ومصر الجديدة.. عندما كانت في أسيوط مع أهلها كانت الرقة والجمال والأدب.. ثم تحولت تدريجيا حتى وصلت إلى حالتها.. مسكينة.. هل جمالها هو السبب، أم رغبتها العارمة في الثراء؟.. لهفتها على الامتلاك كي تنال كل ما تطلب وتتمنى، فورا بلا إبطاء.. كلما طالبتها بالصبر والرضا اتهمتني بالبرود وبإدماني تبديد الفرص، وقالت عني لجورج ابن عمتها بالحرف: إني خامل بلا طموحات، يحب

الجوع والراحة.. ويجهل الحياة تماما بينما يدعي أنه يفهمها جيدا.. الأسوأ من هذا قولها إنني أخدع الناس بحكمي التي لا أطبقها على نفسي أولاً.. فأي حكمة في أن يبقى الدكان مغبرا مظلما ومفكك الأبواب، مهترئ الطلاء.. للأسف أيدها مجيد.

آخر ثوراتها التي دامت شهورا كانت بسبب عرض ابن عمتها أن يفتح مكتبة كبيرة على أرض يملكها في شارع بديعة على أن يديرها ملاك.. رفض ملاك.. ولسوء حظه أن عرض خال زوجته الثرى جدا وصل بعد العرض الأول بأسبوع واحد فقط لكي يدير ملاك له مصنعا للكرتون في حلوان، ملاك رفض وقال: متغطرس ولا يستطيع التعامل معه. قالت مريم: يملك الملايين وصديق لأصحاب الملايين.. سوف تحدث نقلة كبيرة في حياتنا.

بهدوء شديد قال لها: الحكيم قال: اجعل صداقتك لمن يتمتع بالأخلاق لا لمن يتمتع بالأملاك.

ثارت وقالت: لابد أن هذا الحكيم المخرف هو أنت.

- ولا فخر

- أنت تريد أن تقتلنا، وأن يعيش الفقر في بيتنا والجوع أيضا.
- نحن بالطبع لن نجوع، أما عن الفقر فنحن لسنا فقراء والحمد لله، بل أغنياء، لأن الغني هو من يقنع بما عنده.
- وهل عندنا شيء؟
- الستر والصحة.
- عرفت الآن هدفك الوحيد في الحياة.
- ما هو يا ترى؟
- أن أجن
- لا يمكن أن يكون هذا هدفي، على الأقل من أجل ماجدة ومجيد.

شدت شعرها وألقت ببعض الأشياء وصرخت وثارت، لم يسمع إلا القليل، فقد كان يهبط الدرج، وهو يسأل عن سر غياب مجيد كل هذه الأوقات، يرسم مع زملائه في كلية الفنون الجميلة.

عندما عاد في المساء.. دنت منه ماجدة وقالت له:

- سامحها يا أبي أرجوك، هي لا تقصد.

- أسامحها يا ابنتي دائما.. فالحكيم قال: اغفر لأعدائك فلا شيء يضايقهم أكثر من ذلك.
- أهي عدوة يا أبي.
- نعم يا ابنتي.. أصبحت كذلك بعد أن تمكن منها الشيطان.. والشيطان طبعا عدونا.

دخل مجيد وقال:

- ماما عندها حق.. أنت لا تريد أن تتطور.
- التطور يا مجيد لا يكون في المطلق، في العموم.. هل الهدف أن أتطور، وليكن ما يكون؟.. التطور يكون في إطار من الظروف المناسبة.
- كل الظروف مناسبة.. أنكل جورج وجدي أسعد يملكان الكثير.
- المال وحده لا يكفي.
- يكفي جدا يا أبي.. أنا أعرفك لا تحب التغيير، ومن لا يؤمن بالتغيير سوف تدهسه سيارات المستقبل.. الأيام لن تسمح له أن يوقف مسيرتها..

- أنت لا تفهمني كما تفهمني أختك الأصغر منك.. أنا أريد التغيير ولا أحد يكره المكسب الذي يحسن الظروف، لكن أنا تعاملت مع عمك جورج ولاحظت حبه المفرط للمال ولم تعجبني طريقة معاملته للعمال أو للعملاء.

- من حقه أن يحافظ على كل قرش وينميه.

- المبالغة في الجري وراء المال معناها الدخول في الحرب.

- الكلام معك لن يحقق أي نتيجة.. أنت مقتنع بأفكارك القديمة وقابض عليها بيديك وأسنانك.. ولن تتزحزح.. وأنت تعمل ضد الزمن.. أنا عندي سهرة حتى الصباح في مشروع جمال واطفي. سلام.

قالت ماجدة لأبيها:

- لماذا لا تناقش هذه الأفكار من جديد. انظر إليها نظرة مختلفة متخلصة من عاداتك وما نشأت عليه. ويفضل أن تكون المناقشة مع آخرين وليس مع نفسك.

- المشكلة ليست عندي.. أنا متأكد.. المشكلة فيمن يريدون تغيير الحياة بالملابس والأجهزة والمظاهر، ولو فتح هذا الباب لن ينتهي.. المطالب لن تتوقف دقيقة واحدة، أنا

حاولت طوال عشرة أعوام على الأقل مع أمك كي تخفف من طلباتها وتحاول أن تتفهم حياتي وتضبط تفكيرها على تفكيري.. الحياة عمل وتأمل وعبادة وليست استهلاكًا ثم استهلاكًا. ومن لا يكبح جماح المطالب سينتهي نهاية غير طيبة.

وعلى فرض أني ذهبت إلى أي مكان آخر، لن أكون سعيدا.. أنا أحببت هذا المكان.

- أرأيت.. هذه هي المشكلة يا أبي.. إنك مربوط. مقيد في مكانك.

- نحن هنا بين أهلنا الذين نشأنا بينهم.. تعودت عيني وروحي على هؤلاء الناس ورؤية هذه الحارات وهذه الحيطان، أما الدكان فقد قررت أن أرتبه بحيث يكون فيه ركن أنام فيه إذا تعذر علي أن أبيت هنا، أي إذا تمادت أمك أكثر من هذا.. فهي الآن تبدو في مقدمة الثورة ولم يتبقَ لها إلا الانفجار.

- اصبر عليها يا أبي.. أرجوك.

- ما يهمني الآن ليس أمك.. ما يهمني هو أنتِ وأخوك، وواضح أن أخاك شرب منها الكثير.. أما أنتِ فأنا

أريدك قوية.. استعدي للزمن بالقوة.. والقوة هي القناعة، ليس أقوى في الدنيا من القنوع..، عندما لا تستعبدك الحاجة إلى الأشياء تعيشين في أمان.

- لا تنس يا أبي أن أمي تريد لنا التحسن، وتعلم أن ذلك لن يكون مع غرباء.

- حب المال لا يعرف الغرباء أو الأقرباء، والأهم من هذا أن الصراع من أجل الحصول على المال ضد الإيمان.. وأنا مؤمن بأن الله سيرزقني دائما، وهو الذي يحدد هذا الرزق وحجمه.. وسوف يصلني حتى لو كنت في بلاد واق الواق. إن الرب في الأعالي يرسل الرزق إلى الدودة التي تسكن سابع أرض، والرزق كما يقولون يعرف عنوان صاحبه، ولن تأخذي شيئًا لا يريده الرب حتى لو حاربت الناس جميعا كي تحصلي عليه.

* * *

في يوم رأت ماجدة أمها تأكل أظافرها ثم أصبحت تأكل أصابعها وتقص فستانها لكي يكون قصيرا.. في يوم ثانٍ أغلقت الشبابيك وأضاءت شموعا.. في مرة وضعت سكرا في الطبيخ.

لكن دهشة ملاك بلغت مداها عندما استقبلته في يوم وهي تقول له:

- أكبر إهانة لي زواجي منك، لم يحدث هذا إلا بعد أن مات أجدادي الباشوات.. حليم باشا وأخوه منصور باشا فهمي وإدوارد باشا غالي.

ازداد الحال سوءا حتى نصحه الكثيرون ومنهم أقاربه وبعض أقاربها أن يوافق على دخولها المستشفى.. قاوم طويلاً، لكنه في النهاية رضخ.

(٥)

بعد أن تسكع ساعات كثيرة في الشوارع هائما قرفانًا ساخطًا، مفلسا جائعا مرهقًا تعسا.. المستقبل يتبدى له بحرا كبيرا عميقًا ومرعبا، وهو على وشك أن يسقط فيه من علٍ.. لا قارب. لا طوق. لا جزيرة. لا شيء على الإطلاق ولا حتى معرفة العوم.

قرر في النهاية أن يعود إلى عشه.. مر على مكتبة ملاك. لم يجد عليا هناك. فات على بيتهم. لم يدخل. لمح فتحي الدمنهوري ساكن الدور الأول يصرخ في أمه ويأمرها بأن تذهب إلى أخته، الشقة لا تكفيه هو وعياله الخمسة. لم يجد حماسا للتدخل.. لعن فتحي الذي يطرد أمه من شقتها ومضى إلى علي.. انتقلت أم علي وأخته نور فتاة الثانوية ليقيما إقامة كاملة مع أخته الحامل آية.. سافر زوجها الصعيدي عمران إلى البحرين وحذرها من مغادرة الشقة حتى لو هدمها زلزال.

بادره علي بعد أن وضع الكتاب الذي كان بيده:

- ماذا حدث؟
- في أي شيء؟

- استلمت الشغل؟

- الموظف دوخني السبع دوخات. اليوم ضقت به، ألقيت فوق رأسه كوب الشاي.

- ماذا تقول؟

- ما سمعته

- لم يكن يصح أبدا أن تفعل هذا

- تعبت يا علي

- اصبر

- أنت شغال، وتقبض مرتبا. لا تحس بشيء.

- الحياة في بلادنا تركيبتها مختلفة.

- حظنا.

- لازم نضبط إيقاعنا مع إيقاعها كي ننسجم وتمضي الحياة.

- أي إيقاع يا أستاذ.. تخرجت منذ ثماني سنوات.. أبي ورث عن أمه نصف فدان في البساتين. استولى عليه عمي، ثمنه اليوم فوق المليون جنيه، ومنذ أن توفيت الجدة، أي منذ عشرين عاما ونحن في قضايا.. أخ يأكل أخاه، وعارف أن أولاده في ضنك، ولا قلبه حن.

- لأنه لم ير إلا نفسه فقط. يريد أن يكبر ماديا لا إنسانيا وهذا هو العمى الكبير الذي يصيب كثيرا من الناس.. اطمئن.

- لماذا؟

- لأنه لا يعرف حقوقه كما أنه لا يعرف واجباته.

- قل يعرفها ويتجاهلها.

- لا.. لا يعرف بدقة. ولا يفهم معنى الحياة الحقيقية.. انظر للغني المصري، يشتري بفلوسه لحم وشقق وسيارات ولا يذهب إلى الهرم مثلاً، ولا إلى الأقصر، ومنهم من لا يشتري الجريدة أو يساعد فقيرا.. وكثيرون منهم لا يعرفون أسماء الزهور.. ولا يفهمون في الموسيقى أو أي مصدر للجمال.. وكثيرون لا يفهمون أصول الحكم ولا المعنى الحقيقي للحرية.. شعوب أخرى فهمتها، ضحت من أجلها وأصلحت حياتها ولا تزال تحاول أن توفر حياة أفضل.. عندنا المناضل يفضل يناضل وأول ما يوافق المسئول على استقباله ويتناول معه الغذاء ويأمر بتوصيله لبيته بالسيارة الفاخرة.. ينسى النضال وينسى القضية.

رغباتنا أقوى من أرواحنا. لذلك أتصور أن شعبنا لو فهم معنى الحرية الحقيقية سيغضب ويثور لكرامته.

- أنا ثرت اليوم لكرامتي.
- واحد من ستين مليون.
- كان الكل يجري ورائي.. عشرات الموظفين والمديرين.
- فكر في المنظر.
- لكن قل لي.. أنا أقرأ دائما أن المثقفين هم طليعة الثورة، ولاحظت إنك مثقف كبير، لكنك بلا دور.. أي دور.

تنهد علي بعمق وبدا أنه في ورطة، أو كأن السؤال نزل بالضبط على الجرح.

- كلامك صحيح، لكن السؤال هو.. المطلوب أن يكون لي دور.. مع من؟ مع ناس لا زالت تنجب سبعة وثمانية أطفال، مع جهلة يتسلقون أعلى المناصب، دور مع ناس لا تستغني عن القذارة والفوضى، ولا تتخيل حياتها بدونها.. دور مع غياب الديمقراطية الحقيقية التي تتمثل في الحوارات بكافة أشكالها من أول الزوج مع زوجته، والأب

مع ابنه، وضابط الشرطة واللص أو المخالف، والعامل ورئيسه.

- لهذا يهرب المثقفون.. أليس كذلك؟
- لأنها مباراة غير متكافئة.
- الحل هو الهروب والعزلة!!
- المثقفون الحقيقيون لا يهربون، وإنما يحاربون بالقلم.
- رجال الدين في المساجد أفضل.
- طبعا رجال الدين المستنيرون الذين يفهمون ويفسرون دينهم بلا تعصب ويفهمون جيدا روح العصر ومستجداته.
- وهل القلم يكفي لتصحيح الأوضاع التي تتحدث عنها؟
- لا.
- لماذا في نظرك؟
- العبرة بعقلية صاحب القرار.
- الرئيس.

- الرئيس واحد أو مائة.. لابد أن يتوفر الوعي لدى كل مسئول.. الذين قال عنهم الرسول الكريم في حديثه: كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته.

.. المساحة التي يغيب عنها الوعي كبيرة بأقصى ما تتصور.. كثير من الرجال يفشلون في إدارة منازلهم بالشكل الصحيح المنتج، وقس على هذا واصعد في الأمثلة.

- ما رأيك إذا زاد عدد المثقفين في بيت القرار.. مجلس الشعب؟

- عظيم.. فقط استبدل كلمة المتخصصين بدلاً من المثقفين.. المطلوب خبراء وعلماء.

- وهل يمكن أن يدخلوه؟

- أشك في هذا.

- من المسئول؟

- الحكومة تفعل ذلك بطرق سرية.

- إذن لا أمل.

- لذلك يحجم الكثير من المثقفين عن الدخول وعن المواجهة.

- والعمل؟

- يحاول الكثيرون تطبيق الدين على الدولة، في حين أن الدين سلوك الفرد في الأساس وليس الجماعة.

- بمعنى.

- أن يطبق كل فرد أصول وقواعد الحياة السليمة كما رتبها الخالق على نفسه أولاً وآليا ينصلح الحال.

- تقصد أن يتم التغيير في القاعدة.

- بالضبط.

- وأنا.

- إلى أن يجد في حياتك جديد. لا تغضب. اقرأ وتثقف. تعلم كومبيوتر. اتقن لغة عالمية.. الإنجليزية أو الفرنسية. انزل إلى بحر المعلومات.. ألذ ما في الحياة القراءة وشرب المعلومات، ستصبح لك عيون أخرى وقلب آخر وعقل مختلف. ولا تنس أن العمل لن يأتيك وأنت تضع خدك على كفك وتسخط على الدنيا.. اعمل أي شيء حتى لو كان تصليح كراسي في شقتك. وسوف يأتيك العمل. انس المرتب وانس الحكومة. عش داخل حارتك المرورية.. تذكر قول الله للسيدة مريم "وهزي إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا" يقول لها ذلك هو يعلم أنها حامل ولن تستطيع أن

تهز النخلة، بل عدد من الرجال لا يستطيع ذلك، لكن لابد من أداء أبسط الأعمال لتحريك طلمبة الرزق. اقرأ واستعد لكي تستقبل الثمار، فهي رغم أنف الجميع سوف تأتيك. ألست تأكل الآن برتقالة صاحبها على بعد مائة كيلو على الأقل، وفي مصر يأكلون تفاحا زرعه فلاح أمريكي، ويشربون قهوة من عرق برازيلي. لا تتوتر.. اضبط نفسك واسع.. اسع بفن.

نبيل: يعني.

علي: بهدوء.. بصبر. برضا.. الناس في أحيان كثيرة يسيئون فهم الدنيا ويتنازعون من أجل توافه.. وأثناء النزاع يفقدون المتعة واللذة التي تغيب عنهم لأنهم يركضون ولا يتأملون ما يفعلون.. هل رأيت مرة أحد هؤلاء يتأمل التكوين الرائع للبرتقالة أو الرمانة.. افتح رمانة وتأمل الهندسة الإلهية.. تأمل الفن في تركيب أجزائها.. الحب الأحمر اللامع.. كل مجموعة في ركن يغطيها غشاء رقيق لونه ذهبي.. وفي هذا الركن يصطف الحب الأحمر ويتعانق ويبتسم.. تأمل عروق البرتقالة وفصوصها.. كل فص مكون من مئات الحبات البللورية..

الإنسان المعاصر أصبح مجنونًا.. يحاول أن يأكل أكبر كمية من الطعام ويستهلك ماء كثيرا ويغرق في الصابون ويصب على بدنه العطور، ويغير كثيرا وباستمرار في الملابس والسيارات والشقق والديكورات والزوجات والأولاد والأعمال والبلاد، وعليه لكي يفعل هذا أن يجمع أكبر قدر من المال.

هل هذه هي الدنيا؟.. لا.. أنت نفسك لحقت بك العدوى عندما ذهبت إلى الموظف وكان نائما مقصرا في حقك صببت عليه كوب الشاي الساخن من أجل ماذا؟.. تؤذي أخاك الإنسان.. من أجل أن تعمل وتقبض مرتبا لا يكفيك.. لا تندهش لأني أقول لك إننا بحاجة إلى الفن.. الفن الراقي.

نبيل: تقصد أن الفن مطلوب للتربية.

علي: ليكن ما تقول.. ما دام الأهل لم يفعلوا هذا ولا المدرسة. البلاد الأوروبية لم تتقدم بالثورة الصناعية ولا بالتكنولوجيا ولا بما نهبته من المستعمرات، لكن بالفن.. الفن جعلها تضع كل ما ذكرناه في موضعه الصحيح.. أما نحن فلدينا رجل الأعمال الذي يركب المرسيدس ويبصق في الشارع وعلى السجادة، ويتمخط في كمه ولا يتفرج على

أفلام يوسف شاهين أو لوحات صلاح طاهر ولا يحتمل مسرحيات الحكيم.

نبيل: هذا الكلام لا يمت للواقع بصلة، أنت تعيش في برج عاجي ولا تحس بأحد.. أليس كذلك؟

تنهد علي ولاذ الاثنان بالصمت لحظات.. وقام بتشغيل المسجل.. وتسللت منه موسيقى هادئة.

مال نبيل بجنبه على الكنبة وقال بصوت باهت:

- لم ترد علي.. ما علاقتك بالواقع يا علي.. الواقع يعني الشوارع مثلاً.

- أصبحت أسير في الشوارع دون أن أحس بالحفر والمطبات ولا بخبط الناس في كتفي أو صوت الكلاكسات المزعج أو صراخ المنادين وزعيق الكسيتات.. أنا أغلقت على نفسي من الداخل، ولو سمحت بفتح نوافذي لهم لأصبت بالجنون أو تشاجرت معهم، وكان مصيري من زمان السجن أو المستشفى.

- وهل القراءة هي الحل الوحيد؟

- أحاول البحث عن حقيقة القصر المجهول.. من بناه وفي أي عهد والغرض منه؟

- الخرابة؟

- للأسف.. أصبح خرابة.

- تعيش في الماضي، والحاضر يطرق بابك

- أنا لم أعد أمنحه سمعي

- أنت تسمعه ولكنك تتجاهله

- يستحق ذلك

- لن نعود للاختلاف.. هل وصلت إلى أي معلومة؟

- أقوال كثيرة متضاربة ومختلطة، اختلاف في التواريخ.. فترات قد تصل إلى خمسين سنة ناقصة في الكتب، لا يرد ذكر شيء عنها. فترات كثيرة منسية أو تجد عنها ثلاثة أسطر، لا تنفع، ولا تشفع.

لكن لن أيأس.. أحس أني لو وصلت لحقيقة هذا القصر وساعدت في إعادة الحياة إليه أكون قدمت خدمة كبيرة للتاريخ وللثقافة.. للماضي وللحاضر معا.. تعرف يا نبيل..

وتنبه إلى أن نبيل راح في سابع نومة.. عدل تحت رأسه الوسادة وعاد إلى "النجوم الزاهرة".

(٦)

اسمه محمد، ميشو اسم الدلع. كان ذلك في السنوات الأولى فقط، والأسرة لم تعرف الدلع. الحاجة سفينة خالة جمعة، حضرت من عمان محملة بالهدايا لأختها وأولادها وزوجها يس الفار. طلبت أن يدلل باسم ميشو، فدللوه.. طلبت أن تأخذه لها فهي لا تنجب. رفض يس. سافرت سفينة مع زوجها، ودموع الأسى ظلت معلقة بقلبها مدة.

لأنه آخر العنقود، ورزق به بعد سن الخمسين، فرح يس به جدا. ظل نصيب ميشو من الدلع اسمه فقط، وما عدا ذلك لم تسمح الظروف، إلى أن خرج من المدرسة نهائيا واشتغل في مدبغة.. كانت هناك دائما مشكلة خاصة بنوم ميشو، فالشقة ثلاث غرف، وسكانها ستة قبل وصول ميشو، كل اثنين في غرفة. نبيل وجمعة في واحدة والبنتان في واحدة والأب والأم في واحدة، ولما ظهر ميشو قضى السنوات الأولى مع أبيه وأمه، ولما كبر قليلاً.. فوجئ به أبوه – وكان فوق أمه – مفتوح العينين يحدق فيما يجري فأمر أن ينام مع أخويه، ولكنهما رفضا بشدة ثم أذعنا إذ لم

يكن بالإمكان أن ينام مع هنية وراوية، لكن زواج راوية، حل المشكلة، انتقل ميشو للنوم مع هنية، وإن لم يستمر ذلك طويلاً، فقد ظهرت مشكلة، كانت السبب في أن ينتقل نوم ميشو من حجرة هنية إلى حجرة الوالدين الذين أصبحا ينامان دون أية رغبات.

كان عفريتًا وشقيا، من شدة شقاوته بالنهار ومن كثرة عرقه يشرب الماء، وهذا الماء يتجمع في مثانته لتطلقه فيضانًا بالليل، يغرق ميشو والمرتبة، ويتسلل البول إلى هنية رغم المفرش البلاستيك، حتى أنها في عز النوم تشعر بالأنهار التي هدمت الأهوسة، وأغرقتها فتنهض صارخة تجري في الشقة كالمجنونة أو المحترقة.

يظل ميشو يأكل الأرز مع الملائكة بينما الشقة كلها استيقظت لتبحث عمن يصرخ ولماذا؟!

تضطر أم هنية لإيقاظ ميشو.. لا يستيقظ، تحمله حملاً إلى الأرض وتبقيه واقفًا يساعدها أحد الأبناء في تغيير ملابسه والملاءة.. تعيد وضع المفرش البلاستيك الذي تفرده تحته كل ليلة.

عندما تكررت هذه الواقعة مرات، رفضت هنية رفضا قاطعا أن ينام معها ميشو الذي تحبه بالنهار فقط، وكل ليلة يحول لها الحجرة إلى دورة مياه رجالي بشعة الرائحة.. تقول إن الدولاب المقفول تنفذ فيه رائحة "الصنان" وتضغط عليها الرائحة الثقيلة بكل قسوة، قالت له عدة مرات بمنتهى الرقة: لماذا لا تنهض إلى الحمام عندما تشعر بالرغبة في التبول.. نكس رأسه وقال:

- أنا أحلم أني في الحمام.. ولذلك أفرغ كل ما في بطني من المياه.

هكذا انتقل ميشو إلى حجرة والديه.. نام على الأرض عدة ليالٍ وفصلت له أمه مرتبة، ونام الصبي أخيرا على سرير مستقل وانتهت المشكلة.

لما كان ميشو في نحو الثامنة من عمره، قال لأمه:

- ولد زميلي في الإجازة يعمل في مدبغة ونفسي أشتغل معه.

- ماذا يعمل في المدبغة؟

- ينقل الجلود من السيارات والعكس

- فقط؟

- فقط

- طيب يا حبيبي

راح ميشو وبقي منتظما في العمل شهور الإجازة الصيفية.. كل آخر نهار يضع يده في جيبه ثم يخرجها وفيها ثلاثة جنيهات يسلمها لأمه. تقبله وتقول:

- رجل يا ميشو

- محمد يا أمي.. محمد

استمر يعمل حتى بدأ العام الدراسي الجديد.. وفاجأ أمه وهو يمد لها أربعة جنيهات بقوله:

- سأظل في المدبغة.

- المهم رأي والدك وإخوتك

قال نبيل وهنية: لا

وقال أبوه وجمعة: إذا كان مرتاحا خليه

سألته أمه:

- مرتاح يا ميشو في المدبغة؟

قال لها بقليل من الحدة: اسمي محمد..

ضحكت وعانقته وقبلته، وعادت تسأله:

- مرتاح يا ميشو؟

ضحك الجميع، وقال بحدة أكثر:

- اسمي محمد يا أمه
- مرتاح يا محمد في المدبغة؟
- ما دام فيه فلوس أنا مرتاح.

بعد ثلاث سنوات أصبح مرتبه ستة جنيهات يقبضها مع كل غروب.. تحجرت يداه وتشققت، تلونت بألوان أخرى غير لون جلده.. طال عوده قليلاً واصفر وجهه، وغدا رفيعا يظهر عظمه في عدة مناطق خاصة لأمه التي يتعرى كي تحممه وأحيانًا تقوم أخته بالمهمة وتقول له:

- تبدو كأنك لا تأكل طول النهار.. أنا ممكن أعد ضلوعك.
- بل آكل.
- ماذا تأكل؟
- فول وطعمية أو كشري.
- لا تكفي. لابد تشرب اللبن.. أنت لا شك تتعب.
- سوف أشرب.
- سأبعث إليك أخاك نبيل ليرى ماذا تعمل بالضبط؟
- في عرض النبي.. إلا نبيل.

- أباك إذن

- لا ترسلي أحدا.. أنا أعرف مصلحتي

- أنت لا زلت طفلاً لا تعرف شيئًا

يدفع يدها قائلاً:

- خلاص.. اتفضلي بره.. لن استحم

- تتوتر هنية، وتقوم بوضع همها في دعك جسمه بقوة حتى يصرخ رافضا الحمام. تصالحه وترضيه ليهدأ ويسمح لها أن تكمل مهمتها.

(٧)

يصل التلاميذ إلى مدرسة النديم بسيارتي أتوبيس، يقودهما يحيى صقر وحافظ شارودة.. يسهر السائقان كل ليلة مع جمعة وباقي الأحبة في دكانة موافي العجلاتي بعد أن تخف أرجل الزبائن.. تنزل الشيش والشايات والقهاوي وكثيرا ما يصاحبها اللب الأبيض والأسمر والفول السوداني، لا يتوقف حافظ عن إلقاء النكات. منبع لا يجف من خفة الدم وحضور البديهة، يلتقط القفشة من الهواء وقادر أن يضحك الحجر.. عبقرية ضلت طريقها فسكنت هذا السائق.. كان من الممكن أن يكون فيلسوفًا أو مخترعا، لكن هكذا انتهى وتجمد مثل كثير من المصريين. الواحد منهم أقصى مجده أن يرى الناس تضحك على ما يقول، وفي آخر الليل يعود إلى بيته، مفلسا لكنه قرير العين يقول: انهدي يا أرض انهدي.

ويجيء دور جمعة الفار فيغني، ويقول له الجميع: الله.

يوم بعد يوم بدأ سهر يحيى يقل، ولما استفسر جمعة لم يصل إلى رد مقنع.. استبعد أن يكون رفض هنية له هو

السبب، بدليل أنه حضر بعدها مرات كثيرة كما أن ما بينهما أكبر من ذلك.. ولازم البنت تسأل قلبها ولا أحد يغضب من رفضها حتى لو كان عزيزا ومقربا من العائلة.

الحقيقة أن يحيى لما رفضته هنية، وحصل أن رفضته اثنتان قبلها، راجع نفسه، وقلب المسألة على كل الوجوه، وحلل الأسباب بهدوء. انتهى إلى أن البنات لا يردن إلا أكياسا على شكل رجال محشوة بالنقود، وبناء عليه فليس بإمكانه أن يجد من تقبله إلا إذا كان لديه المال الكافي وهو بالكاد يجد قوت يومه.

واصل التفكير في مصادر المال، لكنه لاحظ أنه لا يملك أي وسيلة.. لا عائلة ولا ميراث.. لا تعليم ولا مشروعات. بل هو لا يعرف حتى التجارة في المخدرات ولا يعرف كيف يسرق أو يحتال.

رغم هذا فقد ظل يفكر ويتعرف إلى أصدقاء جدد ويجلس مع رجال كبار في السن وأقدم في الحي، إلى أن عثر على معلومة مهمة تقول: إن فيلاّ البارودي التي تقع على ناصية طه مع بديعة لا تقيم فيها غير ابنته نرجس هانم التي تبلغ الأربعين من العمر.. عانس. تركها أخوها سراج

وسافر إلى أوروبا منذ أربع سنوات، ولم يعد، ولم يرسل إلا خطابا واحدا منذ عامين، وأهم جزء في المعلومة أن حشمت باشا البارودي ترك أراضٍ كثيرة في كفر الشيخ والهرم وعقارات بشارع بديعة.. قرر يحيى سائق الأتوبيس أن يدخل عالم نرجس. ولم يكن من سبيل للتعرف على هذا العالم غير فتحي الدمنهوري ابن خالة يحيى الذي يعمل بعد الظهر مع كمال ياقوت المنتج السينمائي زوج عين الحياة أخت نرجس، لكنه بعد تفكير، قرر ألا يعتمد على فتحي ابن خالته، أولاً لأنه مقزز بسبب معاملته لوالدته، وثانيا لأنه – في اعتقاد يحيى – لن يكون أمينًا في قول الحقائق، فضلاً عن أنه سيتملق ياقوت صاحب العمل بإفشاء أسرار يحيى لديه.

* * *

أبلغ الجنايني نرجس هانم أن علي سمك وضع في صندوق البريد خطابا باسمها. أسرعت تفتحه.. لم يكن من أخيها سراج.. كان من شخص لم تسمع به من قبل.

نرجس هانم

تحياتي.. مررت أمام بيتك عدة مرات، وفي آخر مرة وقعت عيني دون قصد عليك وكنت تقرأين إحدى

المجلات في الحديقة. وقفت أطالع جمالك. كانت معلوماتي أن هذه الفيلا مهجورة، فإذا بها سيدة أنيقة وجميلة. دق قلبي بقوة، لكني اضطررت للابتعاد حتى لا أسيء إلى نفسي وإليك.. وبعد أن عدت إلى بيتي.. لمت نفسي، فقد كان علي أن أقف طويلاً وأتأملك فربما لا تتاح الفرصة.. وبعد لحظات قررت أن أكتب إليك هذه السطور تعبيرا عن إعجابي، فربما يهدأ قلبي ويستقر، ويكف عن لومي.

ودائما لكِ كل احترامي وسلامي

صديق من طرف واحد

يحيى صقر

استولت الدهشة على نرجس. طوتها ولفتها. دارت في الحجرة تبحث عمن يكون قد رآها. خرجت إلى "التراس". وقفت تنظر إلى الشارع.. من مِن هؤلاء المارة هو المرسل.

جلست وقرأت الخطاب من جديد. قرأت بهدوء شديد تحاول أن تقلب كل كلمة على أوجهها لعل هناك ما وراءها، وربما هناك شيء بين السطور.. لم تكتشف أن وجهها علته الحمرة، لكنها أحست بدقات قلبها الذي لا تذكر أنه دق في

يوم من الأيام إلا مرة واحدة ولسبب مختلف.. عندما استيقظت في الليل على حركة، كمنت في سريرها وبقيت مستيقظة حتى الفجر دون أن تبلغها أي علامة تفيد أن غريبا بالفيلا. اكتشفت في الصباح وقوع أصيص البوتس. عادت الرسالة الغريبة تشغلها وتدفعها إلى تقليب عدد لا نهاية له من أحوالها.

في الرسالة التي وصلت بعد أسبوع قال لها:

نرجس هانم

تلاحظين أني واضح.. كتبت اسمي لأني مقتنع أني صادق في شعوري ومقتنع أيضا أن من حقك علي أن أعرفك برأيي في جمالك، وخاصة أنه من النوع الصعب، أي الذي لا يكشف عن أسراره مع النظرات الأولى. جمال عميق آسر وساحر.. اعذريني.. أنا تعليمي بسيط.. لكن صراحتي هي كل رأسمالي. في آخر مرة مررت بالفيلا تأكد لي أنك تعودت الجلوس في الحديقة ساعة في الصباح على كرسي بامبو، وتشربين الشاي في فنجان مناسب لديك، وتلبسين في الأغلب جيبة حمراء واسعة وبلوزة بيضاء مطرزة.. ما هذا الذوق يا سيدتي؟

هل قرأت بيت الشاعر الذي يقول فيه:

صوني جمالك عنا إننا بشر   وهذا الحسن رباني

أتركك بألف عافية

يحيى صقر

بقيت نرجس في الفراندة سهرانة. إحساس بالخفة والأمل، يحملها ويهزها هزات حنون. القدر قرر أن يطلع عليها بخبر هام ويغمسها في تجربة جديدة.. ولا تدري ما هي مقبلة عليه.. رفعت عينيها للقمر كأنها تسأله.. طالت النظرات وتناهى إليها صوت فيروز:

سكن الليل وفي ثوب السكون تختبئ الأحلام، فتعالي يا ابنة الحقل نزور كرمة العشاق، علنا نطفي بذياك الرحيق حرقة الأشواق.

القمر.. شعرت بالسعادة لأنه يقترب منها جدا ويحنو على قلقها.. أحست أخيرا بالبرد.. استأذنت منه واعترفت أنه غصب عنها.. لما تمددت على السرير، وجدت القمر على الوسادة ينتظرها ويبتسم.

كان الجنايني يحضر مرة واحدة في الأسبوع، طلبت إليه أن يحضر مرتين وضاعفت له الأجر، وكلفت الخادمة

أن تحضر أي واحدة معها من معارفها ويقوما بتنظيف الفيلا بالكامل، لا يبقى فيها سنتيمتر دون تنظيف.. بدأت تفتح الراديو وتسمع الأغاني والموسيقى والبرامج الأخرى. اهتمت بملابسها وأعادت الحياة إلى أزياء قديمة كانت قد أهملتها.. وشاهدتها الخادمة مرة وهي تجري بعض التمرينات الرياضية حسب شرح البرنامج الذي يذيعه الراديو، كما رأتها وهي تفتح بعض الصناديق وتخرج منها لوحات تطلب تعليقها ومفارش مخملية جميلة توزعها على المناضد ومساند الصالون.

ظلت في حيرة حقيقية لأنها لا تستطيع أن تعرف، من هو هذا المعجب، ولم يحدث أن حدثها أحد بهذا الشكل عن ملامحها وملابسها. صارت تنظر إلى الشارع من وراء الشيش، وتحدق في الناس.. ولاحظت بنفسها أنها تعمل بعض الأمور مرتين أو تتردد في عمل شيء دون أن تدري لماذا..

بعد أسبوع وصلتها الرسالة الثالثة التي كانت تنتظرها بلهفة. ودت لو شاهدت علي سمك ساعي البريد وهو يضعها في الصندوق، ولما رأته في إحدى المرات

ماشيا. سألته كما كانت تسأل منذ مدة ثم توقفت بعد أن ملت برود أخيها.

- فيه رسائل.

- لا.. يا هانم.

- لو جاءت رسائل.. أفضل أن تنادي ولا تضعها في الصندوق.

نجرس هانم.

"أظنني شغلتك كثيرا برسائلي.. لذلك فكرت أن أتوقف، حتى لا تتصاعد مشاعري إلى درجة عالية يصعب علي بعدها أن أواصل عملي وحياتي وحتى لا تنشأ صداقة بيننا، وهي صداقة لا تقوم على أساس لأنك بنت باشا وأنا موظف بسيط، أعزب وفي مقتبل حياتي العملية وأسرتي فقيرة.. ولا أملك من حطام الدنيا إلا عقل وقلب، ومن حقي أن أحس وأنفعل بالجمال، ولكن عقلي يقول الآن.. كفى.. نظرت نظرة وشفت الجمال وحبيت صاحبته.. خلاص. لذلك أقول لك: سلام

يحيى

ملحوظة:

عندي مشوار قريب منكم السبت القادم.

ممكن أسلم لو وجدت بوابتك على مصراعيها مفتوحة في الساعة العاشرة صباحا.. هذا معناه..

موافقتك.

يوم السبت ارتدى يحيى أفضل ما عنده. وقف أمام المرآة. رضي عند البدلة المكوية تمنى أن يكون لديه رابطة عنق، وليته تذكر أن يستعيرها من محسن.. حسب أن هذه الأبهة التي أصبح عليها ستقلل من عرض جبهته التي تأكل نصف وجهه، لكنه فوجئ بها تكبر أكثر، خاصة لمالمع الفازلين على شعره.

- كان على سيد غراب أن يقصر السوالف قليلاً.. لكنه رغم ذلك حلاق ماهر، لا ينكر ذلك أحد، المهم أنه أبقى على كمية شعر تقلل حجم الأذنين.

ابتسم سعيدا بشاربه الكث، وخن بأنفه، وتمنى أن يتذكر وهو عندها ألا يخن.. كانت هنية تتضايق جدا من هذه العادة التي لا تود أن تتركه.

صب على وجهه وصدره نصف زجاجة العطر التي اشتراها خصيصا لهذا اللقاء. ألقى النظرة الأخيرة على هندامه ليتأكد من مجمل الصورة التي ستقع عليها العين.. أيقن بأناقته في حدود ما يملك، وهذا ما لاحظه الأولاد وهو يوصلهم في الصباح إلى مدرسة النديم، وبعضهم ممن يتسمون بالجرأة والشقاوة علقوا على ذلك بكلمات لطيفة فزادت سعادته.

وقال لنفسه:

- إذا كان الأولاد الصغار لاحظوا ذلك، فلابد أن الأمر سيكون مرضيا ولن تجد نرجس صعوبة في قبوله.

تناول فطوره المعتاد من يد شكورة الذي يقف بعربة الفول على الرصيف أمام المدرسة. مضى إلى المقهى فشرب كوب ينسون، فقد سمع عن فائدته في تسليك الحنجرة وتنقية الصوت. أعد نفسه للقاء نرجس هانم.. دخل المدرسة واغتسل جيدا بعد الإفطار ونظف أسنانه وتمشى ببطء شديد في اتجاه الفيلا وهو يقول مفتوحة. مقفولة. مفتوحة. مقفولة.

محسن مدرس التربية الرياضية في مدرسة النديم وابن شبل اللبودي تاجر المانيفاتورة توطدت علاقته بيحيى،

لأن يحيى أخذه معه عدة مرات في الأتوبيس، ونما إلى علم يحيى نبأ العلاقة بين محسن ورشا مدرسة الرسم في مدرسة البنات وأنهما يلتقيان.. نقلهما مرتين إلى كازينو النيل، وكان يحيى على مستوى المسئولية، فلم يلفظ كلمة لمخلوق، وكان دائم السؤال عن الآنسة رشا وموعد الزواج، وأحياناً كان يحمل رسائل محسن إليها. كانا من وجهة نظر يحيى شابين جميلين منسجمين، يمثلان صورة من صور جمال الحب ورقته وحنانه، ويغريان بالحماية والمؤازرة.

عندما استعد يحيى لدخول عالم نرجس، صارح محسن بالفكرة وكل عناصرها وأطرافها وظروفها ما عدا اسم من عليها العين، كانت الفرصة مواتية كي يرد محسن أفضال يحيى. وضع له خطة الرسائل وكتبها له. حدثه عن المرأة وأهم الوسائل لكسب ودها.

سأل: معقول.. هل تقبله امرأة وهو على حاله الـ..؟

- إن أعتى النساء جمالاً وحسبا وثراء يمكن أن ترضى بك وأنت بدون مؤهل.. المهم أن تمتلك الوسيلة.

- ما هي الوسيلة.. أنا في عرضك؟

- رقة المعاملة والتصرف معها باحترام وصبر مع الثقة بالنفس والكرم.

اندهش يحيى وأبدى تشككه، فقال محسن:

- أعرف واحدة حاصلة على الدكتوراه، تزوجت من ميكانيكي، كان يحمل فقط دبلوم الصنايع لكنه كان مهذبا واطيفًا، يتصرف بلباقة ومنظره يسر العين.

عاد يحيى يسأل:

- أنا نسيت.. ما هي الوسيلة المثلى للحصول على قبولها؟

- اثنان لها، وواحدة لك.. الذوق معها والكرم، ولك الثقة بالنفس.

قرر أن يتوكل على الله، يا صابت يا خابت.. لن تحدث خسائر لا في الأرواح ولا في المعدات. فما الذي تأخذه الريح من البلاط.

قبل أن يصل إلى الفيلا، انحرف كي لا يكون إلى جوارها، انتقل إلى الجانب الآخر بحيث يراها من بعيد، كانت الساعة التاسعة والنصف. أرسل نظراته صوب الفيلا.. كانت البوابة مفتوحة عن آخرها، وكذلك الباب الداخلي

والشبابيك، والممرات بين أحواض الزهور.. حتى الزهور كانت مفتحة.. حمد الله لأن متاجر شبل اللبودي للقماش كانت مغلقة حتى لا يصل سره إلى أحد.

(٨)

كوى القميص الذي غسلته هنية بالليل وكوى البنطلون ولمع الحذاء وانطلق إلى المقهى ورأسه مشغول بآمال كبيرة يتمنى أن يحملها هذا النهار.

كالعادة شرب الحجرين وكوب الشاي، وعمل حسابه أنه يجهز نفسه للموعد الذي يحين في الثانية عشرة بعد أن تخرج ناهد من مدرسة النديم.. لقد اتفقا أن يلتقيا على شاطئ النيل أمام المستشفى بعيدا عن عيون أهالي الحي.

بعد أن دفع قدميه في اتجاه سيد الحلاق، توقف ورأى أن يبحث عن حلاق آخر غريب لا يعرفه، تذكر أن هناك حلاقًا في متصف شارع بديعة.. لن يخبر أحدا بشيء. لن يفشي سره أو يكشف خططه. لن يسأله عن سكنه وأهله كما يفعل بعضهم، ومن اليسير عليه أن يخبره إذا ألح في السؤال بأية معلومات.

عاد وتوقف وهو يتذكر أن في جيبه ثلاثة جنيهات فقط، وحلاق بديعة سوف يحتاج للشعر والذقن والشنب مبلغًا وقدره.

- لا.. سيد أرحم، وممكن ألا أدفع.. أقول له حين ميسرة، حتى نشرب أنا والجميل كوبين من العصير أو آيس كريم بالفلوس الباقية.

عاد يتجه إلى سيد، وبعد خطوات توقف وهو على قمة الحيرة.. تنهد وقال: المشكلة لسانه.. غاوي يتبرع بالمعلومات.. أعوذ بالله منك يا شيخ.

مضى يكلم نفسه، يؤيد الذهاب للحلاق البعيد، ثم يرجح سيد. يفضل الستر ثم يهدده قصر اليد ورغبته في كسب الود وتحسين العلاقة.

- لا أمل في كسب الود بدون عصير، ولن تتحسن العلاقة إذا لم تلحس الآيس كريم، وإذا رحنا للغريب، لن يكون هناك ود ولا علاقة.. أخيرا عزم وصمم على الاتجاه إلى سيد.

- الأهم فالمهم.. المطلوب الآن.. الفلوس.. وربنا يستر علينا من الفضحية.. أنا لا أخشى أحدا.. أنا رجل البيت وحر.. لم يخلق بعد من يمنعني من شيء أرغبه.

قبل أن يصل إلى باب الدكان. تسمرت قدماه في الأرض وهو يقول:

- يمين بالله ما أنا داخل.. موس الغريب أرحم.

اندفع بخطى واثقة يتفجر من تحتها الإصرار والحسم إلى شارع بديعة ودخل على الحلاق، فرح لأنه كان وحده، يهش الذباب.. قال له:

- سأكون صريحا معك.. أنا أهلي كلهم من أرباب مهنتك.. زمل يعني. تركتهم جميعا وجئت إليك.

- أهلاً وسهلاً.

مراتي ماتت من سنين، واليوم نويت أن أخطب، ما رأيك؟

- عين العقل.

- عندك حل لظروفي.

- بعون الله أرجعك عشرين سنة.

- تعجبني.

نفض الحلاق الفوطة، طرقعت بقوة مثل سوط الحوذي كأنها تعلن أنها سترضيه وتعيد له الشباب الذي ولّى بلا رحمة.

عمل الحلاق بحماس واهتمام.. استخدم كل الأدوات، واستعان بخبرته ليفي بما وعد. شد الفتلة ونتف. خفف وسوى ودرج.. قصقص الشعر الواقف بين الحواجب، والشعر المطل من فتحتي الأنف والأذنين. نعم الذقن وضبط الشوارب وسقاهم بالكريم. رش العطور. ثم قال لزبونه الجديد.

- نعيما.

أطل يس في المرآة، وفي المرايا الأخرى التي كانت تحاصره وتتطلع فيه من كل ناحية. أحس بالرضا عن شكله. اقتنع أن الرجل عمل أقصى ما يستطيع.. الفرق واضح..

قاله له:

- أنعم الله عليك.. المشكلة في الشعر الأبيض.

- أكثر الشباب اليوم شعرهم أبيض، والبنات تبحث عنه.

- عندك حق.

- دليل الخبرة والتجربة.. يوفر الثقة ويبعد الشك.
- علي بركة الله.
- مبارك مقدما.
- عتبتك تخليني متفائل.

أخرج جنيهين من جيبه.. دسهما في يد الرجل وهو يقول:

- لا تعدهم.
- مقبولين منك، دون عد.

رفع الرجل النقود إلى فمه، قبلها ورفعها إلى جبهته وعاد يقبلها.

سار يس، يحلق به إحساس مختلف، يتنفس بعمق.. صالبا عوده، رافعا رأسه، قاصدا أن يتأمل الدنيا بعد حلاقته، يراقب نظرات الناس المصوبة نحوه محاولاً التأكد من عيونهم أنه اختلف، وبينما قدماه تلمسان الأرض بالكاد، كانت شفتاه تلبي رغبة قلبه بالتغني والدندنة.

لا يزال المتبقي نحو ساعة، وضع يده في جيبه، لم يجد غير اليتيم، أخذ يفكر في مصدر مال يدعم به الجنيه المسكين.. نطت صورة والده على شاشة مخه قلب الفكرة في

رأسه، وسرعان ما رضي عنها وبدأ التنفيذ بعد أن أعاد على نفسه.

- جمعة أكيد لم يدخل جيبه مليم.

قالوا له إن شخصا يريده، فلما خرج من المدبغة لم يتعرف مباشرة على والده إلا بعد أن تأمله لحظات، وساعده على ذلك أن أباه كان وحده، ولن يختلط الأمر عليه، وأبوه أيضا لم يتعرف عليه بسهولة، إلا لأنه كان ولدا صغيرا، ملابسه لم تكن أكثر من شوال خيش قصير تحته ساقان رفيعتان وكان شعره ملبدا وقذرا ووجهه ويداه ملونة بألوان مختلفة.

دق قلب يس لمنظره ولده.. اهتز وتلجلج.. لم يعرف ماذا يقول.. وفكر أن يأخذ ولده كما هو ويعود إلى البيت.. مستحيل أن يكون هذا هو ولده.. كائن ممصوص وقذر، بائس. لا يعرف البسمة. ضئيل. مهموم. من أجل بضعة جنيهات.

دمعة كادت تسقط ويراها ولده، ترقرقت في مآقيه، استطاع أن يستعيدها ويردها إلى منابعها، قبض على قلبه بعنف ليتوقف عن المزيد من الطرق في حنايا صدره..

حاول أن يبعد من أمام عينيه مظهر ولده الذي يصعب على الغريب غليظ القلب، ثم قال متلعثما:

- ميشو.. أنا كنت أمر من هنا.. قلت.. لا.. أنا... هل أفطرت؟

- أفطرت.. ماذا بك يا أبي؟

أراد أن يقول أي كلام.. يتحدث في أي موضوع.. لكنه لم يستطع إلا أن يقول وهو يدخل في بعضه:

- أحتاج جنيهين فقط.

ارتبك الولد وزادت حيرته وبحث عن الكلام فلم يجده. لم يكن معه مليم.. طال الصمت والرجل يحدق في ولده.، ما عاد يتأمل ملابسه أو هزاله.. كان ينتظر الإجابة.

مر طيف ناهد أمام عينيه، أسرع يقول لميشو بلهفة:

- اسأل ريس المدبغة. تصرف

دخل الولد وراح الأب يدور حول نفسه، كمن ينتظر زوجته التي تلد في غرفة العمليات.

بعد دقائق لمح يس ولده قادما من قاع المدبغة، حاول أن يرى النقود على وجهه، لكنه لم يجد لها أي أثر.. كان الولد عابسا وليس في وجهه أي علامة للنصر.. ملامح

جامدة.. وقف ميشو أمام والده وانتظر لحظة، كانت العمـر كله لأبيه. مد يده بصورة آلية.. عيناه فـي عينيـه. سـلمه الجنيهين. خطفهما العاشق وسرعان ما غيبته أول ناصية.

رجع فجأة ولحق بولده وهو يعبر البوابـة الكبيـرة وقال له:

- اعتبرها سلفة. سوف أردها لك، وقـل لأمـك أن زميلك أخذهما وسوف يردهما.. سلفة يا ميشو يا حبيبي.

مضى فرحا بالجنيهات الثلاثة وهو يشعر أن الله يقف إلى جواره... يؤيد خطواته، لو لم يكن راضيا لسد الطـرق في وجهه ولما أمكنه توفير المبلغ المطلوب.

أعاد على نفسه ما فكر فيه حتى يضمن مناصرة الله له في الأهم، وهو لقاؤه بناهد التي دعاها اليوم لتسـمع مـا لديه.

ظهر الشيخ إبراهيم حمو ابنته الصـغرى راويـة، حاول أن يتوارى عنه أو ينشغل، قرر ألا يعبأ به، هو لـيس مدينًا له بشيء والعيال سمن على عسـل، فلمـاذا يتهـرب منه؟.. حياه الشيخ إبراهيم باهتمام وسأل عن الأولاد.

عاتبه على أنه لا يحضر لرؤية راويـة.. وعـده أن يزورها، وفوجئ يس بما لم يكن في الحسبان:

- أذان الظهر سيحين بعد دقيقة ونحن على بعد أمتار من المسجد.

- عندي موعد مهم.

- أهم من موعد ربك.

- لا.. طبعا.. لكن.

- انتهز الفرصة.. هذا نداء الله، وهذا بيته.

- لقد تأخرت.

- تخيل لو رئيسك في العمل يناديك، وهو عبد مثلك، ماذا ستفعل؟

- تأخرت لماذا لا تصدقني؟

- صاحب الوقت هو الذي يدعوك.

- أم العيال بعافية.. والطبيب ينتظرنـي لأصـحبه إليها.

- الله هو الشافي.

- أعدك أن

- عِده هو

- إن شاء الله.

- الصلاة في موعدها أنفع للمرء من متع الدنيا.

- كلامك حكم يا شيخ إبراهيم.

- سوف تعينك على محو الذنوب.

- في نيتي الحج.

- مرة في العمر.

- سمعتهم يقولون الصلاة في الحرم بمائة ألف صلاة.

- ومتى ستحج؟

- قبل أن أموت طبعا.

- وهل تعلم متى سيحين الأجل؟

أسرع يس بالابتعاد وهو يقول:

- كله بأمره يا شيخ إبراهيم.

ود أن يلقي نظرة أخرى على منظره.. وجهه وشعره وهندامه.. ليست هناك فرصة لذلك. مر بفيلا نرجس هانم. وقت عيناه على وردة حمراء متدلية من فوق السور. انحرف عن الطريق فجأة. فكر ألا يقترب من الفيلا. كانت نرجس في الحديقة. لأول مرة يراها وقد أطلقت شعرها وتزينت

وتعري ساعداها.. مط شفتيه عجبا وقال: يحيي العظام، نتش الوردة وحملها سعيدا إلى نجمة اللقاء، بينما كان قلبه يدق بقوة داخل برج صدره.

كانا قد اتفقا على اللقاء في حديقة ناصر الجميلة المورقة، على المقعد الخشبي المواجه لأكبر شجرة.. يتكون من شرائح طولية خضراء.. لم تكن الحديقة مزدحمة.. الأولاد في المدارس وليس فيها غير قليل من كبار السن وبعض السيدات زوجين أو ثلاثة من الشباب.

جلس على المقعد ينتظر. نظراته تمسح كل الأركان والبوابات والممرات التي تفصل بين الجزر الخضراء. يعرف جيدا طريقتها في المشي. تابعها كثيرا وهي تمشي مشية طيبة مثل شخصيتها. استدعى في رأسه ملامحها الحزينة وهدوءها الزائد، والغلب الذي يكسو كل تصرفاتها، فهي دائما منحنية وصامتة ومنكسرة النظرات.. تخدم والدها وإخوتها منذ ماتت أمها قبل سنتين. تعمل في المدرسة وتنفق على إخوتها، وأصبحت تنفق على الوالد نفسه بعد أن أصيب في ساقيه إصابة ربما يطول علاجها كما قال الأطباء.

فات الموعد ولم يحضر، بدأ القلق يعبث بروحه. يتلفت. ينهض. يقعد. يأكل أنامله.. شوك اليأس يخمش قلبه.. تغيم عيناه بأشباح الدموع. أخيرا ظهرت عند البوابة. تعلقت بها نظراته، وبقيت مع تدلها على الطريق حتى وصلت إليه.

وقف مرحبا. مد كفه إليها. مدت يدها. عصفورة صغيرة. نحيلة الأصابع. حطتها في كفه.

سألها بمنتهى الرقة: لماذا تأخرت؟

قالت: شغل في المدرسة كان لازم أنهيه.

قال بصوت حنون: خشيت ألا تحضري

قالت بحياد: جئت لأنك قلت: هناك شيء مهم.

اندفع يقول: مهم جدا.. مهم خالص

فقالت: لذلك شعرت بالقلق

- كيف حال الوالد؟
- كما رأيته
- لابد من رفع دعوى
- المهم صحته
- ربنا كريم
- مؤكد كريم.

عزم أن يحدثها عن قلبه وشعوره تجاهها، هذا الشعور الذي يتزايد ويملأ عليه كل حياته. ليله ونهاره. وعزم أيضا أن يشركها في البحث له عن علاج.

كلما عزم أن يلقي بين كفيها ما يثقل عليه فتحمل عنه بعضا منه، حدثته عن والدها وظروف صحته، ومشكلته مع النمر صاحب العمل الذي يتبرأ منه ويتخلى عنه، وينوي أن يقاوم أي مسعى للحصول على تعويض.

- تصور يا عم يس.. كثيرون تحدثوا إليه بخصوص أبي، عددوا خدماته ومدة عمله النظيفة مؤكدين له إن إصابته تمت أثناء أدائه لعمله بإخلاص. ذكروه أنه كان ذراعه اليمنى في تسيير العمل وإدارة العمال.. تصور.. قال إن الإصابة صحيح تمت أثناء العمل، لكن الوالد هو المخطئ وليس عليه أن يتحمل جهل وإهمال العامل.. هكذا يقول القانون..

- والسنين التي خدمها؟

- قال لقد تقاضى أجرها على داير مليم.

- مستحيل. تصرف غير إنساني بالمرة.

فجأة وقفت وطلبت أن يسمح لها بالانصراف. بهت. كان يود أن يدعوها إلى ناد أو كافيتريا ليشربا العصير ويأكلا الآيس كريم. هكذا أعد نفسه.. وتكون الفرصة متاحة ليفرج عن مكنون قلبه.. لابد أن يعترف لها أنه لم يعد يرى غيرها.. قالت:

- علي أن أعد الغداء لإخوتي.. أنت عالم بالظروف.

مدت يدها لتودعه.. طلب منها أن يرافقها.

- أرجوك.

- أحب أعرفك أن المحامي طمأنني الحكم بعد أسبوعين.

- أي حكم؟

- الحكم في قضية الأرض التي استولى عليها أخي.

- ربنا يصلح الأحوال.

- بعد الحكم مباشرة يدخل جيبي مليون جنيه.. ألف ألف.. شيء حلو خالص.

- مبلغ كبير.

- لذلك.. كان نفسي أقول لك إن..

نظرت في الساعة وقالت:

- أرجوك. لازم أمشي.

- أكمل كلامي.

- الأسبوع القادم إن شاء الله في نفس المكان ونفس الميعاد.

بدا كأن روحه ستفارق جسده. شهق.

- بعيد جدا.

- يوم الخميس إذن.

- أمانة عليك ما تنسي.

تسللت منه ومعها روحه، ويبدو أنها ردت عليه وهو لم يسمع، لعله كان مصابا بصدمة الفراق المفاجئ الذي هدم له كل خططه، وضيع عليه الأثر الذي كان يتوقعه، وبعد لحظات شرع ينقل خطواته وهو يقول:

- ألم يلفت نظرها شكلي الجديد؟.. ألم تتنبه لمنظري بعد التعديل.. أنا متأكد أن الحلاق عمل في عملاً لا يقدر بمال.

جلس دون أن يكمل – ثم عاد فوقف، ومضى مسرعا نحو البيت.. توقف أمام السيارات، وأطل في زجاجها

المغلق.. ورأى نفسه تحت أشعة الشمس ولمح التغيير وتأكد منه، رأى نفسه مرات عديدة في كل الزجاج الذي مر به، وعاد يتساءل.

- لماذا لم تلتفت إلى الشعر وتسريحته، وذقني الناعمة.. وكيف لم تلمح حذائي الذي لا يزال يلمع.. غريبة.. كل شيء يجري ويهرب.. الناس في الشوارع جميعا يسرعون.. كأنهم قرروا الهجرة ولا يلتفتون لما جرى لي.

(٩)

قال علي لعم ملاك:

- هل يمكن أن نقسم المكتبة قسمين؟

- كيف؟

- قسم للبيع وقسم للقراءة. قسم لأدوات وكتب المدارس وقسم للكتب الثقافية الأدب والتاريخ والسياسية والاقتصاد والفكر.. ثقافة عامة.

أعجبت ملاك الفكرة وقال على الفور:

- غريبة.. كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل؟!.. لكن المسألة تحتاج إلى أرفف جديدة، خاصة أن بعض الكتب في صناديق على الأرض وتحت البنك.

- بسيطة.. زهدي ابن عمي نجار ممكن يعمل لنا الأرفف، ولن نحتاج إلا إلى الخشب.

- عندنا في البيت صندوق كبير تحت السرير. أظنه ينفع.

- لن يكفي، وعلى أية حال. الرأي متروك لزهدي.

راح زهدي وشاف الصندوق وقال:

- ينفع. لكنه يحتاج بعض المراين، لا تحملا هما.

لما تحدث علي عن ضرورة طلاء الجدران، رأى ملاك إرجاء المشروع لحين ميسرة، وطلب من ابنه مجيد الذي كان مشغولاً بدراسته في الفنون الجميلة أن يحضر ليرى ما جرى للمكتبة ويقول رأيه..

مرغما جاء ولم يرض عن شيء قال:

- المكتبة كلها يجب إعادة صياغتها من جديد، والتخاص من كل ما فيها من الأخشاب، البنك فظيع، والأرفف بشعة والعلب، والجدران تحتاج إلى تنكيس من أسفل لارتفاع متر ونصف المتر ثم محارة كاملة وطلاء وإضاءة، وأهم شيء التخاص من الكتب.

لأول مرة ينفجر ضاحكًا.. وظل يضحك لعدة أيام كلما تذكر رأي ابنه. لكنه قال له ساعتها بعد أن خفت بالونات الضحك:

- أنا سعيد بأفكارك يا مجيد.. لابد إن شاء الله خلال المائة سنة القادمة نعمل كل الذي فكرت فيه.

تركه مجيد دون أية كلمة ولم يعد مرة أخرى، ظل مشغولاً بين الكلية ومرسمه في بيت الكريدلية.

* * *

تخرج علي في قسم الفلسفة. أحب هذا اللون من المعرفة والدراسة منذ تربى في مدرسة ملاك للحكمة، استشعر رغبة عميقة في أن يمضي في هذا الاتجاه ويطور معرفته به ويغوص في أعماقه.. قال لنفسه:

- إن التفلسف لم ينتهِ دوره بعد، وما زالت للفلسفة مهمة كبرى في الحياة. لا زال علينا أن نحاول تأمل أشكال الحياة وسلوكياتنا كبشر حتى بعد أن أخذت بعض العلوم أجزاء من اهتمام الفلسفة وبحوثها، ونتش كل علم جديد منها قطعة ليؤسس لنفسه موضوعات وقضايا واعتقد البعض أن العلوم نهشتها كلها، لا.. لا زالت علاقة الله بالإنسان في حاجة إلى رصد وتحليل، وتأمل أسباب ونتائج ودلالات هذه العلاقات تحت أضواء المستجدات التي تظهر مع كل عصر. فهل نظرة الإنسان إلى الله لا تزال كما كانت من قبل؟ لقد كشفت نهايات القرن العشرين وتجلياتها العلمية عن تقنيات تمكن الإنسان أن ينظر إلى الله نظرة جديدة، تفيض بالتقدير والمزيد من الفهم لعظمة الخالق، إذ تحقق العلم من عبقرية الصانع الأكبر وروعة إبداعه وإعجازه في التشكيل، ومن

كان يتشكك مثلاً في قدرة الصانع الأكبر وروعة إبداعه وإعجازه في التشكيل، ومن كان يتشكك مثلاً في قدرة الله على تسجيل مواقف البشر وأعمالهم وأقوالهم، لم يعد ثمة مجال لذلك بعد أن أصبح شريط كمبيوتر صغير يمكن أن يتضمن مجلدا من مجلدات الموسوعات العالمية كالبريتانيكا أو الأمريكانا أو لاروز.

يقول علي متأثرا بأقوال بعض أساتذته، إذا كان هناك من ينشغل بالهندسة ومن يهتم بالطب ومن يعني بالاقتصاد والرياضيات ومن ينصرف إلى شئون المال ومن يتفرغ للألعاب الرياضية أو الفنون والآداب، فلابد أن يكون هناك من يتأمل الناتج من كل هذا، وتأثيره على مسيرة الإنسان، فكل شيء يسعى في الحقيقة نحو الإنسان ولخدمته ويدور في فلكه.

كان علي مختلفًا عن زملائه.. يقرأ كثيرا ويحلل ثم يناقش أساتذته ويستنفر معارفهم، فيلتفتون إليه ويقربونه منهم ويمدونه بأسماء المراجع والكتب التي تسد نقصا في مجال بعينه يكون قد خاض فيه.

شغلته العديد من القضايا. الألوهية. الوجود. الإنسان. الزمان. الخلود. الاغتراب. الموت، ورغم اهتمامه بالكلية وكثرة قراءاته، إلا أنه كان يقضي في مكتبة ملاك ساعتين كل يوم على الأقل بعد نومة القيلولة التي يحرص عليها بعد عودته من عمله بمكتب رئيس الوزراء.

في أحد الأيام أيقظه صياح الناس.

- الحقوا عم شبل... الحاج شبل اللبودي خبطته سيارة.

ولما أطل من البلكونة ليعرف ما جرى أشار له ملاك كي يهبط.

لبس سريعا ونزل.

- خذ مكاني حتى أرى عمك شبل. ربنا يستر.

- خليك أنت وأروح أنا.

أسرع ملاك يهرول في إثر الراكضين تاركًا علي في المكتبة. كانت الإسعاف قد وصلت، أخذ رجالها في نقل الحاج شبل وإدخال جسده الذي يسيل منه الدم عربتهم البيضاء، وسرعان ما اندفعت تشق الزحام بمقدمتها الحمراء،

والناس خلفها يقفزون في سيارات نصف نقل وميكروباص وينطلق السائقون بهم خلف الإسعاف.

كان الكل يدعو للحاج شبل بالسلامة وطول العمر، فكم عمل من خيرات وعاون الجميع ووقف مع الحق، جلس ملاك صامتًا في المستشفى يستعيد شريط علاقته بشبل.

لقد أعطاه الشقة التي يقيم فيها الآن، بعد أن انهار البيت الذي كان يسكن فيه مع والدته، وبقي فيه مع زوجته بينما رحلت الأم إلى جوار ربها.. داخ ملاك بحثًا عن حجرة تكون قريبة من المكتبة فلم يجد، ولما علم شبل تنازل له عن الشقة التي يتخذها مخزنًا للأقمشة في شارع تقاوي.

في نفس البيت.. تقيم آية أخت علي جودة، وقد أجر الشقة لزوجها عمران صديق ولده محسن.

قام شبل بنقل جزء كبير من الأقمشة إلى بيته حيث حشرها تحت السرير وفي السندرة وفي الدكان، وبعضها ظل في الشقة مع ملاك حتى سحبها بعد شهرين وكان قد سمع من ولده بأن عمران صديقه حزين لأن مشكلته بلا حل.. خطب أخت علي ومرت سنوات ومات والدها دون أن يفرح بها وقد أصبح الوضع مهددا ولم يعد معه مليم، فسلمه الشقة

ليتزوج بها، وربنا يفرجها.. بعد شهور قليلة عرض عليه أحد الأثرياء العرب أن يعمل معه في تجارته وسافر معه إلى البحرين.

جاء على باله ما قال شبل لمساعده لما زعق في نسوة شاهدن كل ما في المحل، ولم يشترن شيئًا: النساء محطة إذاعة. والتقليب طبعهم وحقهم يا حمار. كان علي يود أن يبقى ملاك ويجري هو ليكون جوار عم شبل، لكن ملاك أصر أن يذهب، عزم على أن يذهب إلى المستشفى بعد أن يعود صاحب المكتبة. أزاح عن كاهله أساه.

سحب علي المنفضة ومضى يضرب الكتب والأرفف والبنك، وهو يفكر مثل الكل في شبل ورجولته، وكعادته كان يترك الجزء ليمضي إلى الكل:

- ليس موقفًا فقط. الإنسان عندما يلتقي بالزمان يصبح هو التاريخ. لا تاريخ بدون إنسان.. وشبل ليس أغنى رجال الحي، بل هو تاجر بسيط ومع ذلك حرص على تعليم كل أولاده.. أولهم هشام ضابط الشرطة والثاني محسن المدرس ثم ثلاث بنات. أصغرهن توقف تعليمها عند دبلوم التجارة. لها ملامح جميلة.. ربما كانت أجمل بنات الحي.

- رجل جدع والجدعنة "شحت".

بينما كان ظهره لباب المكتبة يواصل تنظيف الكتب من الغبار، أحس أن شخصا يقف وراءه. تحول برأسه واضعا المنفضة جانبا وهو يقول:

- أي خدمة؟

- أنا التي تقول لك: أي خدمة.

نزل عليه سهم الله. حدق فيها وحاول أن يكتم شهقة.. كانت تقف على بعد نصف متر من فتحة الدكان. سقط ضوء النهار على وجهها. فتاة رشيقة العود ممتلئة قليلاً، في عز الشباب والنضارة. يتفجر وجهها الخمري بالصحة والجمال.. أحلى كثيرا من بنت شبل اللبودي.. عيناها خضراوان واسعتان تحرسهما رموش صفراء، يتهدل على الكتفين شعر كثيف ناعم، يلتف حول بداية جموحه شريط برتقالي. يزين صدرها نهدان مزدهران تحتهما خصر نحيل وعود ريان.

ظل ساكتًا لا يدري سر الحيرة التي أصابته، فقد بدت له: جميلة جدا لدرجة مدهشة، كما أنها فيما يبدو ليست

من المنطقة، ولكنها تتكلم بثقة واطمئنان، والغريب أنه يشعر في أعماقه أنه رآها من قبل ربما منذ مدة طويلة.

أوشكت على الابتسام، أنقذت نفسها وأنقذته بقولها:

- أين بابا.. أول مرة يتأخر.

عندئذٍ فقط قبض على العصفور الذي كان يحلق في رأسه.. هذه العيون لا يتوه عنها وهذا الشعر، وبعض هذه الملامح العفية المتوردة كانت منذ سنوات قليلة براعم أنثوية لا تلفت الانتباه إلا في إطار الطفولة.. الآن فقط يمكن أن يسمح لنفسه أن يفرح ويبتسم ويقول في شبه اطمئنان وفي غير قليل من الدهشة:

- ماجدة؟

ببطء شديد قالت كأنها تشك وتخشى الزلل:

- هل يا ترى أنت.. علي؟
- بشحمه ولحمه
- شكلك لم يتغير كثيرا
- شكلك أنتِ.. تغير كثيرا

ضحكت ورقص ضوء الشمس على أسنانها وفي عينيها وتمشى على الخدود..

قالت: كيف؟

ابتسم هو الآخر ومنع نفسه من أن يجيب على سؤالها بصراحة واكتفى بأن قال:

- تغير كبير..
- إنت خلصت؟
- السنة الماضية
- علي... يا علي.. فاكر؟

ضحك وقال: سعيد أني شفتك يا ماجدة

لحظة صمت. كل منهما عاجز عن سحب نظراته من عيون الآخر. قال علي:

- المفروض إننا نتبادل الأماكن
- هذه مكتبتك.. حدثني عنك أبي كثيرا.
- أبوك يعطيني أكثر من حقي
- لم تجبني أين ذهب؟
- راح يطمئن على عم شبل
- شبل اللبودي
- أتعرفينه؟
- بالطبع

- للأسف خبطته سيارة

فزعت وسألت: والحالة؟

- ربنا يستر

- لو سمحت لما يرجع باب قل له إني رحت الدرس.

- أي درس؟

- العربي

- في أي سنة؟

- الثالثة

- الثانوية؟

هزت رأسها.. كان يشعر أنه يقف أمام عروسة لا يتعين أن تنتظر كثيرا وصول العريس.. عروسة ناضجة وجاهزة.. تملأ حياة رجلها سعادة حتى لو لم يجد ما يأكل..

- سعيدة

فوجئ بها تتأهب للمغادرة. أسرع يمسك بآخر ذيول الفرصة، فلم يتصور أن ينتهي اللقاء هكذا...

- أدبي أم علمي؟

- أدبي

- كيف حال الفلسفة؟
- بين بين
- أنا مستعد أساعدك.. لو أردت
- يا ريت
- تقولين لعم ملاك أم أقول أنا
- قل أنتَ
- بل قولي أنتِ
- لا.. أنتَ
- لا.. أنتِ

تولدت ابتسامة على شفتيها الناضجتين قبل أن تمضي وتولدت في قلبه المشاعر التي يرويها الإعجاب بالفتاة الجميلة.. استعاد قوامها وثبته أمام عينيه وقال فيه ما قاله القدماء:

زينب زينب بقد يقد   وتلاه ويلاه نهد يهد
جندها جيدها وظرف وطرف   ناعس تاعس بحد يحد

دار حول نفسه كمن يحاول أن يرقص، لكنه لم يكن يعرف النغمة الصحيحة.

هو في حالة تحليق. حصان مجنح.. يطير من حول السحاب الملون.. والكتب تحدق فيه وتغني له وتزغرد على

إيقاع قلبه الذي كان نائما تماما، أو كان يسكن ثلاجة.. يقيم على رف من رفوفها المعدنية الباردة.

- ربنا يشفيك يا عم شبل.. سامحني. الجمال يا عم شبل هو السيد..

قلب في ذاكرته عن شكل ماجدة قبل أن تكون هذه الوردة. آخر مرة كانت تقريبا منذ ثلاث سنوات، ولعله رآها بعدها ولم ينتبه. كانت صبية عادية نحيلة العود، لا يلفت النظر في شكلها غير العينين والشعر، تهوى، اللعب كثيرا مع بنات الشارع أو زميلاتها في المدرسة، وكان أبوها يرسله أحيانًا للبحث عنها وإعادتها، فقد كان أخوها لا يقيم في البيت أغلب، الوقت.. دائما غير موجود. كانت ماجدة تضيق بأمها وسخطها الدائم وزعيقها مع الوالد وغرامها بمشاكسته منذ أن يؤوب في المساء.

ضحك علي وهو يتذكر عندما راح يناديها من عند صاحبتها.

- أظن اسمها نجاة. فاكر. لأني اضطررت في هذا اليوم جرها وهي تنادي: يا نجاة يا نجاة.. حوشي الولد

المجرم عني. يا نجاة.. مالك بي يا لزقة، وأنا أقول لها: أمرني والدك أن آتي بك فلابد أن آتي بك.

آخر مرة لم يرها ولكن جاءت سيرتها. منذ شهرين قام عم ملاك بزيارة زوجته في مستشفى الأمراض العقلية، كان معه مجيد وماجدة يوم أحد السعف، حملوا الخوص الأخضر.

حكى له والدموع تحرق جفونه.. خطفت منهم الخوص وراحت بعيد في الجنينة. أخذت تدوسه بقدميها حتى هرسته، ثم التقطته ومضت توزعه على النزلاء في المستشفى. أسرع إليها مجيد، يجذبها، بينما كانت تقول له:

- لن أذهب معك إلا بعد أن تأكل البهائم. اصبر.

عندئذٍ صرخ مجيد:

- هيا بنا يا بابا.. انتهى فيها الأمل. أمي راحت. زيارتها "بهدلة".

تصور يا علي مريم وصلت بها الحال إلى هذه الدرجة..

حاول أن يواسيه.. لكن علي نفسه كان متأثرا ومتهاويا وأشفق على عم ملاك.. والده الحبيب وأستاذه

الطيب.. كان يتساءل عن السر في أن مثل هذه النوعية من البشر يمكن أن تتعرض للشقاء وهي الجديرة بالسعادة والهناء.

بعد شهر جاء مجيد يجري فرحا مهللاً.. دخل عليه المكتبة يقول:

- كسبت يا بابا.. فزت يا بابا.. فزت بجائزة الصالون.. الثاني على مائة متقدم في مسابقة شباب الفنانين.

عانقه أبوه.

- ألف مبروك يا حبيبي.. ألف مبروك.

أطلت من جديد دموع سيالة، ومتألقة بالفرح والشكر.

- أول مرة في حياتي أفرح من عشرين سنة.

- عارف مقدار الجائزة يا بابا.

- هذا لا يهم. ليكن قرشًا واحدا ليكن شهادة. تقول فيها جهة مهمة أن مجيد ملاك فنان قدير. فنان موهوب.. هذا يكفيني.

- الجائزة.. ثلاثة أشهر في باريس.. إقامة كاملة ومصروف جيب وزيارة المتاحف والمعارض والكنائس ومعاهد الفن، يعني أكثر من عشرين ألف دولار.

مجيد يتكلم وهو يحمر ويخضر، ويدور حول نفسه، وكلما دار طال وكبر وتلونت ملابسه أن تشاهد شخصا مبتهجا تفرح.. السعادة معدية.. أصبح في نظر علي شجرة تتدلى منها كل الثمار الجميلة.. أغصان الفرحة تتراقص وتنثر حولها ألق السعادة.. نجوم صغيرة تومض في سماوات القلب. فرحة من الأعماق يعيشها شخص وجد أخيرا ما يبحث عنه.

فرح علي لم يكن فقط من أجل مجيد، لكنه كان في الأساس من أجل ملاك.. الرجل المرهف الرقيق الذي نال بعض المكافأة بفلاح ابنه بعد مأساة زوجته التعسة وصبره عليها.

(١٠)

لم يكن يحيى يستطيع أن يستغني عن لقاء الأحباب في دكان موافي العجلاتي، هو وجمعة وقرني زلاطة وحافظ شارودة وبقية الفريق المنسجم.. تبدأ الجلسة بنشرة الأخبار يلقيها شبراوي الديب وكالة الأنباء المتنقلة.. لو قابلته كل نصف ساعة يفاجئك بقوله:

- عرفت الخبر.. وصلك ما جرى؟

أخبار محلية. أخبار دولية. أخبار فنية. رياضية. اجتماعية. شخصية قضايا تعيينات. تنقلات. حب. زواج. طلاق. موت. ميلاد. سفر. أعمال سحرية. مرض. حادثة. ساكن جديد. بناء. هدم. فوز. خسارة. حرب. حج. طهور. زار. وليمة. ضرب. نجاح. سقوط. سرقة. اغتصاب. نصب. ولا تخلو أنباؤه من أخبار الحيوانات، من كلاب وقطط وحمير وثعالب وبط وفئران.

في وسط الكلام فوجئ يحيى بشبراوي يقول:

- صحفي راضع من بز أمه تمام نشر إحصائيه لمن يعمل بالتجارة من أعضاء مجلس الشعب وجدهم ٨٠% ما

بين فراخ وحديـد وعملـة وأدويـة وفيـاجرا ومخـدرات ومجوهرات وأخشاب وكافيار وخنازير وعجول وسـيارات ومحمول وزهور وخردة وعقارات وأراضٍ.

علق قرني: لأن دخول مجلس الشعب، يكفي لـه أن تقف الخط.

قاوم المعلومة قدر استطاعته وهو مـوقن تمامـا أن قائلها كان يحلم أو لم يكن غطاؤه كافيا أثناء النـوم.. أقسـم الشبراوي بأيمانات المسلمين أنها معلومة صـحيحة ١٠٠% واسأل عنها وتأكد.

دخلت المعلومة رأس يحيى فإذا بها تمسح كـل مـا بها، وتقف وحدها في ساحة دماغه كعملاق، وتبـدو جبهتـه التي تشغل ثلاثة أرباع مساحة وجهه كأنها زادت ووصـلت إلى فمه.

جلس بينهم بعض الوقت شاردا، وذاهلاً عن أقوالهم ونكاتهم وعندما شرع جمعة يغني، عاد إلى الجلسة الفواحـة بشيشة التفاح وضحكات الجميع وصـوت جمعـة النشـاز، ومضى يخن بأنفه دون أن ينتبه له أحد. ويبدو أن هذه العادة تتوالى لكما توترت أعصابه.

فكر أن ينصرف لكنه أرجأ ذلك حرصا على مشاعر جمعة، وحاول أن يعود إلى شروده.. منعه الغناء.. وعندما انتهى جمعة، أسرع الرفاق يقولون:

- كنت النهارده في أحسن حالاتك. زجاجة بيرة واحدة تفعل كل هذا.

- رائع يا جمعة.

الكل يمتدح الصوت. شعر صقر بالارتباك.. أحس أن عليه أن يقول شيئًا.

قال: يا جماعة. صوت جمعة استوى.

- كلام صح، ولازم يا جمعة تروح لملحن أو أي واحد فنان يسمعك.

- مدرس الموسيقى المغرور الذي يسكن في بيت شبل اللبودي.

- الأستاذ راضي.

- عقدني. قال لابد أدرس في المعهد.. فيه دراسة مسائية.

- أنت لم تعد في حاجة إلى معهد.. أنت جاهز على الإذاعة مباشرة.

يحيى اكتفى بهذا القدر.. وجد الفرصة مواتية للانصراف دون أية تعليقات تنطلق وراء ظهره لأي سبب.

أخذ يمشي. استولت عليه الدهشة. كيف أن عضو مجلس الشعب بجلالة قدره وعلو مكانته، عضو المجلس الذي يجلس مع رئيس الجمهورية. عضو المجلس الذي من حقه يحاسب الوزير. عضو المجلس الذي يأمر وينهي. الذي يعمل له الناس ألف حساب. هذا العضو ممكن أن يكون مثله راسب ابتدائية.. لا..لا مستحيل.

- لابد فيه حاجة غلط.

شرد قليلاً ليعاود تقليب الأمر.. وأعجبه رأي يقول: إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون صحيحا، لسبب بسيط، هو أن معنى هذا أن جميع أفراد الشعب سيدخلون مجلس الشعب، ثم عاد يقول.. لا. لأن الانتخابات كما المنخل، تمنع الكثيرين ولا تسمح إلا بدخول عدد قد الكراسي التي في المجلس، والباب لا يدخل منه اثنان معا في وقت واحد.

كيف لم ينتبه إلى هذه المسألة مع أنه يكثر من قراءة الصحف خاصة منذ تزوج نرجس وأقام في الفيلا، ويحب دائما أن يعرف أحوال البلد ويحرص على متابعة الجديد في

السياسة، بالذات في العالم العربي، لكنه لا يستطيع أن يتصور أن عضو مجلس الشعب، أهم قيادات البلد يمكن أن يكون بلا مؤهل عالٍ.. لا.. مؤهل عالٍ أيضا غير كافٍ، لابد أن يكون عالما كبيرا وعقلية جبارة وخبرة وحكمة ودماغ، وحتى لو كان هذا قد حدث في بداية الثورة منذ أربعين عاما على أنها صورة من صور رد الاعتبار، واعتذار عن سنين طويلة من الذل والإهانات وكان المتعلمون قلة، فمستحيل أن يبقى الحال على ما هو عليه. مستحيل.

كان يحيى قد ترك أتوبيس مدرسة النديم، وطلب من نرجس مساعدته على شراء سيارة أجرة جديدة. دفعت له عشرة آلاف جنيه مقدمة والباقي أقساط يسددها مما يكسبه.

بعد أن نفذ فيروس مجلس الشعب في رأسه وأصاب كبده، وصل داره غير مستعد للحديث في أي شيء ولا حتى نوع الطعام، وأحاديثه كلها دارت داخل نفسه، ثم تساءل في دهشة لماذا ينشغل بهذا الأمر، إذا كان المجلس بمؤهل أو بغير، وماذا يكون على خريطة البشر كي يفكر في هذا الموضوع؟

رغما عنه أصبح الأمر قضيته، ومحور تفكيره وأسئلته مع من يركبون معه السيارة، فقد ترك الاستماع إلى الأغاني، وظل راديو السيارة على الأخبار والبرامج السياسية بما فيها بعض جلسات مجلس الشعب، وفوجئ عدة مرات بأشخاص ممن يستقلون سيارته يجمعون على أن عضوية مجلس الشعب أفضل استثمار لرأس المال وأسرع وسيلة للإثراء، وهي بالقطع أحسن من الاستيراد والتصدير وتجارة العمل وشركات توظيف الأموال وأعمال السياحة والمقاولات، فضلاً عن أنها تفتح كل الأبواب وتسهل كل صعب، وتحقق الطموح المادي والأدبي.

دخل يحيى بعد ذلك مرحلة جديدة من الأسئلة عن حجم المبلغ المطلوب للحملة الدعائية، هذا إذا كان الشخص يتمتع بمحبة الجماهير وله بينها شهرة وصيت.

تضاربت الأقوال، فمن قائل أنها مائتي ألف ومن قال أنها ربع مليون، وأكثر الناس قالوا تختلف من شخص لآخر، وكثيرون أكدوا على أهمية انضمامه لحزب، وللحزب الوطني بالذات، لأنه حزب الحكومة الدائم وحزب الرئيس الدائم والحزب المستولي على كل شيء وأعضاؤه هم

أصحاب الحق في التفاهم مع الشرطة وكلامهم على العين والرأس وطلباتهم أوامر.

غالبية الذين سألهم أكدوا على مسألة الدور السياسي والتبرعات المالية والمشاركات الاجتماعية، وأدهشه أنهم قالوا بمنتهى الثقة:

- ومع ذلك فهي مقامرة ومغامرة غير محسوبة، مهما حسبت لها.

كل المحاذير وضعت أمامه مثل ساحة تبدو باديتها ولا تلوح نهاياتها، تتكدس على أرضها الصخرية مئات القنافذ والأشواك والثعابين والفئران والعقارب والكلاب والذئاب والنحل والقمل، وعليه أن يمضي بين هذه الكائنات الشرسة ليصل إلى الحلم الكبير.. كرسي العرش والمجد والنعيم واللذائذ.

لم يفهم بالضبط لماذا ظل هذا الفيروس في عقله؟ لا تترك له فرصة للنوم أو التمتع بالمتاح من الحياة الهنيئة مع الزوجة والأصحاب، والنهل من المتع السائدة في متناول أمثاله كالطعام الشهي ومشاهدة السينما والتليفزيون، وحضور

الأفراح والرقص والغوص. في بحار البهجة التي تطوف أحيانًا بحواري وشوارع مصر القديمة.

تذكر عواد النمس عم علي جودة، كان يعمل في مديرية الأمن. انتهت مدة خدمته مؤخرا.. حضر عشرات الانتخابات وشارك فيها في السر والعلن.. يسكن بالدور الأرضي في أول بيت بحارة شق التعبان. وصديق يس الفار ونديمه في المقهى.. انتهز مرة فرصة وجوده وحده واستدرجه في الكلام. قال له وهو يخن بأنفه كعادته:

- نفرض.. مجرد فرض.. أني أردت دخول مجلس الشعب، ممكن.

- هل لديك شكوى؟ لو عندك شكوى قدمها للصحافة أفضل.

- لم تفهمني.

- كلامك واضح.

- نفرض.. مجرد فرض، أني أريد أكون عضوا في المجلس.

- ماذا قلت؟ لم أسمع.

- أنت سمعت يا عم عواد، ومع ذلك سأعيد عليك السؤال.. ما الإجراءات المطلوبة لشخص مثلي، يشبهني في حالتي وظروفي لكي يكون عضوا في مجلس الشعب؟

- أنا كنت أعرف أنك عاقل يا يحيى، ماذا جرى لك يا بني؟

- يا عم عواد.. ريحني.. كلام ابن عم حديث.. نتسلى.. هيا أجبني.

برم عواد شواربه وقال بعد أن أخذ نفسا عميقًا واستعاذ من الشيطان:

- بسيطة.

فرح يحيى

- ربنا يبارك فيك يا عم عواد يا نوارة الحتة. فتحت نفسي الله يفتحها عليك.

- بسيطة.. المطلوب فقط أن تفتح حسابا في بنك الشعب.

- بنك الشعب؟! أنا أول مرة أسمع على بنك بهذا الاسم.

- يكون لك رصيد عند الناس.. وأنت طبعا من هذه الناحية.. صفر.

- يا سيدي تكلم على المشاع. دعك مني.. ماذا يفعل هذا الشخص ليكون له رصيد في هذا البنك؟

- يعمل مشروعات خيرية جماعية تستفيد منها الناس ليتحول إلى رجل البر والإحسان، جمعية لرعاية الأيتام.. مستشفى. مدرسة. مسجد. كسوة للفقراء. فتح مضيفة تقدم عشاء ولو مرة كل أسبوع للمساكين وأبناء السبيل والمحتاجين.

بعد حديث عواد سرح يحيى وشاف إن الكرسي المسحور يبعد، يبعد.. لكنه يراه يزيد نورا وتألقًا، ورغم بعده يكبر ويلمع. قال لنفسه:

- كلام عواد واضح وسليم مائة في المائة.. الحمار لازم يكون فهم.. الحكاية كلها فلوس، وأنا حتى بعد أن دخلت بيت نرجس، لا أملك ألف جنيه على بعضها، وباقي علي ديون وديون.. ويا عالم.

(١١)

أبلغتها أمها بالخبر.. اشتعلت فيها النيران. أسرعت تبحث عن نبيل في البلكونة. في الشباك. في الشارع. في أي مكان.

- لازم يتصرف. لازم يشوف له حل.

سلمان الضب مدير مدرسة في السعودية يريد أن يعقد عليها وتسافر معه خلال أيام قليلة. أبوها وافق. أمر والدتها أن تخبرها لتستعد. غدا سيحضر الضب ليصحبهما إلى الجواهرجي وإلى محلات الملابس لتشتري ما تشاء.

قاومت رباب الخبر والفكرة والمشروع. قاومت بالصراخ والبكاء والتهديد بالانتحار، إذا أرغموها على الزواج من شخص في الستين من عمره وغير مصري.

- سوف أرحل معه إلى حيث لا أعلم، وأعيش حياة لا أدري عنها شيئًا، ولا آمن على نفسي فيها، ولا أعرف كيف تبدأ وكيف تنتهي ومع من؟.. وكيف السبيل كي أرى أهلي ويروني، ويسألوا عني وأسأل عنهم.. الزواج من

عربي معناه إلقاء الفتاة في جب عميق ضيق مظلم وبلا نوافذ، ولا يسمح إلا بالطعام فقط وبعض الهواء.

ذكرت أمها بزميلتها وداد التي تزوجت من عامين بنفس الطريقة، ويعاني أهلها الأمرين للتحدث إليها فقط بالتليفون، ويتمنون أن يسمعوها. أن تكتب إليهم. يشاهدوا رسم يدها بالحروف على الورق. لا شيء من هذا من حقها أو من حقهم.. زوجها كل عدة أشهر يكلف سكرتيره أن يتصل بهم ويطمئنهم ويسألهم إذا كانوا يريدون شيئًا.. فترد عليه الأصوات التي تضيعها الدموع والدعوات وطلب الرحمة.

ذكرت أمها بحبها لنبيل وحبه لها، وأنه لن يسكت أبدا، وعليها أن تعثر عليه أولاً وتبلغه حتى يتصرف.

طلبت من أمها الانتظار حتى يتقدم نبيل. سألتها أمها عن جدوى الانتظار.. كيف سيتقدم وهو عاطل!، وحتى لو اشتغل ماذا سيكسب في عمره كله بالمقارنة بما يكسبه الشيخ سلمان في شهور.

انحنت على يد أبيها تطلب منه أن يرفض ولا يلقي ابنته في المجهول.. كيف يطاوعه قلبه أن يتخلى عنها! أو على الأقل ينتظر شهرا.. شهرا واحدا فقط.

سحب يده. ارتمت على قدميه. رفعها عن الأرض. واصلت بكاءها. وأخذها في أحضانه وتنهد ثم قال:

- الزواج سترة يا بنتي
- نبيل يا أبي
- نبيل ابننا. لكنه لم يتقدم
- سيتقدم
- حتى لو تقدم.. ماذا يملك وأنا عندي كوم لحم؟!
- أنا وإخوتي خمسة
- وإخوتك من زوجة أبيك أربعة
- مالي بهم
- أنا الذي أجر كل الحمولة
- أرجوك يا أبي.. انتظر شهرا
- وعدت الرجل.. اتفقنا وانتهينا.

جاءت أمها. ربتت على ظهرها تركها إمام.. وخرج.

ظهر نبيل وعلم بالخبر من هنية.. كان قادما لتوه من مكتب أستاذه د. شاهر لطفي الذي كان دائما يرعاه ويتوسم فيه الخير أثناء دراسته، سأله أن يبحث له عن عمل، وعده الدكتور بالبحث، وسوف يبذل مساعيه لولا أنه يدرك حجم التضخم والكساد السائد وتشبع الشركات بالعمالة الأساسية والزائدة.

كان نبيل حتى لحظة واحدة فاتت ضجرا وساخطًا. يشعر بالملل والفتور.. الحياة في نظره دورة سخيفة من فراغ.. ساعات تتوالى ثم تنصب في أيام.. الشمس تشرق وتغرب في تشابه مقيت ولا جديد في حياته، لكن خبر زواج رباب بالضب شاله عاليا وأسقطه على رأسه وظهره فهشّم كل شيء، ووضعه تماما في مواجهة نفسه ويأسه وتعاسته وعجزه.. ثبته بقسوة أمام مرآة الخزي، وحتمية التفكير في عمل يكسر كل الحواجز، ويوفر له الحياة التي تليق به، والتي طال شوقه إليها، لابد من عمل بعد أن تكدست أشكال القهر وسدت كل الطرق والأبواب والنوافذ، وها هي رباب الحسنة الوحيدة في الحياة.. الوجه الصبوح والأمل المشرق. الوسادة الطرية الوحيدة التي يسند إليها رأسه توشك على

الانفلات لتترك رأسه تسقط على الأرض وتتناثر فتاتًا تعافه حتى الكلاب.

ذهب إمام سرحان إلى زوجته الثانية.. أصر نبيل على الانتظار حتى يعود. قالت أم رباب أنه سيبيت هناك حسب النظام المتفق عليه.. ولن يأتي إلا بعد عصر اليوم التالي مع سلمان. أخذ العنوان ومضى إلى البيت الثاني.. يقبع في قلب حارة من داخل حارة متفرعة من شارع بيوت العرب. بيت ضيق جدا ومعتم وتحت الأرض. كله عيال تجري وتتصادم وتصرخ.

تناقشا طويلاً بلا جدوى. كان الأرنب يدور حول نفسه ليهرس ذيله.. وتدور السيارة بسرعة فائقة حول الميدان على أمل أن يرى السائق رقمها على اللوحة الخلفية.

اعترف إمام أنه قبض مهرا خياليا لا يحلم به أي أب، كلام نبيل بالنسبة له ممنوع من الصرف والإعراب، ومحروم من النقاط ومن علامات الترقيم ومن أي ملمح يجعل له معنى، لكنه يحترم حق الجيرة.

تحدث نبيل بحدة عن الآباء الذين يبيعون لحم بناتهم، وعن الرجال الذين يتزوجون بحثًا عن شهواتهم ولا يعنيهم

ماذا سيكون مصير الذرية من العذاب والهوان.. تحمل إمام قدر استطاعته وهو يشفق على ابن جاره التعس. ولم يستطع أن يظل منحنيا يتحمل سوط الإهانة.. يكن حبا لنبيل، ويتمنى أن تكون رباب من نصيبه. لكن العين بصيرة واليد قصيرة.. الحبيب المدله لم يجد عملاً. والد البنية يتمزق في داخله، منقسما بين حبه لنبيل وظروفه الثقيلة. اضطر أخيرا أن يقول:

- أنت ولدي يا نبيل ولا يصح أن يظلم الولد أباه.
- حاشا لله. أنا لا أظلم يا عم إمام.
- ما دمت لا تعرف الظروف فأنت تحكم علينا من الخارج.
- بل أعرفها.
- لا، لا تعرفها.. مضطر أن أوضحها لك لأنك تهمني وخاصة أنك ابن عم يس ولا أريدك أن تفهمني خطأ، لو شخص غيرك، لم أكن لأعري نفسه أمامه.
- ماذا هناك يا عم إمام؟
- هل تعرف الخصخصة؟
- نعم

- المصنع الذي أعمل به وهو تابع للدولة، اشتراه رجل أعمال.

- أعرف أن الحكومة طلبت ألا يمس العمال.

- فعلاً، صاحب العمل الجديد تعهد بألا يطرد عاملاً.

- فما المشكلة إذن؟

- المشكلة أن مرتباتنا من الأصل كانت ضعيفة.. فأنا مرتبي كان مائة جنيه، لكني كنت أحصل على خمسمائة، مقابل حوافز وساعات إضافية ومكافآت وغيرها.

- ألم يستمر الحال كما هو؟

- ذهب كل هذا وبقي المرتب، وإذا كان عاجبك.

سكت نبيل لحظات حائرا ثم قال:

- والحل؟

- فكر أنت وأنا أنفذ.

- يا عم إمام أنا أحب رباب جدا.

- وأنا أعلم، وأنت نفسك غالي جدا عندي.. لذلك تركتك تتكلم، وكان يجب أن أطردك من أول كلمة، لأنها ليست من حقك.. أنت شاب أمامك المستقبل عريض وغدا

تعمل وتجد بنت الحلال التي تحبها وتحبك.. سيبها يا بني تشوف بختها وخلي عندك إيمان وصبر.

طأطأ الشاب رأسه وثم أخذ طريقه خارجا من البيت مختل الخطوات حتى كاد يقع.

بصعوبة تحسس طريقه في العتمة خلال الممر المفضي إلى باب يسلمه إلى ممر مظلم أكبر قليلاً هو الحارة.

كانت الحارة معتمة إلا من أنوار شاحبة تنشع من زجاج ملطخ ببصمات الأيادي.. سار نبيل وهو يحس أن الظلام بلا نهاية. كانت أقدامه ثقيلة ونفسيته في الحضيض.. طالت به المسافات. وكثرت الحارات.

أخيرا صعد إلى الشوارع الملطخة بالضوضاء. رأى إمام سرحان وافقًا في وسط الشارع. وجهه يشبه وجه المهرج. أنفه يكبر وأذناه. وعينيه تضيقان وفمه يتسع. يطول عوده وتكبر بطنه دون كل الأعضاء. ذقنه تتدلى ولسانه يخرج من فمه ويتدلى ويطول ينزل إلى مستوى بطنه ويرتد صاعدا كأنه أستك مطاط، وكأن شخصا يشده إلى أسفل.. ملابسه فضفاضة أكبر كثيرا من مقاسه. كأن عملاقًا تنازل له عنها. استدار إمام فوجئ نبيل بأن ظهره عارٍ تماما. تحرك

إمام وعدد كبير من الأولاد يتبعونه ويرمون مؤخرته بقشر البرتقال.

تنهد نبيل وطرد الصورة الغريبة التي تداهمه وتلح على رأسه، وتقلب في الرجل كما تشاء.. كان المهرج يحاول بكل وسيلة أن يضحك الناس.. خاصة الأولاد.

نبيل وحده يشعر بما يجري ولا سواه يشعر.. تجمعت حوله كائنات اليأس وأعدت القدر الكبير. أشعلت تحته النار.. انقضت العصيان ذات الرءوس الكبيرة المكورة الثقيلة تقرع الطبول. ترسم المناخ الملائم لوليمة العشاء.. حمله اثنان وألقياه في القدر.. الضربات التي تلاحق الطبول تحمس النيران كي تجيد العمل وتنجز المطلوب.. لما نضجت الفريسة أمكن في يسر تمزيقها إلى "نسائر" مضت الكائنات العجيبة تأكل من لحم نبيل وتتخطفه.

* * *

قرر ألا يعود إلى البيت. سوف تكون رباب في البلكونة.. غدا سيأخذها الجزار إلى السلخانة وتنتهي قصة حبهما، وتغادر مصر كلها.. ماذا عليه أن يفعل ليدافع عن حبه؟ لابد أن يفعل شيئًا.. حتى الهرب برباب لا يقدر عليه..

لكن تخليه عنها على الأقل ينقذها من الإقدام على الانتحار.. وتساءل: هل حقا ستقدم على الانتحار كما قالت له؟! حب بدون إمكانيات، لا طعم له ولا لون ولا مستقبل، حب بدون إمكانيات خدعة، لأن الحب معناه الارتباط الدائم.. والارتباط عقد ونفقة يوقع عليها القلب الذي لا يرضى للحبيب لحظة واحدة من عذاب وندم.

رأى أن يذهب إلى جمعة حيث يجلس الآن مع فرقته في دكانة موافي العجلاتي، لكنه تذكر أن يحيى صقر كثيرا ما يكون معهم وهو لا يريد أن تلتقي العيون، ثم عاد فقال في نفسه.

- الماضي راح لحاله، وقد تزوج نكاية في هنية واحدة ترث على الأقل مليون جنيه.

لا ملجأ إلا علي. قرر ألا يقول كلمة عما حدث أو سيحدث. لم يعد هناك ما يبكي عليه. وعليه أن يحاول النسيان. الطريق مسدود.

وعندما فتح علي الباب قال له: رباب أرسلت أختها تسأل وطلبت أن تذهب إليها فورا.. هيا اذهب.

دفعه نبيل قائلاً:

- لن أذهب إلى مكان.. وسع.. وسع.

دخل وسب جميع من يعيشون على الأرض... ففهم علي. دخل دورة المياه ولما خرج. سأل علي:

هل بلغتك الأخبار؟.. لم يرد عليه، أعاد سؤاله.. ورفع صوته. لم يرد عليه بحث عنه ولم يجده، جلس وهو يقول:

- عملت طيب. تزوجها أنت. حلال عليك.

بعد لحظات عاد علي يحمل خبزا وزجاجتي بيرة ودخل المطبخ. انحنى نبيل وفك رباط الحذاء وخلع الشراب وتمدد على الكنبة..

عاد علي بالعشاء الخفيف، وضعه وهو يقول:

- أخت رباب قالت إنها راحت تنادي عمها رجب شقيق إمام الأصغر كي يحاول إيقاف زيجة عريس الغفلة.

قال نبيل مقطبا: أرجوك يا علي، اقفل على الحكاية أو اذهب.

- بس. بس.. المسألة لا تستحق كل هذا الغضب.

- تستحق أو لا تستحق.. دعنا منها.

- موافق، لكن الموضوع محتاج كلام.

أكلا وشرعا يحتسيان البيرة، قال نبيل:

- سألت عليك عم ملاك فقال إنك نادرا ما تذهب إليه هذه الأيام، وأحيانًا تقعد معه دقائق.

كما أني جئت لك مرتين هذا الأسبوع فلم أجـدك.. أنت طول عمرك نظامك كما الساعة ماذا جرى؟ ماذا جد؟

هرب علي من السؤال وفتح سيرة رباب. تحول كل ما أكله نبيل إلى سخط وعاد يسب العـالم والآبـاء والحـب أيضا.

- آباء ضعفاء بدون شخصية. حياة صعبة ومعقدة.. خيوط متداخلة وملتفة على بعضها بطريقة شيطانية لا تعرف لها بداية من نهاية، ولا تعرف لها طرقًا مستقيمة.. ظروفنـا ونظام معيشتنا مثل حوارينا الحلزونيـة الملفوفـة الطويلـة الضيقة المظلمة المليئة بالحفر والمطبات وبالكلاب والعـرس والعيال وبحيرات المياه.

قل يا علي.. هل خلقنا الله كي يعذبنا.

علي: خلقنا كي نعرف ونفهم.

- سنوات طويلة مرت لا نعرف ولا نفهم.

- لا.. عرف الناس الكثير وفهموا أكثر.

- والنتيجة؟
- مزيد من الفهم والاكتشاف.
- أي اكتشاف؟.. البيرة أثرت عليك بدري.
- اكتشاف أسرار.. النفس والكون المحيط.
- ما زال السؤال هو: ما النتيجة؟
- العبرة ليست بالنتائج.. الوسائل نفسها لذة ومتعة ومجد.
- لذة.. أين هي اللذة والمجد؟
- الاكتشافات.. مناقشة الثوابت. خرق الأسوار. القفز فوق الحواجز. لا تتحدث عن نفسك، تحدث عن عمر الحياة والأحياء.
- النتيجة أن الثوابت تقع على رءوسنا، القفز فوق الحواجز يكسر عظامنا.
- كي نحاول من جديد ونتقن العمل ونحفر للعزيمة والإرادة في العمق.
- الطمع لا يترك الفرصة لعمل شيء مضبوط.
- أحيانًا كثيرة يستخدم الإنسان عقله لتحويل الأمور عن مسارها الصحيح إلى منهج يخدم أغراضه.

- الحل؟

- الحل معروف من زمان، والإنسان يتجاهله ويتهرب منه.

- وهو.

- الدين والفن.. معلما البشرية، الأول خلقه الله والثاني خلقه الإنسان.

- سيبنا من الأول. أمره مفهوم.

- الفن. أحد اكتشافات الإنسان الرائعة لإنقاذ روحه من الضياع ومن الفناء.

- الفن وحده يعمل كل هذا الكلام الكبير.

- وأكثر.

- تبالغ.

- طالما لا يهتم الفنان بإثارة الغرائز، فهو قادر على تحريك الحب والطموح وقيادة الإنسان بأسلوب ناعم وميل، ليعبر الأوحال والمستنقعات والظلام نحو حدائق السعادة والحلم، والرضا عن العالم والصبر على الناس، وترك مساحة لهم يمارسون فيها أطماعهم وقسوة قلوبهم، وكلما زاد من يحبون الفن زاد المتسامحون، وقل القساة وزاد المتصلون

بالروح وقل عباد المادة وزادت الأنوار وتوارت الظلمات.. اتسعت المساحات واختفت الأسوار.

- أي فن؟

- أي فن.. المسرح. السينما. القصة. الشعر.. الفن هو الغذاء الحقيقي للبشر. هو العلاج. سلم نفسك له. كلما اقتربنا منه. اقتربنا من الحب وتعلمناه في أرقى صوره. وكلما ابتعدنا عن الفن كلما هبطنا وتولانا الطمع وتبادلنا الكراهية.

- أفضل الفنون.

- كلها مرايا تساعدك أن ترى نفسك وترى ما هو جوهري في الحياة.. أن ترتفع على الصراعات المادية التافهة.

- لا حياة خارج هذه الصراعات أو بدونها.. أنت تعمل وتقبض، ولو أنا عندي ما عندك لا توجد مشكلة.

- اصبر ولا تتوتر. لا تجعل الزمن يرعبك. اقرأ واهدأ واستعد كي تستقبل الثمار. فهي رغم أنفك ستأتيك!

- اقرأ!

- اقرأ.. ليس فعل أمر.. القراءة وطن.. القراءة ليست فقط في الكتب.. القراءة هي احتواء العالم بالمعرفة وهذا هو معناها في القرآن.

- أنت مزاجك عالٍ وأنا لست في حالة تسمح بمجاراتك. سلام.

قرر علي أن يساهم في حل مشكلة صديقه الذي يتأزم كل يوم أكثر.. عزم أن يتقدم بطلب إلى رئيسه في دعم اتخاذ القرار بمجلس الوزراء لتعيين نبيل.. من غير المعقول تركه بهذه الحالة.. لم يبقَ له إلا أن يقتل أحدا. وفي الغالب نفسه.

- لن أدهش إذا بلغني هذا الخبر بداية من هذه اللحظة..

كم يا ترى في مصر مثله؟.. لابد أن هناك مليوني عاطل، وهذا يعني مليوني قنبلة موقوتة جاهزة للانفجار في أي وقت.

للأسف.. رفضت صحف الأهرام والأخبار والجمهورية نشر مقالي عن هذا الموضوع.. ولما حاولت

التحدث عنه مع الوزير المختص في معرض الكتاب قطعوا الكهرباء ومنعوني من الكلام ومن يومها قاطعت المعرض.

(١٢)

الفيروس يعمل بقوة في رأس يحيى والهدف الكبير لا يفارق فكره.. يروح به ويجيء بالنهار ويحلم به عندما ينام. تحركه رغبة دفينة وعميقة كي تكون له حيثية في المجتمع. لقد رفضته ثلاث أسر، زوجة أبيه التي شردته ولم تمكنه من الحصول على الشهادة الابتدائية.. ها هم إخوته غير الأشقاء يحصلون على المؤهلات العليا واحد في أثر واحد، وكلما حاول التقرب منهم، تهربوا وتعللوا وكأنهم جميعا متفقون على التبرؤ منه، خاصة بعد رحيل الوالد، الله يسامحه..

لم يكن له من بيت يلجأ إليه إلا بيت خاله، وهو على قد حاله، لكنه وزوجته الطيبة الحنون رحبا به، وهي بالذات كانت تحرص على تسليمه نصيبه من اللحم قبل أولادها، وترجوه وتلح عليه أن يأكل المزيد، وتكثر من سؤاله إذا كان يريد شيئًا، وتطل عليه إذا نام، وتحكم الغطاء حول بدنه الذي كان هزيلاً. ثم أقام فترة مع أخته الشقيقة المطلقة وقد تزوجت وسافرت إلى طور سيناء. نماذج غريبة من البشر

التقاها في مسيرته وهو يبدو وحيدا.. كان هناك دائما أحباب. أما موقف إخوته فيحز في نفسه بشدة، هو لهم الأخ الأكبر، كان عليهم أن يلجئوا إليه. يسألوا عنه، يرحبوا به ويخففوا عنه بعض وحدته ومعاناته.. ألم تكن صلة الرحم قادرة على أن توحي لهم بالرحمة. وهل هو إلى هذه الدرجة حيوان أجرب، يمكن أن يمسهم منه عدوى، أو مجرم يمكن أن يلحق بهم العار والفضيحة.

قبل أسبوع ركن السيارة الأجرة على جنب، وأسند رأسه على عجلة القيادة وفوجئ بدموعه تنهمر وجسده يرتعد ويرتج من شدة الانفعال، لأن أخاه المحامي أشار لسيارة أجرة، ولما وقف له، قال له:

- اتفضل يا متر.

قال المحامي: محكمة شمال القاهرة يا أسطى.

ثم تنبه إلى أن السائق عرف أنه محامٍ، فسأل:

- أنت تعرفني يا أسطى.

- عز المعرفة.

- كانت لك قضية عندي؟

- عندكم كلكم.

- عندنا كلنا!

- أنت وأخواتك.

- متأسف.. فهمني.

- ألا تعرفني؟

وجه المحامي نظراته إلى مرآة السائق بلا مبالاة، ثم قال:

- لا أعرفك.

أوقف يحيى السيارة وتحول إلى أخيه، وقال:

- لا تعرف هذه الهيئة.. لم ترها من قبل.

قال المحامي بلا اهتمام:

- أنت.. يحيى.

اندفع بالسيارة وهو يقول:- هل تذكرت شكلي؟

- افتكرت أني شفتك من كذا سنة، في وفاة الوالد.

- الله يرحمه، وكيف حال إخوتك.

- الحمد لله.

- أظن أنا أخوكم الكبير.

- اعذرنا.. مشاغل.

- عاذركم.

ساد صمت، وبعد لحظات قال المحامي:

- هنا.. اتفضل.

زعر يحيى، لما رأى المحامي يقدم له خمسة جنيهات.. نظر إليه معاتبا.

- ترضاها؟

- حقك.

- ترضاها يعني؟

- طبعا.. سلام.

سحب المحامي الحقيبة البني الجلدية وغادر العربة، وأسقط ورقة البنكنوت إلى جوار السائق. أسرع يصعد درجات المبنى الكبير، ويتابعه يحيى بنظراته وروحه الناقمة.. نظراته تصعد مع حذائه الذهبي اللامع وهو يدوس درجات السلم الرخامية في ثقة وكبرياء، فوقها البنطلون الطويل البني الفاتح، فوقه الجاكت التويد في لون القهوة وتظهر من فوقه ياقة القميص الأصفر، وقفا يتدرج عليه شعر أسود ثقيل.

ولما غاب الفتى رشيق العود الذي نفذ في المبنى الضخم كالرمح، شعر يحيى بالبرودة المفاجئة، وأحس أن كل

الأشياء كبيرة وهو ضئيل.. وهي تواصل تضخمها، وهو يمعن في ضآلته.. حتى السيارة التي يجلس بداخلها تصغر وتصغر.

لمح الجنيهات الخمسة تجلس بجانبه، يعلم أنها أكثر من حقه عن المسافة التي قطعها.. رأسها برأسه.. تنظر إليه بطرف عينها.. تتحرك وترقص وتتلوى وتنبسط وتنقبض غير عابئة به. مصرة على احتقاره، عندئذ أسند رأسه على عجلة القيادة وغلبه الأسى فأنشأ يبكي.

تناهى إلى سمعه نقر على الزجاج. رفع رأسه. رأى بجانب عينه سيدة بادية الأناقة تقول له:

- الزمالك.

أشار لها كي تركب ومضى يجفف دموعه، ويعيد تنظيم نفسه، انطلق إلي حيث أرادت، وهو يفكر في شيء واحد.. واحد فقط.

هل يمكن أن يكون يوما في موقع يسمح له أن يعطي أخاه المحامي أجره وتكون يده هي العليا.. كلما طرد الفكرة لينتبه إلى غيرها، كأن يتذكر ما طلبت منه نرجس. ينسى

ويفكر في المحامي وجنيهاته الخمسة، وهذا البرود الذي لا يصدر حتى عن غريب.

مد يده وبسط كل أصابعه وقبض على الورقة أم خمسة، وضغط عليها. فعصها. هرسها. وتأكد أنها تماما في راحته. فكر أن يقذف بها إلى أرض الشارع، أو يتوقف ويلقيها بنفسه في صندوق القمامة، لكنه تراجع وقرر أن يدفنها في جيبه وهو يقول:

- انتظري هنا.. في يوم قريب.

ستعودين إليه.

(١٣)

لما لم تأتِ في موعدها ذهب إلى بيتها متعللاً بزيارة والدها. فتح له صبي في العاشرة. وجد أمامه بركات السكري يجلس على الكنبة في صدر الصالة. فرح وتهلل. هنأه بالسلامة.

- الحمد لله على كل حال.

- إن شاء الله تخرج وترجع شغلك.

- ما دام نروح الحمام يبقى خير وبركة.

ظهرت ناهد في جلباب البيت وشعرها الأسود يتهدل على كتفها، ولولا شريط أخضر يمسكه من منابته لأغرق الوجه والصدر. بدت جميلة في عينيه، وهي تضع على صدرها فوطة المطبخ، وتحمل عليها تورتة.

- أهلاً يا عم يس.

- أهلاً بست العرائس.

- تعالَ يا سمير.. سلم على عمك يس.

دخل شاب في سن المراهقة. طويل ونحيل. حبوب متناثرة على صفحة وجهه. رحب بالضيف، قالت ناهد:

- بارك لسمير.

- ألف مبروك.

- فاز بجائزة أحسن رسم على كل مدارس الجمهورية.

قال بركات:

- أصرت ناهد أن تعمل له التورتة بيديها احتفالاً بأجمل أيامنا منذ ماتت المرحومة.

أضافت ناهد: الوزير قرر له مكافأة ألف جنيه.

- شيء عظيم.

تهلل وجهه بركات وهو يقول: لذلك وافقت أن يدخل الجامعة بعد أن كنت أبحث له عن عمل.

علق يس: جاءت الجائزة في الوقت المناسب.

- ربنا عالم.

التفت عم يس إلى سمير وسأله: هل كنت دائما تحب الرسم؟

قال سمير: من صغري وأنا أشطر ولد في الرسم.. الأستاذ نفسه كان منبهرا ويشجعني.. إذا فتح الكراسة تتغير ملامحه من الفزع للفرح والابتسام... وفي الآخر يقول: الله

عليك يا سمير.. ولد فنان صحيح.. مستقبلك بإذن الله مضمون.

لما كان يطلب منا رسم عروسة المولد أرسم له عروسة بجناحين، تحلق في السماء، وقلوب كثيرة ترفرف حولها، طلب مرة نرسم منظرا عن الكتاب رسمت له قلم يجر وراءه سيارات ومصانع ومزارع وأعلام، وبمناسبة ذكرى حرب أكتوبر، طلب نرسم جنودنا في الحرب.. رسمت له ديوك راكبة مدافع وطائرات.. أمامها أرض صفراء وفيها نقط من الدم وراءها الأرض خضراء.. شافها الناظر أصر أن يعرضها في مكتبه. شافها وكيل الوزارة طلبها كي تعلق في مكتبه.

قال يس: الحمد لله إن الوزير لم يرها.

ضحك الجميع وعاد يس يسأل سمير:

- نفسك تدخل أي كلية؟

- نفسي أدخل كلية الزراعة واستلم أرض في الصحراء. استصلحها وأعيش جنبها وارسم.

- شيء حلو خالص.

سكت لحظة ثم استطرد:

- نفسي يا أخي يا بركات تشاركوني فرحتي الكبيرة. المحكمة على وشك أن تحكم في القضية.

- أية قضية؟

- أنت نسيت.. قضية الأرض التي أخذها أخي. نصيبي في الميراث.. أرض ثمنها مليون جنيه.. خلال أسبوعين ثلاثة ترجع لي.. المحامي متأكد من الحكم، وبعدها يصدر قرار التمكين.

- مليون جنيه!..مبلغ ينقلك نقلة كبيرة يا يس.

- والحبايب ينوبهم نايب.

طوال الحديث لم تكن عيناه تفارق ناهد. يتصورها وهي تجلس هكذا في بيته. هما معا ولا أحد سواهما.. ها هي الآن تقطع تورتة حبهما، وها هي تضع برشاقة قطعتين في طبق وتقدمه له..

- تفضل يا عم يس.

لا تزال هذه هي المشكلة.. عم يس.. عندما يلتقيان خارج البيت سيطلب إليها أن تكف عن هذه الكلمة.

تنهد وسرح.

- يا سلام على الحب.. لما أشوفها قلبي يرقص.. حياتي كلها ترقص.. لا.. الدنيا كلها ترقص.

ذاق قطعة ثم قال:

الله شيء حلو خالص تسلم يدك يا ست العرائس.

ابتلع الحلوى ثم قال:

- إن شاء الله يا بركات، لما أكسب القضية وترتد لي الأرض. ثمنها مليون جنيه كما تعلم.. ساعتها.. ناهد هي التي ستصنع التورتة. أحسن من أكبر محل حلويات.

وأحب أن يستدرجها، فقال:

- مستعدة يا ست البنات.

ردت على استحياء:

- ربنا يسعدك يا عم يس.

كان بركات يضحك كثيرا، وكذلك ناهد والأولاد. حالة متأججة من البهجة تشمل المكان وأهله.. حالة نادرة من السعادة والفرح وخلو البال والرضا عن النفس وعن الدنيا.. فرح بسيط وطيب وعلى قد حاله.

كانت أكبر الضحكات التي قهقه لها يس كثيرا، وربما لعشرات السنين لم يذق حلاوتها، عندما فاجأه بركات قائلاً:

- لكن قل لي يا يس، ما هي الحكاية؟
- أية حكاية؟
- أنت رجعت إلى الوراء عشرين سنة. كيف أصبحت هكذا في عز الشاب؟

كان هذا هو المراد من رب العباد.. لم يكن يس يطمع من الدنيا في أكثر من هذه العبارة.. كانت الجسر الذي عبر عليه من الضياع والحيرة والشك في شكله وإمكانات شخصيته، وهذه هي الشهادة الكبرى من المسئول الأول عن المشروع. أجمل مشروعات الكون. لقد حصل على أول تصريح رسمي عالمي من الجهة المختصة بأنه مؤهل وصالح لأن يتقدم، وراية الأمل في المليون جنيه ترفرف بين الحين والحين على كل النوافذ والأبواب.

رقص القلب ورقصت الروح واقشعر البدن، ونبتت أجنحة في الجبين وتأهب الجسد المشبوب المعجون بالهناء للطيران.

- ما هذا الذي يجري في الدنيا؟.. ما رأيك يا ست العرائس. لم تعد هناك مشكلة.

كانت ناهد قد ابتسمت وعادت تنظر إلى يس لتتأكد أنه فعلاً كما قال أبوها.. عندئذ تضاعفت سعادة ذي الجناحين، وتقافز في كرسيه واستعد لاحتضان العالم.

قامت ناهد واتجهت إلى المطبخ. تصور يس أنها تسير في خطوات راقصة وأن أباها الرائع دون أن يقصد رمى رمية صائبة في حلق المرمى، فهزته بقوة أسعدت كل سكان الأرض.

تنهد بعمق وارتعد من السعادة التي انغمر فيها، وعزم على أن يعالج صديق عمره بركات على نفقته حتى في الخارج، وبعدها يحجز له كي يحج إلى بيت الله الحرام إذا كسب القضية.

لقد مرت عشرون سنة وها هي الثمرة توشك على السقوط في يديه.. أراد أن يقول لكل إنسان.

- لا تقنط من رحمة الله ولا تفقد الأمل.

(١٤)

لم تستطع أم رباب أن تتجاهل خبرة جندية أم هنية.. الكل يعلم أنها بلانة ماهرة.. تنظف أجساد البنات والنساء.. وتجعل أخشن جلد أنعم من الحرير والقطيفة.. نساء الحي جميعهن مررن عليها، أو مرت بيدها على لحومهن.. ومن خارج الحي جاء إليها من بلغه صيتها وشطارتها، وقد تعودت أن تتفنن في عملها وتبتكر الأدوات والمواد التي تستخدمها في نزع الشعر من جذوره، وحيثما كان موضعه، ولذاك فهي لا تتعجل الانتهاء من أي بنت أو سيدة مهما كان العدد، فالعائلة التي تستعد لزواج ابنتها، تدعو أم هنية لتنظيف العروس، وأم العروس وأخوات العروس وربما صديقاتها المقربات، وعمل أم هنية لا يتوقف تقريبا، فكل يوم تدعوها النسوة لتنفيذ عمليات التجميل. تنظيف الواحدة منهن من ساسها لراسها، لا تترك سنتيمترا واحدا دون أن تمر عليه، وتتلمسه وتحسسه برهافة وتتيح الفرصة كاملة لأطراف أناملها كي تقرأ صفحة الجلد، ولا تسامح

نفسها أبدا إذا اكتشفت أي منهن موضعا في جسدها أهملته البلانة..

تمضي في تقليب البضاعة وفحصها جزءا جزءا وعضوا عضوا، وتنكفئ على وجهها لتمتد يداها وترسل نظراتها المترفقة إلى الفرجين الأمامي والخلفي وما بينهما، وإلى الظهر والقفا وأصابع اليدين والقدمين والإبطين، وتحك الكعبين أما الوجه فله اهتمام خاص وتفرغ ودربة لأن الأصل في شغله النمنمة.

تساءلت أم رباب وهي حائرة عمن ينظف ويجهز ابنتها التي خطفها سلمان الضب، كيف تدعو أم هنية وهي التي كسرت قلب ابنها نبيل! وإن لم تكن هي التي فعلت بل زوجها إمام.. وما الفارق، الجهة واحدة، صحيح هناك كوافيرات ومراكز تجميل يمكن أن يتحمل سلمان التكلفة، لكنها لا تتصور أن الكوافيرات وهن شابات صغيرات يفقن أم هنية.

لم تلبث أن حسمت المسألة، وقد رجحت اللجوء إلى أم هنية، واستقرت على الإجابة التي تدعم موقفها.. أولاً الجار أولى بالشفعة، فلا يصح أن ألجأ إلى الغريب إلا بعد

أخذ رأي القريب، وثانيا من الذي ينافس بلانة الحي الوحيدة في شطارتها ولو جلس في التكييف والزجاج الفيميه واستخدم الآلات الحديثة والألفاظ الأجنبية.

عندما أبلغت ابنتها بذلك رفضت، وبعد جدال طويل قالت بضيق: اعملي ما تشائين.. أنا لا أرى مبررا لذاك كله.

فأكدت الأم: لازم يا ابنتي.. لازم تروحي لزوجك على سنجة عشرة.

ردت رباب بقرف: إذا كان زوجي.

قالت الأم: زوجك بشرع الله.

واستطردت بحدة: لا وقت للتراجع. ويكفي ما فعلت، جهزي نفسك للدنيا الجديدة أحسن لك.

جاءت أم هنية، وبكت رباب بين يديها.. طيبت خاطرها البلانة وأتقنت وأبدعت.. حضر سلمان وحط في يدها خمسين جنيها.. رقص قلبها وزغردت للعروس زغرودة طويلة.. فجرت الابتسامة على شفتي العروس رغما عنها.. زغرودة موسيقية تلألأت في مدخل الشقة الضيقة البسيطة، وبنت سرادقًا كبيرا ملونًا من الفرح الذي لم يكن قد بدأ بعد برغم كتب الكتاب.

أخرج سلمان عشرين جنيها ومد بها يده إليها فشكرته ودعت لهما بالسعادة، انشرح صدرها لما شاهدت حال أفراد الأسرة جميعا وهم يبتسمون ويفرحون.. وأقرت بينها وبين نفسها أن سلمان رجل طيب بصرف النظر عن فلوسه.. ملامحه بسيطة وهادئ الطبع فيما يبدو، لكنه كبير في السن..

لما نزلت السلالم درجة، درجة، تذكرت شباب رباب وحلاوتها، وفرت دمعة من عينيها، وتحسست جيدا الموضع الذي يحتضن الجنيهات..

كانت أمواج كثيرة تتلاطم، ومشاعر متناقضة تتخبط وتتدافع في نفس بسيطة، لكنها تدرك بشكل ضبابي طبع الحياة..

توقفت قبل أن تخرج إلى الشارع كي تضع العشرين في صدرها والخمسين في مكان سري، تعودت أن تدس فيه المبالغ التي لا يصح الكشف عنها.

قابلها نبيل على باب الشقة وتشاجر معها لا لأنها جهزت رباب للعريس العجوز الذي اختطفها منه.

- غضبي لأنك زغردتي بسعادة دون اعتبار لمشاعر ابنك، لا أحد في الدنيا يفعل ما فعلتيه، ولا توجد أم يطاوعها قلبها لتساهم في فرح خصم ابنها..

أيدته هنية وألقت على أمها بعضا من غضبها..

قالت الأم: لا تحزن يا نبيل.. الزواج قسمة ونصيب.

صرخ فيها قائلاً: قسمة ونصيب نعم، لكن نزغرد ونهلل ونرقص.. مالنا ومالهم..

حاولت أن تطيب خاطره.. قالت بضعف وهي تمد يديها إلى صدرها:

- أعطوني عشرين جنيها.. خد لك عشرة وأنا عشرة.

خطف الورقة وألقاها بقوة ساخطة في الصالة.. وأسرع يهبط الدرجات.. كاد يبكي من الحنق والغيظ، احتقر العالم كله وبصق عليه.. التقط أنفاسه بصعوبة.. صدره مغلق والدنيا كلها كذلك.. جوفه بركان ثائر.. كانت هنية قد أعطته خمسة جنيهات ليشتري لها بعض المطالب.. اتجه مباشرة إلى كورنيش النيل.. دخل مقهى الرشيدي.. هنأه بخروجه من قضية المخدرات كما تخرج الشعرة من

العجين.. طلب زجاجة بيرة شربها على مرتين، طلب زجاجة أخرى.. أخيرا بدأ يشعر ببعض التوازن النفسي.. تنفس بعمق وابتسم، نهض واقترب من الرشيدي يسأله عن أخبار الخمسة والأربعين يوما التي قضاها رهن التحقيق، والرشيدي يحكي عن أعماله وأقواله التي كان يلقيها بجرأة في وجوه الضباط ووكلاء النيابة، مؤكدا أنه لا يهمه من أحد إلا من ربنا.

يقول له نبيل: وربنا أنت جدع.. لكن هل صحيح أنت تخاف من ربنا؟

يرفع الرشيدي صوته: أنا يا بو النبل مسلم وموحد بالله.

يعلق نبيل: موحد بالله آه.. لكن الصنف على العين والرأس.

يسرع الرشيدي قائلاً: زجاجتان فقط طيروا مخك.. انكتم يا مجنون أنا تحت المراقبة.

قام من جنبه واختفى.. بعد لحظات، استشعر نبيل حاجته إلى زجاجة ثالثة، لكنه تنبه أن الحساب لن يسمح فألقى الخمسة وخرج..

عندما اقترب من فيلا البارودي قابل كاملة خادمة الدكتور شاهر لطفي أستاذه في الجامعة، كانت الدموع في عينيها، وتمسك في يدها "بؤجة".. سألها، شكت له من سوء معاملة زوجة د. شاهر.. حذرها من العودة إلى البلد في هذا الوقت المتأخر من الليل، دعاها إلى أن تبيت عندهم حتى الصباح.

فكر في الطريق بأنها ربما لا تجد مكانًا مناسبا في بيتهم، فمضى بها إلى علي جودة، وحكى له حكايتها، سمح لها علي بالمبيت في الغرفة الداخلية وينام هو ونبيل في الغرفة المطلة على الحارة.

ظل نبيل ساهرا إلى أن نام علي، ثم تسلل بالليل إليها.. وجد الباب مغلقًا.. همس مناديا.. عالج المقبض.. فتحت له فاجأها وحاول عناقها.. طلعت عليه سخونة جسمها البض.. رفضت واعتذر لها حتى لا تخرج في عز الليل.. جلست على السرير وجلس إلى جوارها يتحدث معها ثم هجم عليها محاولاً مرة أخرى.. نفضته من فوقها وسحبت "البؤجة" ورفعت رأسها وهي تمضي بإصرار نحو الباب.. استيقظ علي وعرف ما جرى.. وحاول مخلصا أن يستبقيها

وأقسم لها أن ينام على باب حجرتها وهي تغلقها من الداخل بالترباس.. أبدا.. قالت إنها ستخرج حتى لو تطلب ذلك أن تعمل لهم فضيحة وتفقع مائة صوت.. وتصحي كل الناس الذين يقيمون في الحي، اعترفت بأنها أخطأت لما وثقت بشخص تظن أنها كانت تعرفه وشعرت بالأمان معه، وحسبت أنه رجل..

جلس نبيل بعض الوقت على الكنبة في الصالة يلوم نفسه لا لأنه اقترب منها، ولكن لأنه تسرع ولم يعد الخطة بشكل جيد، وكلما عاتبه علي قال له: لا تصدق هذه الحركات.. أنا أعرف هذا النوع.. المسألة كانت تحتاج إلى ترتيب أكثر..

تركه علي بعد أن قال له: نبيل هذه أول وآخر مرة يحدث هذا في بيتي.. هذه الأمور ستهدد صداقتنا.. غضب نبيل وعاد إلى بيته.

"الابتسامة التي تطلقها على الناس ترجع إليك مرة أخرى". كلمات كتبها ملاك، توقف بعض الناس كعادتهم يقرءونها وبعض البعض يتأمل والبعض يناقش.. أكد الجميع لصاحب الحكمة أن القراء في الحي قلة، والمستفيدين منها أقل، والأفضل أن تجد فرصتها في مكان أكبر.. سوق مثلاً أو ميدان أو أي بقعة يكون فيها تجمع بشري كبير.

تأمل ملاك الفكرة وأدارها في رأسه عدة أيام.. رضي عنها وقرر أن يطبع عند صديقه الحاج سلامة ألف ورقة لا تزيد عن حجم الكف. يوزعها كما قالوا في منطقة عبور كثيفة أو ميدان رئيسي، وليكن ذلك يوم إجازته، يخرج من الكنيسة ومعه الأوراق في حقيبة يده الصغيرة السوداء، ويناولها لأصحاب النصيب، لعلها تلاقي قلبا حائرا أو نفسا ضائعة أو لعلها تكبح جماح إرادة عزمت على الشر..

دعا ملاك ربه أن يعينه وأن يلهم الناس أن تقرأها بتمعن، وأن تنصت إلى معانيها بقلوبها.. فغير مستبعد أن

يكون لها ولو لدى شخص واحد بعض الأثر. ساعتها ستكون الدنيا أجمل.. قال في نفسه:

- إن امتناع شخص واحد فقط عما كان يتوجه إليه أو يبيته من الأذى كفيل بأن يشيع الفرح في الآلاف.

في آخر لحظة تنبه إلى أن مريم، لن ترض بذلك وسوف تشعلها نارا لا تخمد أبدا إلا بهدم المعبد، والمعبد لا ينقصه إلا القليل لينهدم. قرر أن يؤجل الموضوع كله حتى يقع على وسيلة هادئة لا تستفزها.

لما انتقلت مريم للإقامة في مستشفى الأمراض العقلية، وبعد انقضاء حزنه عليها نسبيا، وخمود نار غضبه لما آلت إليه حالها، والوضع الذي أصبح عليه بيته رأى أن الوقت أصبح مناسبا لينفذ مشروعه الذي يحلم به.. أن يوزع الحكمة في الشوارع. لكنه في آخر لحظة أيضا تذكر ولده مجيد، فهو أكثر تعصبا للمظهر من أمه، وسوف يكون أكثر ثورة. ولما سأل علي جودة كان له نفس الرأي.. ومع ذلك فقد كان ضغط مشروعه ثقيلاً ورايات حلمه ترفرف وتلوح له في كل وقت وتدعوه ألا يخشى شيئًا. فمضى يقنع نفسه: كل عمل عظيم، كان في بدايته موضع اختلاف واعتراض

المحيطين، لكن أصحاب الأفكار الملهمة المشبعين بها صموا آذانهم ضد محاولات التثبيط وإطفاء أنوار الأمل، وانطلقوا بأفكارهم يدفعون من أجل أن تظهر وتحيا وتنتشر ليلهم ونهارهم وأموالهم، بل وأحيانًا أرواحهم، وليست الخطوات التي قطعتها الحياة على طريق التقدم إلا كفاحا ضد الإحباط، وانتزاعا للأمل من وحل العادة والخمول واليأس.

عندما انتقلت مريم إلى المستشفى كان مجيد بالسنة الثانية بكلية الفنون، تجاسر الأب على أن يشرك ولده في تصميم الحكمة واختيار نوع الخط وحجم الورقة، وقبل أن يكمل ملاك كلماته كان مجيد يصيح معلنًا غضبه، وحاول ملاك بهدوء أن ينقل إليه أهدافه ومشاعره وأمله في أن يكون شخصا مفيدا على قد جهده، إلا أن مجيد أنهى النقاش قائلاً:

- لو كان الأنبياء والرسل الذين أرسلوا لهداية البشر طوال حقب الزمان بما فيهم يسوع.. تجمعوا وهبطوا معا على أرض مصر من جديد وانتشروا في كل محافظاتها، لما صلح حال الناس.. خليك أحسن في حالك، ويكفيك أن ترعى ماجدة، فهذه رسالتك.

بعد سفر مجيد إلى باريس. شعر ملاك أن الرب يقف إلى جواره وخامره إحساس أنه دبر سفره كي تتاح له الفرصة لينشر حكمته..

- ما أجمل أن نتأمل أفعال الرب ونقرأ كلماته التي يكتبها بمصائر البشر. فما يجري للناس هي كتابة ربانية، وعلينا أن نحاول فك ألغازها والوصول إلى أسرارها.. في كل موقف سر، ووراء كل سلوك غاية وهدف.

انطلق ملاك يؤلف حكمه ويفكر طويلاً في صياغتها بحيث لا تكون طويلة أو مملة. وإنما الأفضل أن تكون مكثفة ومحبوكة وقوية، في الوقت ذاته بسيطة..

"أفضل من الذي يسن القوانين، من يعلمني كيف أغني".

"كن كالغصن الرطب، تميل مع الرياح ولا تنكسر في العاصفة".

"نام عميقًا من لا يملك ما يخاف على فقدانه".

"العربة الفارغة أكثر ضجة وصخبا من العربة الممتلئة".

"إذا زرعت غصنًا أخضر في قلبك، فسوف يقف عليه بلبل أو كروان".

كلما كتب واحدة فاقت سابقتها، وأعجبت المستشار الأول، وأعجبت الناس. أصبح ملاك ذا شهرة بحكمه، ووصل الاهتمام بها إلى الصحف، فنشرت بعضها تحت عنوان أسود عريض "حكمة ملاك".

شجعه هذا على أن يتفاءل ويشعر بأن الحياة جديرة بأن نحياها، لأن هناك من يقدر ويستجيب. انشغل بالقراءة وصرف وقتًا أكثر لتأليف الحكم وإعادة صياغتها وتقليبها في رأسه وعلى لسانه.. محاولاً إضافة مسحة موسيقية مع قليل من السجع المناسب والطبيعي دون اضطرار أو تكلف.. وأخذ ينتظر قدوم يوم الأحد بفارغ الصبر، حتى ضاق بهذا الانتظار الذي يشعر أنه ليس أسبوعا ولكنه شهر ويزيد، وهذا ما دفعه إلى أن يقوم بتوزيع حكمته يومين في الأسبوع، ثم أصبحت ثلاثة.

زاد عدد زواره وزاد عدد مناقشيه ومحاوريه. واضطر علي أن يكثر من فترات وجوده حتى يعينه على البيع، فقد لاحظ أن صاحب المكتبة أصبح يخطئ في حساب

البضاعة المباعة، كما كان يضطر للبقاء وقتًا أطول يوم الجمعة، لأنه اليوم الذي يذهب فيه ملاك لشراء تموين المكتبة طوال الأسبوع.

* * *

لما قاربت الشهور الثلاثة على الانتهاء، توجس ملاك من عودة مجيد فسوف يبطش بمشروعه، ويحطم كل ما بناه، ويحرمه من أجمل أيام حياته التي وجد ذاته خلالها، بل وجد صحته وعافيته، ولاحظ علي والجيران تدفق الدماء في وجهه وزيادة وزنه قليلاً برغم المجهود البدني والذهني الذي يبذله.

مع إشراقه صباح آخر يوم في الشهور الثلاثة تهيأ لاستقبال برقية من ولده تفيده بساعة وصوله، عزم علي أن يأخذ سيارة كبيرة تقل بعض الأحباب لاستقبال ولده الوحيد الذي اختارته عناية الله كي يرفع اسم عائلة أسعد عبد الشهيد سدراك بين الناس.. ولده الذي سيفخر به اكتشف ملاك أنه نباته الذي ترعرع وأثمر ويمكن للجميع أن يروا ثماره أعلى من كل الثمار وأنضج وأزهى من غيرها.. وما إن اكتشف ملاك أنه تمادى في أحلامه وأفكاره حتى استدرك قائلاً:

- سامحني يا رب، فأنا برغم كل شيء بشر ومن حقي أن أزهو وأتيه.

لم يكن يعرف السر في أنه طوال تفكيره في مجيد، كانت الصورة التي تطل في نوافذ رأسه جميعها هي صورة مريم.. وما إن يفكر في مجيد لحظة حتى ينفتح باب كبير ويرى فيه عرضا بانوراميا مجسدا لذكرياته مع مريم، كانت الرؤية ضبابية وأحيانًا معتمة، حاول كثيرا أن يجد خلالها ركنًا مضيئًا فلم يوفق إلى ذلك، حتى شكلها الجميل، لم يكن يظهر على شاشة الذكريات جميلاً.. حتى عيونها المشهورة بجمالها الفريد كان يراها واسعة جدا محدقة جدا. توجه إليه سهاما حادة بشكل جنوني مثير للرعب.

ها هي تجلس معه يوم أن استشعرت الحمل الأول:

- أريد بنتًا أسميها ماجدة على اسم أعز صاحباتي.

يقول لها:

- وأنا أريد ولدا أسميه مجيدا.. ليس على اسم أحد، لكني معجب بهذا الاسم، وهو في نفس الوقت يتفق مع اسم ابنتك.. ألا تلاحظين مدى التوافق بيننا فكلاهما يبدأ بحرف الميم، وكلاهما يتحدث عن الفائزين بالمجد.

قالت بسعادة:

- مثل اسمك واسمي.

رفع رأسه إلى أعلى قليلاً وتنهد، ثم قال كأنه يتحدث إلى الغيب:

- سوف يكون الولد والبنت بمشيئة الرب في أعلى المناصب، لابد أن نجتهد بأقصى ما نستطيع لتحقق آمالنا فيهما.

يضحك ملاك في شبه مرارة، ثم يتملكه الأسى من هول المفارقة وتنبت في عيونه دمعات قليلة وهو يقول:

- ربنا يتم شفاءك وتعودين إلى بيتك وتستقبلين ابنك مجيد وهو فنان كبير.

هل قلب المؤمن دليله. في الغالب هذا ما يحدث، وفي الغالب أيضا لا يحدث.

قبل الغروب وصلت البرقية المنتظرة.

"أبي الغالي.. أنا بخير.. لا تنتظرني.. سوف أبقى هنا لمدة عام.. قبلاتي لماجدة.. مجيد".

كان واقفًا فجلس وقال لنفسه:

- هذا الولد من يومه قاسي القلب.. لا يحس بأهله.

لما وصل علي إلى المكتبة مع الغروب، سأل عن أخبار مجيد. حدثه ملاك عن البرقية وهو يفيض أسى وحزنًا.

قال علي:

- لماذا لا تفرح بولدك الذي نجح.. لو كان قد عاد بعد الشهور الثلاثة لكان ذلك دليلاً على أنه محدود الموهبة برغم فوزه، لكن استمراره هناك هو الدليل على أنه لقي ترحيبا.

- أقول لك سيغيب عاما كاملاً.

- وماذا في هذا؟ خلق الشباب للعمل والسفر واقتحام الحياة ومحاولة الإمساك بالنجوم، وليس على الآباء الوقوف في طريقهم.

- مدة طويلة وأنا وحدي.

- السنة أصبحت مدة قصيرة جدا.. إذا مر منها شهران. وشهران.. لا يبقى منها إلا القليل ولا تنس المكاسب التي سينالها مجيد. العلاقات. الخبرة. الدراسة. العمل. الأضواء. الطموح. عالم آخر.. إنها باريس يا والدي.. وما

أدراك ما باريس.. النور والجمال والمجد.. اسمح لي أقول لك: أنت تظلمه بالقلق عليه والتفكير في قص أجنحته وتقييده.

- ولدي الوحيد يا علي.
- الأولاد في هذا الزمان ليسوا للآباء، بل للحياة ولأنفسهم.

انفرجت أسارير ملاك قليلاً وهدأت ملامحه وهو يخرج من بوتقة الحزن.

- أنت مقتنع بما تقول أم أنك تخفف عني.
- مقتنع تماما، ولم يحدث أن فكرت أن أقول غير الحقيقة لا لك ولا لغيرك.
- ربنا يحفظه ويوفقه.
- نعم.. هو ذاك.. ادع له.. وإذا كان في سفر مجيد مصلحة له، فلا ننسى أن فيه مصلحة لك.
- ما هي؟
- مجدك.. حكمتك.
- ذكرتني.. سأذهب إلى سلامة لأستلم حكمة الغد.

بدا ملاك في عيون علي كطفل فرحان سيذهب مع أهله إلى الملاهي.

(١٦)

منذ عشرين سنة غاب الوالدان. منذ عشر سنوات تزوجت الأختان ومنذ أربع سنوات سافر الأخ الوحيد ولم يظهر ولو مرة، ومنذ عامين سافرت صافيناز أكبر الأختين مع زوجها الملحق العسكري في سفارتنا بروسيا.. كم كبير من الغياب تكدس على مدى سنوات. الكل يذهب وهي وحدها في الفيلا. ويكمل الغياب ويتعتق بانشغال أختها الصغرى زوجة المنتج السينمائي. لا تسأل عنها إلا كل سنة مرة. وجدت نفسها في صداقتها مع الممثلين وأهل الفن المشتغلين بالسينما والمسرح حتى أصبحوا هم أهلها، وعالمها، وها هو زوجها يستعد لافتتاح شركة باسمها "عين الحياة" للإنتاج التلفزيوني.

سنوات طويلة من العزلة والبرد والوحدة والملل، ليس لها من ونيس إلا الموسيقى والطيور والقطط، لم تتحمس للنظر في المرآة غير مرات قلائل، لعلها أتعس حياة.. قعيدة وحيدة وخاملة. زاد الحال سوءا منذ سافر سراج. فقدت

الشهية وماتت الرغبات. لامته في نفسها كثيرا على هذا التصرف الأناني بالغ الشذوذ.

لم يدق أحد من الرجال بابها، لأنها دائما بين جدران البيت لا تبرحه. دعتها أختها لحضور بعض الحفلات التي تجمعها مع الممثلين والفنانين. رفضت. كان أخوها سراج يدعوها للنزهة فترفض. مختلفة قليلاً عن إخوتها، وكان والدها غير متحمس لتوطيد الروابط مع باقي أفراد العائلة. يريد أن يحمي أولاده – كما كان يقول – من أي احتكاك طائش، لكنه لم يعش ليحرس أي شيء. مات الوالدان معا في حادثة انفجار إطار سيارة وهما عائدان من الإسكندرية. وتركاها وهي تشعر أنها غير قادرة على الاندماج في الناس أو إجراء حوار مع أحد.

لما طرق دنياها يحيى برقة وأناقة تفتحت روحها واستقبلته بترحاب، ولما كاشفها بمهنته البسيطة وظروف عائلته مع قدر من التلوين الكاذب، لم تأبه لكل ما قال. حاولت أن تبذل أقصى جهدها لاستكشاف صدقه فقط في مشاعره نحوها. لم تر أية أهمية أو خطر في أن يكون شحاذًا أو جائعا أو ضائعا.. أو.. أو.. لم تتصور أن يكون لذلك

قيمة، كل المطلوب مشاعر إنسان يشاركها الحياة ويخفف من حدة البرد والسأم والرتابة المقيتة، وأن يفتح صندوق الجسد المغلق على أسراره.

كان الشوق للمشاعر والجوع للأحاسيس. أمنيتها الأولى أن تصحو في الصباح لتجد من يقول لها: صباح الخير أو صباح الفل، وأن يقول لها صديق أو أخ: فستانك جميل أو تسريحة شعرك حلوة. هيا نذهب إلى السينما.. أنت تحسنين الطهي. ذوقك جميل، ما رأيك في أن..؟

استدعت أختها وزوجها وابن عمها وشخصا رابعا ليس من العائلة، لكنه كان صديق والدها، وكان أكثر من يسأل عنها.. رأفت بك عامر وكيل وزارة التعليم الذي أحيل إلى المعاش منذ سنوات، حدثتهم عن يحيى ورغبته في الزواج منها.

اضطرت أن تكذب وتقول: رجل أعمال. على أساس أنها كلمة مطاطة تضم تقريبا كل من لا يقبض من غيره. كل مهنة حرة يدعي أصحابها – إعجابا باللقب الجديد – أنهم رجال أعمال. يحيى قال لها ذلك. وإذا ضاقت سكك الحوار وسألوها:

- أي أعمال؟، يمكنها أن تقول تجارة السيارات، ولن يطول هذا اللقاء أكثر من ساعتين، وبعدها يذهبون فلا يرجعون، كما تعودوا.. وهي تدرك مشاعر صديق والدها الذي يدعمها بآرائه وثقته.

حدثتهم عن رغبتها في أن ترفض عرضه للإقامة معه في شقته المطلة على النيل في فم الخليج، لأنها لا تستطيع إلا أن تقيم في الفيلا حيث اعتادت أن تعيش. وافق الجميع واستحسنوا الفكرة وقال رأفت عامر موجها حديثه للجميع وخاصة ابن عمها وزوج أختها:

- أولاً لكي لا يفكر أحد من أخواتها ولا حتى هي في بيع الفيلا إذا خلت، وثانيا لأن بقاءها في بيتها يشعرها بالثقة والاطمئنان وتمتعها بكامل كرامتها، ولو حدث خلاف لا قدر الله، هي في بيتها وليذهب هو حيث يشاء، وثالثًا لكي تتاح الفرصة لزيارتها، والأهم من هذا جميعه أن يجد أخوها – إذا عاد – البيت مفتوحا ولا يجده مهجورا أو خرابا، ناهيكم عن أهمية بقائه مفتوحا وعامرا يحمل اسم البارودي.

عندما عاد يحيى يوم الجنيهات الخمسة بعد لقائه بأخيه المحامي، سأل نرجس عن ملكية الفيلا، فعلم أنها

لا زالت باسم والدها وأن الميراث لم يقسم بعد، وغياب أخيها أوقف كل شيء.

فكر في الفيلا التي تساوي نحو مليون جنيه، ولا يستطيع أن يفيد منها.. لو استطاع التخلص منها لكان ثمنها بداية لمشروع ممتاز يرفعه إلى السماء في يوم وليلة.. إذن لماذا كان السعي للزواج لو لم يكن من أجل المال؟.. لابد أن هناك غير الفيلا.. ممتلكات أخرى.. كان يعرف أن أسرتها تمتلك خمسين فدانًا في إيتاي البارود، يركب معظمها مستأجرون. كل سنة يحضرون إليها ليضعوا بين يديها عدة آلاف من الجنيهات وهناك ثلاثة أفدنة مسورة على طريق مصر إسكندرية الصحراوي.. وهناك عمارتان متجاورتان في شارع شبرا.. أربعون شقة وعدد من المحلات، لا يزيد إيجارها جميعا على ألف جنيه في الشهر، توزع العوائد بينهم جميعا.

الفيلا بناها جدها الباشا تاجر القطن الشهير في الأربعينيات، وكان لديه سبعمائة فدان أكثرها فقده على حياة عينه، والباقي تقاسمه على أولاده التسعة.

نرجس لاحظت طيبة يحيى وخفة ظله وميله للنكتة وحسن معاملته، فتسلل إلى قلبها وأحبته. رضيت عن القدر الذي وضع يحيى في طريقها لينهي عهدا من تجاهل الرجال، وشعورها بالضياع الذي سبب لها مسحة من الذلة وتكدس في نفسها إحساس بأنها ليست كغيرها من النساء وتفتقد لما يتمتعن به.

الفترة الماضية كانت تعسة، وهي لا تفتأ تتذكرها بعد أن امتلأ البيت بالشمس والدفء والنور والوجود الإنساني.. كانت الدقائق تمر عليها والثواني في زمان ما قبل يحيى ثقيلة ومرعبة. وكانت تطلب من الخادمة أن تبيت معها وإذا أبت أن تبيت طلبت إليها أن تبعث بوالديها وهما دون الخامسة عشرة.

ربما كان البسطاء يحسدونها لأنها حفيدة الباشا وأنها تقيم في فيلا. لكنهم لم يتصوروا أنها تعاني بالليل والنهار. لا تجد من تتحدث إليه ولا تجد ما تعمل، ولا تخرج ولا تتنزه ولا تضحك ولا تكاد تنام إلا نوما متقطعا لا أحلام فيه، وتأكل طعاما يتيما ومسكينًا بلا طعم. وتكتفي – لتبديد

الوقت – أن تقلب في ألبومات الصور.. تبدأ مع كل ألبوم رحلة الذكريات وما تلبث العيون أن ترتل أناشيد الدموع.

وجود يحيى رحلة جديدة ومختلفة. طعام وكلام وحب وقبلات ونوم ولذة وأنس وآمال مفتوحة على المستقبل.. دخوله عليها نبض لكل القلوب وفتح لكل النوافذ. وتجديد لكل الدماء التي تسري في عروقها وعروق الجدران وعروق الأرض، وعروق السقف وكل العروق التي تجعل من الفيلا أسعد مكان في الدنيا يجمع حبيبين. أو على الأقل يجعل منها مكانًا حيا دائم النبض مختلفًا عما كان.

فوجئ يحيى بنفسه يحبها ولم يكن يتوقع ذلك. فقد عثر لديها على التقدير والاحترام والترحيب والاهتمام الذي لم يجده في أي مكان، ولم يلحظ مرة أنها انزعجت من يديه المتسختين أو ملابسه غير المهندمة. كما أنها لم تتأخر لحظة عن تلبية ما يحتاجه قبل أن يذكره.. الماء الساخن. الطعام الجيد. الفراش النظيف. الأضواء الخافتة والموسيقى الناعمة ولم يشعر بأن عمرها الذي يزيد على عمره بثلاث سنوات له تأثير سلبي على علاقتهما العاطفية والجنسية – على العكس – تراجع عمرها النفسي، وأضاء وجهها ورنت ضحكتها

وانطلق لسانها يشرح ويعبر، ويمكن أن يقول النكتة أحياناً. وربما لأول مرة أصبحت تهتم بالحديقة والزهور.. حمد الله وحمدته على هذا التوفيق العبقري لقلبين تائهين في سوق الدنيا المتسعة والمتشابكة التي تملؤها العقد وتسد منافذها الأفكار السوداء.

اهتم بها يحيى واصطحبها في السيارة إلى الحدائق والأماكن الأثرية والمطاعم التي يتحمل أسعارها، وإلى المصايف فتضاعفت سعادتها لأنها خرجت من الجحر المظلم. لكن ذلك كله لم يمنعها من التفكير في أن يكون هناك عمل آخر ليحيى بدلاً من التاكسي. عمل كبير يدر عليه دخلاً طيبا ويكون ذا مظهر أفضل يليق بهما. خاصة أنهما اتفقا على إخفاء طبيعة عمله الحقيقي. عن أختيها.. فتحت الموضوع مع عين الحياة فقالت لها:

- كيف نوزع الميراث في غياب سراج؟ ومن منا الذي سيزرع الأرض؟ وليس منا من يحتاجها الآن على الأقل لا أنا ولا أنت ولا صافيناز. يكون أشرف لنا ألا نفتح الحديث في الموضوع إلا بعد ظهور سراج.

وسراج لم يظهر رغم ما بذلوه جميعا من جهود، سواء بالنشر في الصحافة أو كتابة المذكرات والشكاوى لوزير الخارجية وعشرات المكالمات مع السفارة المصرية في باريس، الكل يقول: نواصل البحث.

انشغلت عن سراج بيحيى، والعمل الذي تفكر له فيه، والصورة التي يجب أن يكون عليها كزوج لحفيدة الباشا وساكن الفيلا وصهر سراج بك والمنتج السينمائي والملحق العسكري ووكلاء الوزارة ومناصب أخرى لأقاربها لا تكاد تعرفها. وأهم من هذا أنه أبو ابنها الذي يملأ الآن بطنها.

يحيى يأسف لأن الثراء الذي سعى إليه ثراء مع وقف التنفيذ، كالذي يملك ورقة بمليون جنيه لا تصرف إلا وهو في المعاش، ولا يضمن إن كان سيلحقها أم لا، لكنه في نظر الناس من المليونيرات.

كان عليهما أن يجوسا خلال نفس الدرب المتلابس، ويتعجلا نتائجه حتى لا يعود سراج فيتحفظ لأي سبب على هذه الزيجة التي يرضى عنها أطرافها.

عندما وصل إلى البيت في يوم الجنيهات الخمسة، كان قد عزم على أن يبيع السيارة إذا لم يجد في جعبة نرجس

وسيلة للتصرف في بعض ما تملك. صارحها بنيته. سألته عن البديل:

- سأفتح محلات لبيع قطع غيار السيارات:

كان قد بلغه قبل ليلتين أن محلا كبيرا في شارع بديعة معروض للإيجار.. ناقشته لحظات. اقتنعت بأن المحل أفضل من السيارة الأجرة. طلب منها خمسة آلاف جنيه ليربط صاحبه. قبل أن يخرج قالت له:

- ليتك ترجع مبكرا حتى نحتفل.

- لابد نحتفل بالمحل.

- لا. بالأهم؟

- ما الأهم؟!

- فكر.

زاغت نظراته هنا وهناك باحثًا عن الأهم. أشفقت عليه من الحيرة وأشارت إلى بطنها. أضاءت ملامحه وصاح منتشيا وهو يحتضنها ويرفعها ويدور بها.

- الله عليك يا صحبة الأخبار الحلوة.. هيا معي.. سنحتفل خارج البيت.

- ادفع الفلوس الأول.

- سندفعها معا وننطلق بعدها للسهر.

كان يخامره إحساس بأنها ربما تكون قد جاوزت سن الإنجاب.

.. ولذلك كان مهيأ للحرمان من الإنجاب حتى يعبر جسر الفقر ولما تتحسن الأحوال يصبح من حقه أن يتمنى الذرية.. لم يكن متلهفًا على أن يرى أبناءه... كان مشغولاً بهدف كبير تختفي إلى جانبه الآمال الصغيرة وكان من حظ نرجس أنه كان في دنيا ثانية بعيدا عن التفاهات والشهوات الصغيرة التي تستدرج أمثاله. كان راقيا رغم أنفه. مترفعا عن الدنايا والنزق الذي يستمتع به أقرانه وأصدقاؤه القدامى.

صارحها بأنه اتفق مع تاجر قطع الغيار على أن يزوده بالبضاعة، وعندما يبيع يسدد له، وطلب منها أن تسمح له باستغلال الأرض المسورة بالطريق الصحراوي كمخزن لقطع الغيار المستعملة لأنه سيتاجر في النوعين لتلبية احتياجات الجميع.. ويزيد عدد العملاء، فيتسع الرزق، وطلب منها أن تلد له كل ستة شهور لأنه يريد دستة من الأولاد على الأقل.

(١٧)

قال ملاك لعلي:

- تصور.. نسيت أنك خريج فلسفة.
- غريبة.. وما الذي فكرك؟
- ماجدة.
- والمناسبة.
- تريدك أن تشرح لها.. لا تجد صعوبة إلا في العربي والفلسفة. رضيت عن مدرس العربي، ولم يعجبها مدرس الفلسفة.
- بكل سرور.. ماجدة أختي.
- وقتك.. لا نريد أن نزعجك.
- وقت أن تحب أنا جاهز.
- الامتحان بعد شهر.
- فقط.
- ما رأيك أن تذهب الآن؟.. هيا اذهب إليها.
- سامحني.. أفضل أن يكون الدرس عند أختي.. أنا أشرح لنور وهي زميلتها.

- عظيم.. يعني في نفس البيت.

* * *

.. نزلت نور، ودعت ماجدة لدرس الفلسفة. كان أبوها قد أخبرها أن علي سيشرح لها يومين في الأسبوع بدءا من اليوم التالي:

قال علي:

- هذه الحصة نعتبرها تجربة، إذا فهمت شيئًا من كلامي أو أمكنك استيعاب الدرس، يمكن أن نستمر، وإذا لم يحدث شيء من هذا فلابد من البحث عن مدرس ممارس للمهنة حتى يساعدك في تحقيق فهم جيد للفلسفة، تستطيعين معه الحصول على أعلى الدرجات، وبالمناسبة مادة الفلسفة لا يصلح لها الفهم المتوسط.. إما الفهم الجيد جدا أو عدم الفهم.

في نهاية الدرس سألها عن رأيها، قالت:

- شرحك أفضل من شرح أستاذ المدرسة وأستاذ الدرس الخصوصي.

- أشكرك.

- أنا أحس أن المدرس موظف يؤدي عمله، إذا أداه، أما أنت فتشرح بمزاج، لأنك فيما يبدو تحب الفلسفة.

- جدا.

- أشكرك يا علي أم أقول يا أستاذ علي.

- أنا علي فقط..

التفتت إلى أخته:

- سلام يا نور.

- سلام يا ماجدة.

رافقها علي حتى الباب، وقبل أن يفتحه قال لها:

- أرجو أن تشجعي الوالد على زيارة والدتك.. أنت.. بالذات لا تتخلى عنها.. لابد أن تحرصي على زيارتها.. خذي لها قطعة شيكولاته. كيلو فاكهة. ملابس جديدة. شبشب. توكة شعر. منديل للرأس. أو حتى وردة.. أي شيء. امكثي معها ساعة أو ساعتين. زيارتك لها تقرب موعد شفائها.. أنت ابنتها. والبنت مصدر الحنان والحب للوالدين. عند زيارتها، سرحي شعرها أو اعرضي عليها خياطة ثوبها أو سرد بعض الأخبار. اربطيها بالدنيا.

تنهدت ماجدة:

- في كل زيارة أجدها أسوأ.

- وستكون أسوأ طالما نسيها أهلها.

- بدأت أحس أن زيارتها بلا داعٍ.

- لا.. لا.. إنها تحتاج إليكما.. ومستعد لمرافقتك إذا لم يجد والدك الوقت الكافي.

- أشعر أنها لم تعد بحاجة لأحد.

- على العكس.. هي في حاجة إلى حبكم وأسفكم لما جرى لها.

- إنها لا تحس بنا عند زيارتها.

- يهيأ لك.

- صدقني.

- إذا كان النبات والحيوان يحس.. ألا يحس الإنسان حتى لو نقصت بعض قدراته أو ضمرت بعض أعضائه بسبب عدم التفاهم والانسجام.

- واضح أنك تعرف مشكلة ماما.

- طبعا.. ربما أنا الوحيد الذي فضفض له أبوك، وفهمت أنهما لم يتفقا معا على شيء لأن الطبيعتين مختلفتين.. أبوك يؤمن بالروح وهي لا تؤمن إلا بالمادة، هو

يرضى وهي تطمح دائما إلى مستويات أعلى. هو يبحث عن الإنسان والجوهر، وهي تبحث عن المظهر.

- والحل؟

- لقد نقلت إلى المستشفى والحل يكمن فقط في رعايتها.. المطلوب لهذه السيدة المسكينة.. أن تشعر بالحنان وأن نخلق لها أسباب للفرح. هدية. خبر. زيارة. خدمة، وأنت الوحيدة المؤهلة لهذا الدور وهي لن تنتظر إلا منك، لأنها فقدت الأمل في الوالد تقريبا.

- أخاف منها.

- ترمينها وهي التي عانت لتتمتعي بالحياة.

- أتمنى أن يفيدها سؤالي عنها.

- لمسات الحنان تعالج المريض والعاصي.. الحصان الهائج يهدأ إذا عامله صاحبه برقة وصبر وكذلك الكلب والقطة.. أنا آسف للأمثلة.

قبل أن تستدير وتنصرف، ابتسمت له بود وصبت في عينيه نظرات يختلط فيها الأسى بالشكر والإعجاب.

هبطت الدرجات إلى شقتها وعلي في رأسها.. بدا لها بعقله ولغته وثقافته وإحساسه ناضجا جدا. حدثت نفسها: من

في سنه يملئون الشوارع ويستعرضون تفاهاتهم وسوء أخلاقهم.. جلس بشكل محترم وشرح بطريقة جذابة لا تدعو للمال.. فهمت أهم مبحث من مباحث الفلسفة. مبحث القيم.. كانت أقسامه الحق والخير والجمال تختلط.. الأمثلة التي ضربها وفسرها هي التي مكنتني من الفهم.

مضت تتذكر كل تاريخه معها.. منذ وعت للدنيا وهي تراه مع أبيها، وكلما ذهبت إلى المكتبة وجدته، وكان يصحبها إلى نجاة ونرمين وغيرهما.. ومرات إلى أتوبيس الرحلات وكثيرا ما وجدته يبيع بدلاً من أبيها، في حين كان أخوها مجيد يرفض رفضا قاطعا أن يقترب من المكتبة.

لم تنتبه إلى الوقت الطويل الذي فر بسرعة وهي تستعيد وتتأمل ملامحه.. من شعره إلى أصابع يديه مرورا بلون عينيه وحركة شفتيه.

لم تستطع أن تتجاهل إعجابها بشكله وعوده الرشيق وأناقته ولباقته.. نموذج رائع للشاب.. تنهدت وقالت من قلبها: ربنا يحرسه.

* * *

طويلاً كان.. الدرس الأخير الذي سبق الامتحان.. كان ممتلئًا وشاملاً ومركزا وكانت ماجدة مصغية تماما وكذلك نور. لا شيء يشغلهما إلا أن يستجمعا أكبر قدر من شرح علي.

لم تكن عيناه تغيبان طويلاً عن عيني ماجدة الخضراوين الواسعتين، وكان بإمكان عينيه أن تمرا على ملامحها الدقيقة الناعمة في نظرات خاطفة.. لسانه في طريقه الجاد كقطار يمضي بقوة واندفاع ناحية المحطة الأخيرة. العقل يستحضر ويحلل ويقدم الأمثلة. يجتهد في البحث عن الجمل البسيطة التي تقرب المعاني العميقة والبعيدة والأفكار المعقدة.

لما انتهى. وقفت لتودعه وتشكره.. فردت عودها الرشيق. مد لها يده، ومدت لأول مرة يدها، حطتها في كفه. حمامة صغيرة طرية لا تستطيع الطيران في عش كبير دافئ. ضغط عليها بحنان وصوب نظراته إلى عينيها الساحرتين. كان مبهورا بهما للغاية.

قال: خلاص.. انتهى الدرس.

ابتسمت ابتسامة حيية وقالت:

- انتهى يا علي.
- أنا في حاجة إلى أن يرضى عني والدك.
- والدي سعيد بك.
- درجاتك في الفلسفة بالذات ترفع من قدري.
- اطمئن يا علي.

حامت في أعماقه لحظة فرح وهي تنطق اسمه. هذه المرة بالذات، كان نطق اسمه مختلفًا.. فمها الصغير ينثر الكلمات برقة، فتأخذ على شفتيها وفي نبرة صوتها العذب طعما آخر.

تشجع وقال:

- سأراكِ مرة أخرى.

أحنت رأسها قليلاً وقالت:

- نحن جيران.. سعيدة.

سكت لحظة ثم قال لها من قلبه:

- دائما.. سعيدة.

في الطريق إلى بيته صاحب طيفها وسأله عن أحوال قلبه، فاحتار بماذا يجيب.. لكنه قال ما يكشف عن قلقه من هذه المشاعر التي تجتاحه، ويدهش لها.. كيف هكذا يبدو

محاصرا بها وبطيفها وذكراها وملامحها.. كيف به يبدو محاطًا بورودها وأشجارها وعبق شذاها.. لابد أن يقاوم الأمور.. من الناحية الاجتماعية لا تستقيم.. لو مضى هذا الحب في طريقه إذا جاز أن نسميه كذلك فإلى أي شيء ينتهي.. حاول كثيرا أن يدعو النفس إلى نسيان الموضوع كله واعتباره مجرد صداقة، بل أقل من ذلك بكثير، هي ابنة صديق فحسب.. وصديقة أخته فقط.. وجارة لها.. الدين.. حاجز ضخم وصلد وأصعب من أن يخترق، ثم لماذا يخترق.. وهل انعدمت البنات المسلمات؟!.. يجب أن ننزع أنفسنا بقوة من استدراج الحب ولا يتعين أن نجلس برضانا على القمة المنحدرة.. إن ذلك سوف يتسبب في تعاسة المحيطين.. سوف أقاوم، وسوف أبتعد وأبعدها عني بملامحها الجميلة الفاتنة، وعبيرها الأثير وتأثير عينيها، وجاذبية وجهها دقيق المعالم، وطيبتها ورقة طبعها، سوف أقاوم ذلك الحنان المنساب في عينيها.. سوف أقاوم.. نعم.. سوف أقاوم.

عندما بلغ بيته، تنبه إلى أن قلبه يدق بقوة واحتدام، وأنه يرتعد كأنه قوة جبارة ترتطم بقيعان أعماق. حاول أن

يجلس. أن يفعل أي شيء.. مد يده إلى المكتبة، فكر أن يستأنف مطالعة الديوان الذي كان يقرأ فيه منذ يومين وبه مجموعة من الأشعار اليونانية والرومانية كانت الصفحة مطوية عند قصيدة لسافو.. قرأها وما بعدها وقرأ قصيدة لأناكريون بعنوان "إلى إيروس":

إنني أريد.. أريد أن أحب.
ولقد زين لي الحب (إيروس) أن أحب.
فأبيت من جهلي أن أصغي إليه.
فقبض من فوره على قوس من ذهب.
ودعاني إلى القتال، فقررت أن ألبس له الحديد.
أمسكت بالرمح والدروع.
ونهضت كأنني أخيل.
أنازل الحب (إيروس) فسدد لي سهاما بعد سهام.
وكنت أحيد عنها فتطيش، ولما نفدت سهامه.
تقدمت إلي يتقد غضبا فأمسكني بقوة.
حتى كاد يحرق بدني، وهجم علي
وسرعان ما نفذ إلى قلبي، وانهزمت
يالها من حماقة أن أتقي بدروع!

أي سلاح خارجي ينتصر على الحب
إذا كانت المعركة قائمة داخل نفسك

كان يقرأ القصائد بلا عناية.. نظرات تتساقط فوق السطور وتنتقل بين الكلمات دون أن تأبه لمعانيها. ثم اكتشف – ربما من وطيس المعركة التي اشتملت عليها قصيدة كربون – أن القصيدة بها ما يستحق أن يتوقف عنده، وحينئذ أسقط في يده، وعاد يقرأ من جديد بذائقة جديدة.

(١٨)

هل تذكرين المبنى المهجور الذي أشرت لك عليه في إحدى المرات ونحن نمر بشارع العبيط. يجهل الناس قدره ويسمونه "الخرابة". لقد بدأت منذ شهور رحلة البحث عن حقيقته، فهو ليس قصرا عاديا أو مجرد مبنى كبير مهدم وهجره أهله.. سيطر علي إحساس أنني سأصل إلى شيء، ولو لم أصل إلى معلومات معينة، فسوف أصل إلى.. إلى ذاتي.. والبحث – كما أظنك تعلمين – هو الكشف عن إنجاز البشر التي أخفاها أو تجاهلها بشر، وأكمل الزمان المهمة.

اكتشفت يا ست الملاح أن هذا المبنى المهجور هو في الحقيقة كان قصرا بناه وزير شهير اسمه نور الدين من وزراء قلاوون.. ولابد أنك لاحظت حالته الآن، وبعض غرفه مهدمة وكذلك جانبا كبيرا من سوره، لكن الذي لا تعرفينه أن عمك حنفي العربجي يقيم فيه هو وحماره. والحمار يصب بوله على جدرانه كل يوم حتى دمره، ومكان الجزء المتهدم من السور يجلس سمكري بوابير وباعة الملابس القديمة، وبائعو أحذية قديمة وشباشب، وزوجة حنفي

تبيع الدواجن وتذبحها في دلو، وتغسلها في دلو آخر وترمي كل ذلك في سفح الحيطان وعلى الأعمدة، فتطير الروائح الكريهة إلى كل مكان وتجد الحشرات والديدان مرتعها الخصيب وحضنها الدافئ. وسرعان ما تتبعها القطط والكلاب والبوم والثعابين وسبقتها الوطاويط والفئران والعرس.

لابد أن سمعت عن حدوث عدة جرائم قتل بها.. نساء مخنوقات ورجال تقطعت أجسادهم، منهم من ينتمي للحي ومنهم غرباء، أما الغرف العلوية التي تتزين جدرانها بأبيات من شعر الغزل حولها النقش المحفور والزجاج الملون والمشربيات والنجف، والسقوف العالية تتدلى منها في الأركان مشكاوات فيها مصابيح تضاء بالزيت فإنها مسكونة بالمتشردين دائما، والعشاق مؤقتًا الذين يمارسون الجنس واللواط، ومنهم من يتخذها أماكن مستورة لإخفاء المخدرات والمهربات.

تصوري يا منيتي ومرادي أن هذا القصر بناه صاحبه الوزير لحبيبته التي هام بها غراما وهي امرأة من الشعب.. من حينا هذا.. استدعى أعظم الفنانين في عصره

في العمارة والزخرفة والبناء والطلاء، ليقيموا لها وسط منطقتها وبين أهلها قصرا منيفًا رائعا على مساحة ألفي متر، قضوا خمس سنوات قبل الانتهاء منه في عمل دائب، وكان هديته لها لتعيش فيه ولم تدخله إلا بعد أن أحاطه بأشجار الورد والياسمين، بالإضافة إلى الأشجار العالية كالكافور والسرو وكذلك أشجار الجهنمية ومن الداخل أشجار الفاكهة من التين والجوافة إلى المشمش والتوت والبرقوق والبرتقال.

وقد عثرت على بعض الأوصاف للحبيبة التي خلبت لب الوزير، فوجدت أنها تستحق القصر، كما أني أحسست أن الكاتب الذي يصفها، إنما يصفك أنت فهل أنت التي كانت تسكن القصر المهيب، وعدت إلينا الآن لتأسري القلوب وتديري الرءوس، وبالمناسبة غير مسموح لك أن تأسري أي قلب إلا قلبي، ولا تديري أي رأس إلا رأسي.

قال الكاتب، لقد أراد الوزير نور الدين أن تشعر وهي بين أهلها تسكن القصر العالي أنها نالت التقدير اللائق بجمالها وأدبها، ولما سكنته قضت الشهور وهي تتأمل كل قطعة فيه، فقد كان تحفة معمارية.

أرأيت يا عذراء الربيع، كيف ألجأه الحب إلى الفن.. عندما أراد أن يعبر لها عن تقديره، كان يمكن أن يرمي الذهب تحت قدميها، لكن ذلك تعبير فج، وقد فعل ما يفعل العاشق عندما يتعلم الشعر خصيصا ليكتبه للحبيبة، لأن الكلام العادي سيكون عاما وليس خاصا، وهو يريده وردة مثقلة بالحب والجمال وعلى وريقاتها تنهيدة بشتها أعماق المحب.

أرأيت ما يتعرض له الجمال والفن والتاريخ على يد الدهماء والجهلاء التعساء بينما رجال الحكومة ينتشرون في كل مكان ويجوسون في كل الطرق. ألا تدمي القلوب رؤية هذا المنظر؟!

إنني – يا فتاتي – أجتهد في البحث والاطّلاع للعثور على مزيد من المعلومات عن هذا القصر، حتى أسلمها مكتملة لهيئة الآثار لكي تنقذه من الإهانة والوحشية، وسوف يكون انتصاري في هذه المعركة تحية بسيطة أعبر بها عن بعض ما يملأ جوانحي من شعور نحوك أيتها الجميلة الغالية.

وعذرا لأنني لا أستطيع أن أتذكر اسم ذلك الشاعر الذي أحس بحالي قبل ألف عام وقال:

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقى
وللحب ما قد ذاب مني وما بقى
وما أنا ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر جفونك يعشق

(١٩)

في محل موافي العجلاتي افتتح حافظ شارودة الجلسة بعدة نكات – أعقبه شبراوي الديب بحفنة أخبار، وعزف رضوان الذي انضم حديثًا بعض الألحان المشهورة. وانسجم عشاق السهر والسمر في حضن الليل.. ورحب الجميع بيحيى وقد تعودوا أن ينادوه بعد زواجه من نرجس بالباشا، لأنه ناسب الباشوات.. ارتفع نسبيا إيقاع الجلسة واحتدم النقاش. كلمة من هنا وكلمة من هناك، تشكلت على ألسنتهم بعض ملامح الواقع الجاري في الحي.

نط شبراوي فجأة وهو يبعد فم الشيشة عن شفتيه ويقول:

- هل علمتم ما جرى؟
- ماذا جرى؟
- شبل اللبودي وكّل محامٍ كبير ليدافع عن ابنه ضابط الشرطة.
- هشام رئيس المباحث مقبوض عليه؟!

- عذب ثلاثة من سياس السيارات. مزق أجسامهم بالسوط.

قال جمعة: ما هذا الكلام؟.. أنت أكيد شارب.

ضحك الجميع.. لكن الشبراوي مضى يحكي عن سرقة المرسيدس التي انتشرت في المهندسين والعجوزة، وفشل هشام في وقف نزيف المرسيدس.. أعلنها صريحة: إن التحري لا فائدة منه.

قام بإحضار السياس.. واحدا بعد واحد، ونزل عليهم بالكرابيج.. المساكين لم يعرفوا اللصوص.. أقسموا على ذلك، وظل ابن اللبودي يضرب فيهم ثلاثة أيام هو ورجاله، حتى بلغ الخبر أحد الصحفيين. كتب عن الحادث وأثار الرأي العام.. فتأكدت الواقعة وأحالوه للتحقيق.

قال جمعة: وعم شبل.

رد الشبراوي: عم شبل كان دائما ضد ابنه وغير راضٍ عن تصرفاته.

قال موافي: لكن ابنه.

وسأل حافظ: والسياس.

قال الشبراوي: في المستشفى فاقدين النطق وبين الحياة والموت، ولما سألوا هشام قال: الوزير كان مستعجلاً لأنها سيارات ناس مهمة.. ولا وقت للتحري والحكاية لا تستاهل قضية.. مجرد جروح بسيطة. هذا كلامه.

قال حافظ: استر علينا يا رب من بلاوي الشرطة.. غيروا يا جماعة.. سمعنا يا جمعة.. خلينا ننسى.. غير يا ابني الحجر.

بدأ دور الغناء ونجمه الأوحد جمعة يصاحبه رضوان بعوده الشجي. في عز الانسجام، والشيشة تلف وتصادق بين الرءوس والأمزجة.. تتعالى الأنفاس، والأدخنة تلون المكان وتوحده وتسقفه.. مال حافظ ودس لسانه في أذن جمعة وأغرقه في طوفان دخانه وقال:

- بيتي محتاج هنية يا عم جمعة. سرير وطبلية والخير موجود.

أمسك جمعة فم الشيشة الذي كان يوشك أن يضعه في فمه، وتوقف لحظة فقد تكلم حافظ في موضوعات خارج الاتفاق.

- نبيل هو المشكلة.

ظن جمعة أن حافظًا سيسكت إذا علم أن الجميع يعمل ألف حساب لنبيل، مع أنه عاطل، لكن حافظًا قال بعد أن مسح شاربه الرفيع جدا، وعوج فمه حتى ينصب الكلام في أذن جمعة ولا يتبعثر هنا وهناك:

- لا تشغل بالك. خليه علي.

دهش جمعة. حسب أن الموضوع انتهى وسد فم حافظ لشهور قادمة.

- لم أفهم.

- نبيل. حله عندي.

- كيف؟

- جهز العروسة والباقي علي.

بعد أيام كان حافظ يقود أتوبيس مدرسة النديم ولمح نبيل يسير في شارع بديعة. ناداه. دخل في الموضوع مباشرة.

- تحب تسافر؟.. فيه تأشيرات للسعودية.

فوجئ نبيل واحتار، إنه بالفعل يريد السفر، يكاد السفر أن يكون الحل الوحيد لمشكلته، وفي الوقت ذاته

لا يرتاح إلى كل من يعرفهم أخوه، ومع ذلك قال له بنصف تعالٍ وهو يتأهب للذهاب:

- أفكر.

قال حافظ:

- إذا فكرت مر علي في المدرسة بالنهار وعند موافي العجلاتي بالليل.

لم يكن نبيل محتاجا للحظة واحدة للتفكير، وكيف يفكر وهو جائع، وأمامه دجاجة ولو مسلوقة، وكيف يفكر أن يرفض حتى لو كانت الدجاجة مجرد عرض.

في صباح اليوم التالي ارتدى نبيل أفضل ملابسه ونزل درجات السلم.

- يا أستاذ فتحي يا دمنهوري.

كان ساعي البريد ينادي ساكن الدور الأول ويدق بابه، قال نبيل:

- لا يوجد بالشقة أحد منذ عدة أيام.

جواب لوالدته. تتسلمه؟

- أتسلمه.

كان المرسِل ابنها الدكتور رمزي الدمنهوري، مستشار الرئيس الأمريكي بوش لشئون التعليم. تذكر أن فتحي طرد أمه منذ شهور، وذهبت إلى ابنتها في المنيل وبقيت عندها أسبوعين وعادت إلى فتحي فطردها من جديد، ذهبت إلى ابنتها الثانية في شبرا الخيمة. بقيت شهرا ثم عادت إلى فتحي فطردها من جديد.. اختفت شهرا، لا أحد يعلم أين كانت، إلى أن ظهرت منذ أيام في "الخرابة".

قرأ المكتوب على المظروف:

إلى أخي الغالي الأستاذ فتحي الدمنهوري، ومنه إلى أمنا الحبيبة.

- أمنا الحبيبة في الخرابة.

ذهب إليها. وجدها في ركن تحت شجرة، تحك ظهرها في جذعها وتقاب في جلباب قديم.

دنا منها وسلمها الخطاب، سألته عن المرسل. أخبرها أنه من طرف ولدها د. رمزي. سالت من منابعها دموع ساخنة.. لحظات ونبيل يربت على كتفها إلى أن سالت دموعه. طلبت إليه أن يقرأ لها الخطاب. تذكر موعده مع حافظ. رأى من الأفضل أن يقرأ الخطاب.. نظر حواليه

بحثًا عن شيء يجلس عليه. وجد دلوا قلبه وقعد فوقه برفق وحذر. تحمله الدلو البلاستيك.. شرع يقرأ.

أمي الغالية.

منبع الحنان والحب.. الأرض التي لا غنى عنها.. الوطن الأول.. أبدأ خطابي بتقبيل يديك الطاهرتين وقدميك ورأسك الشريف، وأطلب عفوك لتأخري في الكتابة إليك، فالمشاغل كثيرة وقد أرسلت عدة خطابات لفتحي فلم يرد.. لعل المانع خير. هذه هي ثاني مرة أكتب لك مباشرة، أملي أن تكون بخير.. إنك النور الذي أمشي على هداه ويسبقني على الطريق.. أنا لا أنسى حماسك وكلماتك المشجعة لنا جميعا وتفاؤلك بنا، وقولك إنني فخورة بكم، وأثق أن الله سيرضيني فيكم ويسعدني بكم. يا نور عيوني. ما أحلى كلامك المحفور في قلبي.. كثيرا ما أحكي لزملائي في الجامعة، عنك وعن كلامك فيدهشوا حين يعلموا أنك لا تعرفين القراءة حتى الرئيس بوش حدثته عنك فطلب مني أن أذكره بعيد ميلادك ليبعث إليك مع السفير باقة ورد.

هل أعجبتك صوري وأنا أتسلم جائزة الأمم المتحدة. لقد أرسلتها لك في الرسالة السابقة. لابد أنك فرحت. وهل

رأيت صورتي مع الملكة إليزابيث. لقد دعتني لزيارتها في العام الماضي وكذلك الإمبراطور أوكهيتو دعاني لإلقاء محاضرتين في اليابان ومثله الرئيس الصيني دنج زياوبنج.. تمنياتي لك بكل سعادة وصحة، أما عني فكل الأمور بخير. وقد وصلتني عدة دعوات من مصر. من وزارة التعليم ومن رؤساء عدد من الجامعات والهيئات والصحف.. سوف أرتب مواعيدي لأحضر إلى مصر،.. هدفي الأول رؤيتك.. دمت لولدك المحب.

حاول نبيل أن يقرأ بسرعة، لكنها كانت تطلب إليه التمهل والإعادة وتفسير بعض الكلمات.. الساحالي تمر، والشمس ترتفع وتصب نارها على ظهره الذي لم يكن تحت الشجرة، والذباب تجمع كله فوقه، والروائح القذرة لا تسمح له أن يأخذه شهيقًا أبدا، وبعد أن أوشك على الوقوع مغشيا عليه، استأذن من السيدة إنصاف أم رمزي كي يذهب واعدا إياها بأن يعود لزيارتها.. لم تلتفت إلى كلماته الأخيرة وإشفاقه على نفسه وعليها، فقد انهمكت في تقبيل الخطاب ولثم كل كلمة فيه وريها بالدموع، بدت كأنها تلحس الحلوى التي كانت على الورق.

توجه إلى حافظ. وجده عند شكورة أمام المدرسة يأكل الفول المدمس بالزيت الحار والبصل والخبز المحمص الذي يقرقش في أسنانه.

رحب به حافظ ودعاه للفطور. رفض نبيل بتأفف من جميع الواقفين المنهمكين في الأكل.. عشرة أفراد يتكدسون حول العربة الخشبية بينهم صاحبها، يعمل بمنتهى المهارة في تجهيز الأطباق وتموينها وتقديمها لطالبيها حسب مزاج كل منهم الذي يعرفه، منهم من يحب السلاطة على الفول، ومنهم لا يحبه إلا غارقًا في الشطة، ومنهم من يريده بالطحينة، ومنهم من يريده بالسمن، ومنهم من يريده بالزيت العادي والليمون، ومنهم من يأكله في السندوتشات.. كل الأفواه تعمل والأيدي تسبقها وتجهز اللقم وتتناولها الأسنان.. الضروس تعمل والعيون لا تنظر إلا إلى الأطباق، ومن ينتهي من طعامه يتراجع إلى الصدارة ليدخل غيره، وهكذا من السادسة صباحا حتى العاشرة.. يتوالى عشرات الراغبين في فطور ثقيل يعينهم على أعمالهم حتى الثالثة عصرا. وكل هذا يجري في الشارع وتراه كل العيون العابرة.

ذهب نبيل مع حافظ إلى أخيه سلطان في الحمام الذي يملكه ويديره في الجمالية والشهير بحمام سلطان. اتصل من مكتبه بشخص اسمه أمين شطارة. أخبره أن أحب أصـدقائه سيكون عنده بعد ساعة اسمه نبيل الفار دارس عالٍ ويريـد السفر، ولابد أن يكون في أول الكشف.

كتب سلطان عنوان شطارة وأعطاه لنبيل. رحب به شطارة وقال:

- سلطان رجل وخيره علي. الشخص الذي يرسـل التأشيرات يطلب خمسة آلاف للتأشيرة، يكفي من أجل عيون سلطان أن تدفع ثلاثة ونصف ثمن التـذكرة والمصـروفات الإدارية.

في هذا اليوم كانت هنية قد قررت أن تلبس وتتـزين وتنزل إلى الشارع تتمشى. تخلص نفسها من الحبسـة التـي تمسك برقبتها وتقبض على روحها. كانت تفكر في الرجـال الأنذال الذين لم يعد في عيونهم نظر ولا فـي عـروقهم دم ولا في رءوسهم عقول، ثم عادت وقالت: إنها بـين أربعـة جدران لا ترى أحدا ولا يراها أحد، كيف يتسـنى لهـم أن يعرفوها ويحكموا ويتقدموا!!.. إذن عليها أن تأخـذ زمـام

المبادرة.. سوف تخرج على الأقل مرتين في الأسبوع حتى لا تكون لهم حجة، وبينها وبين نفسها كانت لديها الأدلة على أن بنات كثيرات تزوجن وهن لا ينظرن حتى من الشبابيك.

في هذا اليوم الذي خرجت فيه ولم تحظ حتى بالمعاكسات المجانية ولو من عيال حفاة متشردين.. في هذا اليوم عاد إليها نبيل عند الظهيرة وقال لها:

- حافظ شارودة يطلبك. ما رأيك؟

قالت على الفور:

- المهم رأيك.

قال نبيل وهو يدخل غرفته مختبئًا:

- حافظ فيما يبدو ابن حلال.

خضعت هنية طوال أسبوع لعمليات تدليك في الحمام، وتدليك في البيت، وقبل يوم الخطوبة قامت أمها بالواجب فعملت فيها عدة ساعات، دققت كما لم تدقق من قبل في امرأة، حتى اشتكى جسمها نفسه، كل من لا يعرف أهمية أصحاب هذه المهن وحتمية وجودهم في الحياة، لابد عرفوا بعد أن رأوا هنية بعد التعديل. عروسة حقا، بدت ملامحها جميلة وبيضاء وناعمة، ومن رآها لأول مرة مثل خالة حافظ

ذات التأثير، وبعض المدعوين تأكدوا أنها جميلة من الأصل وأن حالتها ليست كلها من إنتاج فنيين، والفضل ليس كله للتسريحة أو الألوان، فلن تستطيع الماشطة أن تخلق كل الجمال.. لكنها فعلت والبعض لا يعرف، وقد كان هناك بعض الفضل للكوافير خاصة بالنسبة للشعر.

كانت السعادة تشمل جميع أهل الدار حتى اللحظات قبل الأخيرة، عندما وصل الخبر إليه بأن أخاه سلطان قبض عليه، وهو متلبس باستلام شحنة مخدر من نوع ريهبانول المشهور باسم "أبو صليبة".

جرى حافظ على فتحي المحامي ابن الشيخ إبراهيم.. المشهور بقدرته على أن يخرج الجمل من ثقب الإبرة.

تشاءم حافظ لكنه كان على قناعة أنها صدفة، وأن هنية كانت أجمل مما تصورها ورآها مرتين.. عليه ألا يفكر الآن إلا في أخيه الذي سيساعده في تجهيز الشقة.

(٢٠)

لقد عثرت بك على وجودي الذي لم يكن له وجود.. كنت شيئًا موزعا هنا وهناك.. أمضي في اللا مكان.. لم أكن أراني، والآن أرى وجهي أمامي بلا مرآة ودون أن أتطلع إلى صفحة المياه.

أنت لم تشهدي من قبل تلك الصحراوات التي تمتد داخل أعماقي لأنك عندما نظرت إلي، تراجعت فجأة تلك الصحراوات وتلاشت تدريجيا تحت نقرات الاخضرار البديع الذي تسقط عليه لأول مرة أشعة شمس الحياة.

تعالي والمسي بهمس روحك الناعمة تلك القطيفة المورقة في وديان قلبي، أنصتي لجلال أغنياتها التي تنشدها لروعة الخلق والخالق، جرى جرى على الأرض ثوبك الطويل المضمخ بالحب، ودعيه يزرع قفر القلوب حنانًا وجمالاً وحبا نقيا خالصا من أدران الامتلاك، مترفعا عن الأفكار المتعفنة السقيمة.

تستطيع الإنسانية أن تنعم بالهدوء والسلام وهي تتمشى بين زهور الحب فلن ترعى الأفاعي في مثل هذه

المراعي، وسوف تتسلل الطمأنينة إلى الأفئدة التي طالما ساورها القلق لأنها كانت تسكن في سفوح الكون الصخرية. تحيط بها أنياب الكراهية وتزمجر حولها ذئاب الأنانية والجشع.

عندما تبتسم زهور المحبة ويطير عبقها هفهافًا شفافًا فرحا يرقص فوق الرءوس ويمسح الجباه، تختفي كل وساوس الرعب والخوف من المجهول والمعلوم. المحبة كفيلة أن تكنس أدران العالم جميعها من داخل الأرواح ومن الطرقات والأركان والدروب المحبطة.

ومع ذلك فأنا لا آمن على حبنا غدر من يتربصون بالجمال في كل مكان، ومن الحماقة ألا أفكر في حمايته بروحي وروحك..

فخذي من قلبي وقلبك لتبني عشا لحبنا.
خذي من أملي وعمري ونور عيوني
خذي من روحي ونفسي وأحلامي
لتبني عش حبنا
إذا لم ننسج قشه من أرواحنا ودمانا
سيكون خرافة، ويكون وهما، ويكون

في متناول أحجار الحاقدين
فخذي من وهج عيونك وأمواج شعرك
واقبسي من نار خديك
لتدفئي عش حبنا، الذي يجمع خلاصة شخصين
هما في الأصل كانا واحدا.
فمنذ بدء الخليقة ولدنا معا.. أنا وأنت

لقد ألقيت حلقات قلبي على أقمار البنات كي تصيد قمرا، فلم تستطع أن تلتقط واحدا منها، وظلت روحي تتسكع في الزمن المجفف.

الآن.. ها هو قمري قادم إليك.. سيتوحد بك.. سوف يقطع آلاف السنين القادمة في دقائق.. إن زمني مختلف. استعدي واضبطي إيقاع قلبك، فعالم جديد خاص بنا، سنخلقه خلقًا، يضمني ويضمك وينغلق علينا ويكون باتساع العالم، نشغل زمانه ونستدفئ إذا الشتاء جاء.. لا تصدقي أحدا إذا قال – ونحن معا – إن الشتاء جاء. صدقي فقط سيد درويش وهو يقول: أنا هويت وانتهيت، فإنه يقصدني.

اكتب هذه الكلمات وأنا في الإسكندرية. قدمت في مهمة وسوف أعود بعد غد.. دائما طيفك معي.. وقد رافقتني

إلى شرفة الفندق المطل على شارع عمودي على البحر متفرع من الكورنيش.. كنت أود أن تكون معي، لكن ذلك بالتأكيد سيتحقق يوما وما أحوجنا إليه.

حبيبتي.. اطمئني فطفل حبك يتراقص في قلبي وأمام عيني.. أقربه إلي وأعانقه بقوة وحنان.. الطفل طري وحي ونابض ومثلك غالٍ جدا.. جدا.. تشع من وجهه بسمة مشرقة.. أداعبه.. أدغدغه.. يضحك الرضيع ويقهقه.

رنت ضحكته وتهادت إلي ببهجة وهناء.. أداعبه وأدغدغه.. يضحك الرضيع ويقهقه.. تتصاعد وتتمدد أصداء ضحكته في كل اتجاه.. الضحكة حملتني في معراج طويل وكبير من الأرض إلى السماء العاشرة.. مررت وأنا طالع على كل من سبقوني في سكة العاشقين.. جميل وقيس وعنترة وأنطونيو وروميو.. كل عتاة الحب الجبارين، قالوا لي: لا يهمك.. تمسك بحبك مهما جرى. الحب إحساس مجنون ورائع، لكنه صنع إلهي مائة في المائة..

(٢١)

التقينا بعد غياب فرضته امتحانات الفصل الأول.. جلسنا على شاطئ النيل أمام قصر المانسترلي.. بادرتني: كنت قد وعدتني أن تحدثني عن بعض أحداث التاريخ المهمة.. أرجو أن تفي بالوعد.

- ما رأيك. أحكي لك عن رحلة العائلة المقدسة إلى مصر.. ربما لا تكون عندك فكرة عنها.

- أنا أعرف أن المسيح والسيدة العذراء جاءا إلى مصر، لكني لا أعرف التفاصيل.

- كل واحد يعيش في مصر، مسلم أو مسيحي لابد أن يعرف شيئًا عن زيارة السيدة العذراء وولدها وخاصة من كانوا مثلنا نعيش في مصر القديمة – وهي من أكثر الأماكن ارتباطًا بالرحلة وأكثرها امتلاء بآثارها.

- وسيدنا إبراهيم جاء أيضا إلى مصر.

- مصر كانت قبلة معظم الأنبياء، كما كانت نقطة تحول في سيرتهم الشخصية والدينية بدءا بإبراهيم، ومرورا بإسحاق ويعقوب وأسباط بني إسرائيل وطبعا موسى وإرميا

إلى المسيح عيسى، ومن الأنبياء من جاءها ميتًا، فيقال: إن بها جسد يوحنا المعمدان إليسع.

- ولا تنس الصالحين.

- الصالحون الذين زاروا مصر لا حصر لعددهم.

- جاءت أم النور إلى مصر هربا من هيرودس.

- كانت مجموعة المجوس وهم علماء فارس المشتغلين بالفلك قد رأوا نجما غير عادي يتألق في السماء، لفت أنظارهم فتتبعوه وعرفوا أنه يشير إلى طفل ولد في بيت لحم، سيكون ملكًا على فلسطين ويصبح في الدنيا ذا شأن عظيم، علم هيرودس ملك فلسطين بالخبر وسأل عن الطفل فلم يدله أحد عليه، ولذاك أمر بقتل كل الأطفال دون السنتين، واحتارت السيدة العذراء ماذا تفعل؟ وكيف تحمي طفلها المقدس الذي تثق ثقة لا شك فيها أنه من تحدث عنه علماء فارس، وإذا بيوسف يرى ملاكًا في الحلم يطلب إليه أن يأخذ الصبي وأمه ويهرب إلى مصر.

- يوسف هذا ليس النبي يوسف طبعا.

- لا.. هذا يوسف النجار خطيب العذراء.

- خطيبها؟

- نعم أصل الحكاية يا ستي أن والديها بقيا واحدا وثلاثين سنة دون إنجاب وظلا يطلبان من الله أن يمن عليهما بولد أو بنت، فلما وهبهما الله البنت، قررا أن تكون من نصيب الرب وقدماها فعلاً وهي في الثالثة إلى بيت الرب لتخدم فيه جاء في القرآن الكريم ﴿فَتَقَبلَها ربها بِقَبولِ حسنٍ وَأنبتَها نَباتًا حسنًا﴾ ، وكانت في بيت الرب في رعاية زكريا.. يقول القرآن ﴿كُلما دخَلَ علَيها زكَريا الْمِحراب وجد عِنْدها رِزقًا قَالَ يا مريم أَنى لَكِ هذَا قَالَتْ هو مِن عِنْدِ اللهِ إِن اللهَ يرزقُ من يشَاء بِغَير حِسابٍ﴾.. وهي في السادسة توفي أبوها وفي سن الثامنة، توفيت أمها، وعندما بلغت الثانية عشرة وهي سن البلوغ للبنات، كان لابد أن تغادر بيت الرب، لكنها كانت يتيمة، لا أهل لها، لذلك رأى الكهنة أن تكون في حماية رجل.

- فخطبها يوسف.

- اصبري.. قبل ذلك سعى الكهنة إلى تسريب خبر في كل المدينة بأن مريم بلغت سن البلوغ وليتقدم إلى البيت من يريد خطبتها من الرجال.. لماذا تبتسمين؟!

- أبدا.. لم يسبق أن استمعت إلى هذه القصة الطريفة.. مالك يا علي. هيا أكمل.

- تقدم عدد من الرجال يطلبونها للزواج. احتار الكهنة وأخذوا يفكرون في الحل المناسب، حتى رأى رئيسهم حلما هداه إلى الحل، كتب اسم كل طالب على قطعة صغيرة من غصن شجرة قديم مما يستخدم في الوقود. وفي الكتابة أيضا بعد تسويته وبريه، وتركوا هذه الأخشاب في الهيكل حتى الصباح ليتعرفوا على اختيار الإله، يقول الله في القرآن الكريم: ﴿وما كُنتَ لَديهم إِذْ يلْقُون أَقْلاَمهم أَيهم يكْفُلُ مريم وما كُنْتَ لَديهم إِذْ يخْتَصِمون﴾ وبهذه المناسبة هناك سورة كبيرة باسم آل عمران، هي الثالثة بعد الفاتحة والبقرة مباشرة، وهناك سورة لمريم.

في الصباح دخل الكهنة الهيكل فوجدوا أن العصا الخشبية المكتوب عليها اسم يوسف النجار قد ازدهرت ونبتت فيها البراعم، وأصبح يوسف من هذه اللحظة هو خطيبها والمتكفل بكل شئونها.

- رافق يوسف السيدة العذراء وابنها إلى مصر.

- وتذكر بعض الروايات أن سالومي العجوز كانت معهم.

- سالومي التي حرضت ابنتها الراقصة الجميلة على طلب رأس يوحنا المعمدان من هيرودس.

- يقال: إنها هي، وقد شعرت بالذنب الفادح الذي تورطت فيه فأرادت أن تشارك في حماية الطفل المقدس، ويوحنا كما أظنك تعرفين الذي ذبحه هيرودس هو ابن زكريا العجوز الذي كان يرعى مريم.

- وهكذا خرجت العائلة المقدسة من مصر.

- كانت السيدة العذراء تحمل على ذراعيها المسيح وتركب حمارا يمسك بمقوده يوسف، وكان طبيعيا أن تسير العائلة في طرق مهجورة وغير معبدة، بعيدا عن الطرق المعروفة تجنبا لملاحقة رجال هيرودس، فكانت الرحلة شاقة لأنهم صعدوا الهضاب وخاضوا في البراري وعبروا الصحارى وقاسوا حرارة الشمس في النهار وشدة البرد في الليل مع قلة الطعام والماء، لكن عناية الله دائما كانت معهم.

- لم تنتهِ الصحراء إلا مع وصولهم أول مدينة وهي فيما أظن العريش.

- كانت أول مدينة هي العريش وكانت تسمى الفرما، واستمرت الرحلة على رمال الصحارى حتى مدينة بسطا القريبة من الزقازيق.. واستراحت عدة أيام وأكملت حتى مسطرد وبعدها اتجهت شمالاً إلى بلبيس، وواصلت الاتجاه شمالاً حتى وصلت إلى مدينة سمنود ثم عبرت النيل إلى سمنود، وبعد الإقامة عدة أيام مضت العائلة إلى سخا التابعة لكفر الشيخ، وبعدها عبرت نهر النيل (فرع رشيد) وتحركت جنوبا إلى وادي النطرون ثم ارتحلت جنوبا إلى القاهرة حيث أمضت وقتًا في المطرية وعين شمس قبل أن تأتي إلى هنا في مصر عتيقة، وبعد أن مرت بمنطقة الزيتون وحارة زويلة.

- هايل يا علي.. أنت تحكي الرحلة كأنك كنت معهم.

- هناك تفاصيل أخرى عند كل محطة لم أتوقف عندها حتى لا أطيل وحتى لا تظنين أني أستعرض معلوماتي..

- يهمني أعرف أين سكنت العائلة المقدسة في مصر عتيقة.. أو مصر القديمة.

- مصر القديمة.. كانت من أهم المحطات التي استقرت بها العائلة المقدسة، ويقال: إنها سكنت مغارة تقع الآن تحت كنيسة أو سرجة وسط حصن بابليون، ونظرا لأهمية مصر القديمة في رحلة العائلة المقدسة وبقائها فترة زمنية أطول من غيرها فقد أقيمت كنائس كثيرة وأديرة بالإضافة إلى المتحف القبطي.

- وبعد مصر القديمة.

- اتجهت العائلة جنوبا عن طريق المعادي إلى البدرشين بمحافظة الجيزة ثم البهنسا وسمالوط واستراحت على قمة جبل الطير شرق سمالوط ثم عبرت النيل إلى الغرب نحو الأشمونين وبعدها ديروط الشريف إلى مير، وبعدها جبل تسقام حيث يوجد الآن الدير المحرق، ويقع غرب بلدة القوصية التابعة لمحافظة أسيوط وكان هذا الموقع هو آخر محطة للرحلة جنوبا وبعد إقامتها فترة ظهر لمريم ملاك يأمرها بالعودة.

- فهل عادت من نفس الطريق ومرت بنفس البلاد؟

- لم أعثر على ما يفيد ذلك، كل ما أعرفه أنها مرت عند رجوعها على جبل درنكه الواقع على طريق أسيوط

الغنايم.. وأنا أرجح أنها لم ترجع من نفس الطريق، وأظن وبعض الظن ليس إثما.. رجعت بشكل أسرع ومستقيم إلى حد كبير لأن أخبارا مطمئنة قد وصلتها.

- علي، أجبني بالصدق أو ارفض الإجابة.. هل تحب المسيحيين؟

- أنا أحب البشر وأقدر كل من يفعل الخير حتى لو كان ملحدا، لكني لا أصاحبه.

- ملحدا.. أعوذ بالله.

- الملحد يجب أن ندعو له بالهداية، أقصد أن فعل الخير عندي هو الأساس، فالمسلم الذي لا يفعل الخير، أتجنبه لأنه خطر وكذلك المسيحي واليهودي.. البشر في حاجة إلى التعاون والمحبة وبدونهما تفشل الحياة.

- لا أريد أن يمضي الوقت أبدا، حتى لا أضطر لفراقك.

- لن يمر الوقت أبدا.. ها هي الساعة.. هيا أعيديها إلى الوراء عدة ساعات.

تضحك وهي تمد يدها وتسلم.

أمسك بالكائن الطري الجميل وأحط عيني في عينيها لأروي روحي قبل الوداع..

أتذكر بن جونسون فله قصيدة مطلعها: بادليني نخب عينيك.

أعود إلى البيت ليس كمثلي أحد.. أستعيد صوتها عذب النبرات، تتردد بأعماقي وحولي كلماتها كزقزقة العصافير.. موقعة.. أجمعها في خيالي وأبنيها فراشًا، أشكله كما أهوى. أصعد إليه وأتمدد.. أحتضن الفراش الصوتي الخالص، أندس فيه بقوة حتى أختفي في نسيج الصوت الماجدي الناعم. يتداخل النسيج ويتداخل. يتضاءل حتى يصبح نقطة، تطلق عبيرها وتختفي وتسبح الحجرة كلها في الشذى.

(٢٢)

شغلته الفكرة. شغلته تماما، ملأت نهاره. حاصرت ليله. تمشت في خاطره وأحلامه.. تربت في خياله. كبرت وكبرت حتى غدا يظهر لنفسه على المسرح نجما متألقًا، تحيطه الأضواء ويلتف حوله آلاف المعجبين، ترتمي البنات الأرستقراطيات تحت قدميه. ينثرن عليه الورود ويحاولن لمسه، كثيرون يطلبون التوقيع، وهو لا يعرف كيف يوقع، منذ طفولته وهو في الورشة، لم يغادرها يوما.

في الصبا.. أفاق من الغفلة الأولى وتسلل إليه الوعي، فوجد نفسه متسخًا بالزيوت.. يتلقى الصفعات على قفاه "والشلاليت" في مؤخرته، ولما كبر قليلاً توقفت الصفعات وحلت محلها أقذع الشتائم وأقبح السباب الذي لا يرحم أما أو أبا، فأمه من "الشراميط" وأبوه من الأوساخ "اللمامة".. والآن هو أسطى قد الدنيا يعرف عيب السيارة وهي قادمة من بعد..، انتهى عهد الاستقبال وبدأ عهد البث، فهو الآن يكيل كل ما تجمع في ذاكرته من شتائم لآباء

وأمهات المساعدين، أما الصبية فعليهم أن يتسلموا كل ما ناله بدنه من الركلات، وقفاه من الصفعات.

بعد كل هذا التاريخ الذي لم يظهر فيه إلا ملوثًا بالشحم والزيت، ورائحته التي تسبقه خليط من البنزين والسولار، ها هو يرى نفسه بعين الخيال والأماني في الصورة التي يشتهيها ولا يكف عنه تصورها ورسمها، وإضافة اللمسات الجمالية التي ترضيه وتجعله مختلفًا عن أقرانه وسابقيه، يرى بعينه الجماهير المعجبة بصوته الساحر لا تستقر على مقاعدها، تقوم وتقعد يمينًا ويسارا، تلفها جاذبية المغني البارع والصوت الشجي والأداء الأخاذ، تستولي على العقول عبقرية الفتى الموهوب.. تطويهم دائرتها فيرتبطون بصاحبها ويتخلون تماما عن كل ما عداه، يحملون صوره في أطر ذهبية معلقة بسلاسل تتدلى من رقابهم جميعا، وكثيرون منهم يضعون صوره الفوتوغرافية تحت الوسائد وفي الكتب وعلى الجدران، وهو يبتسم وقبضة يده تحت ذقنه، بينما نظراته الساحرة الغامضة تدقهم إلى الأرض إذا حاولوا النظر إليه، وصوته الخلاب الجديد الآسر في أجهزة الكاسيت بالبيوت والسيارات ومع العمال في

المصانع وفي كل الإذاعات.. في الشوارع.. يضعه الشباب على آذانهم، ويتراقصون معه دون أن يحسوا بما حولهم، وينزلون إلى نهر الشارع المزدحم، ويصرخ أصحاب السيارات غضبا، لكنهم عندما يعلمون أنهم يستمعون إلى جمعة، يعتذرون لهم لأنهم معذورون، فصوته استولى عليهم وأنساهم أنفسهم وما حولهم.

في الصحراء تتدلى أجهزة الترانزيستور من سقوف الخيام، وفي المزارع تتعلق الأجهزة التي تبث أغاني جمعة من الأشجار وفوق ظهور البهائم، والفلاحون مقبلون بشهية على الحرث والعزق والري، لا يشعرون بالتعب ولا بالحاجة إلى طعام أو شراب، الغذاء يقدمه لهم جمعة حيثما كانوا.

أغاني جمعة في كل مكان. في المستشفيات. في الميادين ومع الأولاد في المدارس والجامعات ومع الجنود في السلم والحرب، فوق الأرض وتحت الأرض وفي الطائرات والقطارات والسفن، صوره في الشارع على كل الجدران، حتى أن رئيس الوزراء سأل عن حكايته وزير الإعلام، وبعده وزيرا الداخلية والتربية والتعليم إلا أن وزير الثقافة صرح بأن الكرة في ملعب وزير الشئون الاجتماعية والبيئة،

وكلاهما اعتذر لعدم الاختصاص، فالمسألة على الأرجح تتبع السياحة والصحة والنقل والمواصلات، وانتهى الأمر بالاتصال بوزير الدفاع الذي ارتأى أنها مسألة محلية يمكن التعامل بخصوصها مع المحافظين.. لكن المحافظين اعتذروا لأن الموضوع خرج من أيديهم ولم يعد بمقدورهم السيطرة على هذه الظاهرة الجديدة الغريبة التي وصلت إلى بيوتهم.. فبنات الوزراء لا يردن الزواج إلا بحضور جمعة. لابد من ظهوره حتى لو لم يغن، يكفي أن يراه المدعوون ويعرفون أنه حضر فرحهن، ويقول أولاد الوزراء لآبائهم في صوت واحد:

- أنتم دقة قديمة.. خذوا عيوننا، واستعيروا آذاننا لتروا جمعة على حقيقته وتستمعوا لصوته. إنه معجزة. "فلتة".

مضى جمعة يدور في فلك أحلامه وأسر أمنياته حتى لم يعد ينام ولم يرحمه أصحابه، ولم يحاولوا التخفيف من تضخم أمانيه.. فإذا غنى هاجوا وصرخوا وأعلنوا بكل قوة وحماس:

- والمصحف ولا عبد الحليم..

يبتسم في تواضع ثم يغني، فيصيحون إعجابا.. لا أحد يعرف السر وراء هذا الإعجاب. كان جمعة نفسه يشك في البداية، لكنه بمرور الوقت وخاصة بعد أن غنى في الحمام وتردد صوته بين الجدران في الحيز المخنوق، وردته الجدران إليه، لم ينزعج، وجده فعلاً كما قال عنه أصحابه:

- جميل.. جميل جدا.

راجع نفسه متشككًا فيهم.. هل هو مجرد نفاق، أو بسبب المحبة والصداقة لم يجد مبررا لذلك.. لا يطعمهم ولا ينفق عليهم ولا يحقق لهم أية مصالح، وليس بينه وبينهم إلا الكلمة الطيبة والمودة، فلماذا لم يمتدحوا صوت غيره؟!

قالوا له:

- لابد من شريط كاسيت يوزع في الأسواق، ودع الحكم للناس.

عندما امتلأ البالون بالهواء حتى كاد ينفجر، ذهب جمعة إلى إحدى شركات إنتاج الأشرطة. كشف لهم سر حضوره وهو أنه ذو صوت جميل. يحوز إعجاب كل من يسمعه. طلب أن يتفقوا مع مؤلف كلمات وملحن وفرقة موسيقية لتسجيل أغانيه تمهيدا لطبع شريط.

فوجئ بمسئول الشركة بعد أن سمع صوته يقول له:

- إن الشركة لا تستطيع أن تساهم في هذه المغامرة المحكوم عليها بالفشل الذريع، ويمكن أن ندلك على بعض المؤلفين والملحنين، وعليك أنت الاتفاق معهم وتسجيل الأغاني، والشركة مستعدة لطبع الشريط على حسابك، والخدمة التي يمكن أن نقدمها لك هي توزيع الشريط فقط مقابل نسبة ٤٠% من الثمن المباع.

قبل أن ييأس شجعه أصحابه على المضي في الطريق مهما كان الثمن.. توجه إلى أحد الملحنين الذي اصطحبه إلى أحد المؤلفين. عرض عليه المؤلف الأغاني الجاهزة ليختار منها ما يشاء. اختار مع الملحن خمس أغاني. دفع جمعة مقدم أتعاب والباقي بعد طبع الشريط.

أقسم الملحن بعد ذلك أنه أوشك في عدة مرات وهو يدربه على اللحن أن يكسر العود، وأقسم أنه قرر من أجل جمعة أن يهجر هذا المجال تماما، واكتفى بأن كان يدعو عشرات المرات بخراب بيت الذي علمه الموسيقى.

لست أذكر الآن من الذي قال:

مثل غزال نظرة ولفتة من ذا رآه مقبلا ولا افتتن
أعذب خلق الله لفظا وفما إن لم يكن قد تاه بالحسن فمن؟

في مكان ما.. بين السما والأرض جلسنا.. تتمشى حولنا أشجار رشيقة الجذوع، أوراقها شديدة الخضرة.. تتهامس فيما بينها وتتبادل المواقع وتجرجر خلفها جذورها التي تكاد تبدو لنا تحت أرض شفيفة، كأنها مغروسة في الماء.. يتناهى إلينا أوركسترا العصافير السابحة في بحر السماء الوسيع.. أصواتها البريئة العذبة تبدو كأنها تنسج عشا مخمليا غير مرئي.. تواصل العمل فيه بدأب.. عشا لا تراه الريح ولا يلحقه الفناء.

قالت: شارد أنت دائما.. فيم تفكر؟

قلت: فيك

قالت: أنا أرى تفكيرك، وقليلاً ما تنطق غير الصدق

ابتسمت.. فابتسمت

قالت: اعترف

قلت: أتصور الأرض هي الأم والسماء هي الأب، ونحن الأبناء. السماء من بعيد ترنو إلى الأرض وتهفو لها، تتمنى أن تنحسر المسافة، ولما يؤرقها الشوق ترسل دفئها وماءها، رسولا المحبة.. ترتوي الأرض وتثمر الأبناء، تطعمهم وتحنو عليهم.. ترعاهم وتتمسك بهم.. إنها تشعر أن ضخامتها لا قيمة لها بدون وجودهم، وأن دبيبهم عليها حياة لها.

قالت: إذن هي علاقة من طرف واحد.. السماء أرسلت والأرض أنجبت.

قلت: تشتاق الأرض إلى حنين السماء، فتبعث ببخار بحارها.. يتلقاه زوجها السماء بابتسامة، ويستبقيه عنده طبقة فوق طبقة حتى يتكدس في سحب، ثم يبعثه ماء، تعبيرا عن أشواقه ورغبته في لقاء الأرض التي تغمض عينيها وتشرب، وتنتشي، وتورق وتعانق البشر وتجدد الوعود.

سألت: هل قرأت هذه الفكرة في كتاب أم أنها من بنات تأملاتك؟

قلت: الحقيقة أنها من بناتي، لكني فوجئت أن شيئًا مشابها ورد في القرآن الكريم يؤكدها، وسببت دهشتي وقتًا

طويلاً، ودفعتني إلى إعادة قراءة القرآن مرة ومرة.. يقول الله في سورة الأنبياء (٣٠) ﴿أَولَم ير الذِين كفَروا أَن السماواتِ والأَرض كَانَتَا رتْقًا فَفَتَقْنَاهما وجعلْنَا مِن الْماءِ كُلّ شَيءٍ حي أَفَلاَ يؤْمِنُون﴾.

سألت: ما معنى رتقا؟

قلت: أي شيئًا واحدا.. أو شيئين مضمومين ملتحمين.. عاشق ومعشوق.

تأملتني لحظة ثم قالت: مثلنا.

رقص قلبي.. ها هي بدأت تبوح.. وقد كانت حريصة جدا في التعبير عما يخالجها من مشاعر.

قلت: تماما.

قالت: السماء عينها على الأرض دائما، وأنت لا تراني إلا بصعوبة.

قلت: أينما أستدير لا أرى سواك. عيناي دائما عليك وعيناك تحاصراني، وتصب في روحي نظراتها الفاتنة، وتنتشر في دنياي خصلات شعرك، وتورق فيها غابات الربيع، أما شفتاك الورديتان فتحملان لي همس قلبك فينبت

الوعد الجميل في أعمق أعماقي، وأنتشي مبتهجا بحلاوة الحب الذي لا أحسه نحوك فقط، ولكن نحو كل المخلوقات.

قالت: يريد أبي أن نذهب إلى الصعيد ونبقى هناك.

قلت: سوف يتبعك حبي أينما كنت.. إنه لا يعرف قلبا غير قلبك يسعى إليه، وسوف يقتفي أثرك حتى لو دفنوه لمدة ألف عام وحملوك بعيدا إلى آخر الدنيا، لا الزمان إذا انطوى ولا المكان إذا ابتعد ليحولا بيني وبينك فنحن فوقهما لا تنطبق علينا قوانينهما.. ولقد برمجت الأقدار قلبي بحيث لا يدق إلا بسر جمالك، وخاطت بدمائه خلاصة السحر في كينونتك المميزة.. لذلك.. لا تقلقي علي.. لن تقتلني رصاصة، ولن يغرقني بحر، ولن تحرقني نيران الجحيم، ولن تصعقني كهرباء الدنيا، لكن ذلك يمكن أن يحدث في يسر، وفي لحظات إذا أنت أغلقت دوني أبواب قلبك.

قالت: هل تراني حقا جميلة؟

قلت: جمالك جمالين.. جمال الشكل وجمال الروح.. ملامحك فيها تواضع وجبروت.. فيها حياء وغواية.. هدوء وثورة.. كائن بديع وساحر.. أنت أصبحت أسطورة في

نظري خلال شهور قليلة.. والبدايات كانت لا بأس بها لكنها الآن مختلفة تماما.

قالت: هذا كلام المحب.

ضحكت وقلت: ربما.

ضحكت وقالت: إذن جمالي وهم.

قلت: لا تغيري الموضوع.

قالت: لا أغيره، لكن لماذا لا تعتقد أن الحب هو الذي فجر الجمال؟

قلت: الجمال هو الطريق إلى الحب.

قالت: وبعد الحب.

قلت: جمال.

سألتني: يعني أنت أحببتني لأني جميلة؟!

قلت: نعم وأنت.

قالت: أنا أيضا أعجبني شكلك ورسمك وطريقة كلامك ثم مظهرك وتأكد الحب لما لمست حنانك.. أهم ما في الرجل الحنان.

قلت: لكن شكل الرجل ليس مهما.

قالت: أول ما تراه عين المرأة الجمال.

قلت: تحب المرأة البيضاء أحيانًا رجلاً أسود.

قالت: الأسود ليس دميما، ولكنه مجرد لون ومع هذا فهي حالات استثنائية تفرضها ظروف، فقد يكون الوحيد القريب منها أو له موقف يتسم بالمروءة النادرة في مأزق تمر به.

قلت: وما رأيك في العلم والمال كأسلحة للرجل؟

قالت: يمكن أن تؤدي إلى زواج غير مضمون، لكنها لا تفضي إلى الحب، الحب له أسباب أخرى.

قلت: أحيانًا أشعر أن المرأة فيلسوفة بالفطرة.

قالت: ليست فلسفة، لكنها الغريزة والإحساس العميق بالحياة.. قدرات بثها الله فيها في مقابل أخرى منحها للرجل، حقوق شرعية تجعل له الوصاية والولاية.

قلت: دعيني أحكي لكِ حلما.. حلمته.

قاطعتني: ذكرتني.. لقد حلمت بالأمس أننا أنا وأنت أصبحنا فجأة آدم وحواء.. نسكن كوخًا بنيناه معا من الخوص والغاب وأغصان الشجر، هذا الكوخ كان جنتي،.. وأنت تأتي لي حاملاً غزالة، في ظهرها سهم وهي تنظر لي بعين مطفأة فيها بقايا من أمل في الحياة، تدعوني أن أخلع عنها يد الموت

التي توشك أن تعصف بروحها الرقيقة، لكني طهوت الغزالة وذقنا معا لقيمات، وتمددنا.. وضعت رأسي على ساقك وأنت أمسكت بالقيثارة تعزف عليها لحنًا شاردا بينما شفتاك تتمتم بأبيات من الشعر الحالم.. كانت كلماتها خمرية اللون تتسرب إلى روحي فتحملني في حنان، وتغمرني في حوض الزهور حيث الفل والياسمين وسائد وملاءات.

قلت: أحلامك مثلك.. دعيني أحكي لك حلمي.

قالت مقاطعة وهي تلم أطرافها: الوقت.

قلت: اهدئي.. أي وقت؟.. نحن لنا وقتنا.. وللناس وقتهم.. كيف ينطبق علينا نفس الوقت الذي يستخدمه الناس في حركاتهم ونومهم وثرثرتهم المملة.

سحبتها نحوي وضممتها إلى صدري.. فأغمضت عينيها واستقرت بهدوء قلت:- سوف نخلق وقتنا ونخلق طعومنا، وطبيعة نومنا وشكل جلوسنا، وطريقة كلامنا ونخلق قاموس ألفاظنا ولغتنا ومعانيها.. كما نحدد لون أيامنا وطول أنفاسنا ونعيد صياغة أشواقنا، حتى أجسادنا سوف نقطعها عضوا عضوا ونقرأ عليها تعاويذ حبنا، فتذوب وتتحلل. ندمجها ونعجنها عجينة واحدة ونعيد خلقها كما نشتهي،

وهكذا نفعل بكل الأعضاء حتى تصبح كائنًا متفردا وجميلاً ومنسجما، إذا رآنا إنسان حقيقي قال وهو يتنهد: هذا هو الحب.

ضمتني إليها بقوة وضممتها وظلت مغمضة العيون، مسدلة الرموش وظللت سادرا في ملكوتي الذي غزله دفء حنانها وروحها الشاعرة.

- أما إذا قدر لنا أن نموت، فسوف نموت شخصا واحدا.. مرة واحدة ويخسر العالم سر أسراره وأجمل مخلوقاته، وعندما يمثل الجميع يوم الحساب أمام الملائكة.. سوف يحارون في طبيعة هذا المخلوق الجميل الذاهل عن كل ما حوله، الواثق بنفسه. الهادئ. غير مشتت الذهن ولا مؤرق الخاطر، لا يجري هنا وهناك، كالجميع الذين تضطرب قلوبهم بين ضلوعهم من ثقل الذنوب.. نحن سنكون قبل الجميع في الطريق إلى الجنة.. ولن يكون لنا غيرها.. اطمئني.. كوني كما أنت.. ضعي رأسك على واحة قلبي ولا تسمحي للمسة هم أن تستقر على جبينك أو تمرق في عيونك.. نامي.. نامي.

بعد لحظات من لحظاتنا التي لا نعرف طولها ومداها.. قررنا أن نترك الجنة التي ضمتنا شرنقتها، ونزلنا إلى هدير المدينة، واكتشفنا أن الأرض يخيم عليها الظلام بعد أن هبط المساء.. لكن الأضواء الصناعية الباردة كانت تلاطم الحيطان والشوارع بنورها الفظ.

في نفس اليوم الذي تم فيه توقيع طبع شريط أغاني جمعة الفار، سمع أهل حارة شق التعبان وعدد من الحارات المجاورة صوت جندية الحياني، ينطلق بصورة مفاجئة لا يسبقه تمهيد نيراني بالسباب أو الشجار أو الحوار الصارخ، وإنما كانت سهاما صوتية متوالية تصعد من شقة الفار إلى السماء وإلى كل الأرجاء.

توالى بعد الصوات العالي فتح النوافذ وخبط أخشاب الشيش في حيطان البيوت.. أطلت رءوس كثيرة من الشبابيك والبلكونات، ارتفعت وجوه كان أصحابها يسيرون في الحارة أو يقفون أمام دكاكينها.. خرج الذي يحلق في دكانة سيد والفوطة على صدره وذقنه مطلية برغاوي الصابون الأبيض الناصع.. كما خرج زبائن دكانة الفول والطعمية والمقهى والفرن وظهرت رءوس كثيرة من فوق الأسطح توجه من عشرات العيون نظرات مستطلعة ومتلهفة على الفضيحة. مشتاقة للفرجة.. متمنية أن يكون هناك ما يثير في دراما الحياة ومصائر الناس.. تدلت رقاب وامتدت آذان تبحث عن

أصل المشكلة وسبب الصراخ وتبارت الأنوف في فرز روائح المصيبة.

كانت أم هنية قد رجعت من السوق مشحونة بفكرة ساخنة وقوية، قابلة للنمو بسرعة والتضخم في القلب المسكين الذي لم ير عزا أبدا ولا راحة، ولم يعرف شيئًا اسمه الرفاهية التي تبدأ عادة بالامتلاك.. امتلاك أي شيء.. طعم الامتلاك في نظرها عزيز جدا ولذيذ جدا، والعمر يمضي ولا أمل فيه، حتى الأرض ميراث زوجها يس أخذها الغراب وطار، نام عليها أخوه وانتهى الأمر، والأمل في المحاكم مثل الأمل في الحدأة عندما تخطف الكتكوت.. قالت لها أم ضباشة الدلالة.

- هناك قطعة أرض مائة متر.. سرها لا يعرفه غيري.. صاحبها محتاج، وبالأمس فقط فكر أن يبيعها ويكفيه خمسة آلاف جنيه والباقي لما تفرج.. تصرفي يا جندية. ربنا أرسلني إليك.. أوقعك في من أجل خيرك.

- بجد يا أم ضباشة؟!

- عيب.. أنت أختي في الرضاعة.. بسرعة.. اعملي اك همة.

لم تشتر أم هنية شيئًا مما خرجت من أجله.. وعادت بسرعة إلى قاع الدولاب تبحث فيه عن ثمن الأرض.. وجدت الفراغ.. أعادت النظر.. رفعت كل شيء.. لعنت اليوم الأسود، وواصلت البحث في دواليب العيال. تحت المراتب، بداخلها، في ملابسهم جميعا.. فوق الدواليب، حتى الأحذية بين صفحات الكتب وفساتين هنية وحقائب يدها الصغيرة، فتحت الزجاجات السوداء التي تملأ قاع دولاب هنية.. صبت الماء الذي في القلل وهزتها في المطبخ، في السندرة.. الإيقاع يتزايد.. الأنفاس تتسارع.. تلهث.. تلعن كل شيء.. تنفخ.. تتحشرج أنفاسها.. قلبها يواصل الدق.. تمنع نفسها من الفضيحة.. وأخيرا أطلقت عقيرتها صائحة مولولة.

ظلت أم هنية تلطم وتندب حظها الهباب، وتلعن ذاك الشخص الذي تجرأ وسرق كل مالها، كردان أمها الذهب عيار ٢٤ الذي يصل وزنه إلى ربع كيلو.

دام الصوت وقتًا يتناسب وحجم الفجيعة التي استشعرتها. كل من في البيت أقسم أنه لم يمسه، بل أجمعوا أنهم لا يعرفون بالضبط أين تحتفظ به.

هبت أم هنية فجأة وضربت صدر يس بكلتا كفيها، تزلزل الرجل فلم يكد يسمع ما قالته زوجته:

- أنت الذي أخذته يا شايب يا عايب للسنكوحة التي تلوف عليها هذه الأيام، هل تحسبني نائمة على أذني، هل تحسبني غافلة عما تفعله من ورائي.. أخبارك عندي يوم بيوم وساعة بساعة.. نهبت مالي ورحت تصرفه على أم العراقيب.

ترفع صوتها عاليا وهي تقول: يا وسخ.. تسرقني وتهادي بنت السكري يا كحيان.

من غيبوبة أفاق الرجل المرتعد وتماسك لحظات ليقول لها، محاولاً أن يكون رادعا:

- أكيد جننت.. أنت عائشة في الأوهام.. لا بنت هناك ولا ولد.. ابحثي جيدا قبل الاتهام.

- أخبارك عندي يوم بيوم يا روح أمك.. بص في المرآة وهي تقول لك يا أبو قُصة.

قاوم قدر استطاعته، ولما أحسن أنه لن يتمكن من المواصلة وأنه يوشك على الانهيار ترك لها الشقة وخرج يسب ويلعن الساعة التي رآها فيها.

جلست ومضت تولول بوهن وقد تسلل إليها إحساس مبهم، بأنه فعلاً يجري من خيبته وراء البنت الصغيرة كما حدثتها الأخبار، لكنه يبدو صادقًا ولا يجرؤ على لمس ذهبها.

جاءها صارخًا نهيق حمار حنفي العربجي متواصلاً وواصلاً لأطراف الحي.

انتقلت عدسات عقلها وظنونها إلى شخص ما، هبت من جديد بعافية جديدة قائلة: ليس غيره العبيط الذي يريد أن يكون مغنيا.. الله.. الله.. يريد أن يغني بصوته الحميري بفلوسي.. بمالي.

أطلت من البلكونة وصرخت في عيل كان سائرا في الحارة، أن يسرع بدعوة جمعة، حاولت أن تؤكد لنفسها أنها بحثت في كل مكان وكل ركن.. نفضت البيت كله.. لم تعثر على أثر.. جاء جمعة.. أدهشه أن يراها مجنونة الشعر محمرة البشرة. زائغة العيون.

- مالك يا أمه..

- مالي أخذت مالي يا جمعة.. تسرق أمك يا جمعة كي تغني؟.

- لم يحدث والله.

- لما تحلف لي على الماء يجمد.. لم يأخذ الكردان غيرك.

- يا أمه عيب.. صدقيني.

- بل أخذته.. لا أحد غيرك.. غن يا سيدي من غير مالي.. غن وانبسط وأنا في ستين داهية.

أقسم لها أنه لم يأخذ منها شيئًا وأن أصحابه هم الذين يتولون كل شيء، وسوف يسدد لهم من ثمن البيع.

انحطت على الأرض ومضت تولول في فتور وقد خامرها شعور أنه صادق، واسترجعت بسرعة تاريخه معها، فلم تجد إلا كل عون وحنان، ومن المستبعد أن يكون هو.. جمعة طول عمره هو الذي ينفق أكثر من والده، وهو الذي يحاول تلبية طلباتهم.. لا.. ليس هو.

إذن ليس غيرك أنت يا هنية. نعم.. هي أنت.. فمن أين لك هذه الزيوت والعطور والأحمر والأزرق والبودرة التي تشتريها كل يوم، والفستان الجديد وموتور الشعر الذي يعمل بالكهرباء.. من أين كل هذا.. ربما من مرتب أبيك الذي يحصل عليه من الديوان الملكي يا ضنايا..

طلعت فيها هنية طلعة ثقيلة. كتمتها تماما.. لم تأخذ في يدها "غلوة".. تذكرت أمها أن ابنتها نسخة منها، لو تمكنت منها حالة الغضب تقدر على هدم الدنيا.. لمت نفسها وسكتت وهي تصدق هواجس الفأر الذي يلعب في عبها ويصر على أن التي سرقت الكردان هي هنية.. تلبية "لزن" الفأر قالت لها:

- أنا سكت، لكن ليس غيرك فعلها.

بمهنتي الثقة، قالت هنية:

- بطلي يا وليه يا خال.

اندفع جمعة صارخًا في أخته.

- يا بنت الشرموطة لا تقولي لأمك يا خال.

لطمت أم هنية خديها وشدت شعرها وهاجت من جديد وهي تقول:

- آه يانا سرقوني وشتموني.. يا ميلة بختك يا جندية.. سرقوني وشتموني.

- اكتشف جمعة خطأه. فاضطرب وحار ماذا يفعل.. أسرع بالانصراف وهو يقول:

- عالم أولاد كلاب "ملاحيس".

هدأت قليلاً ثم سألت نفسها من قبيل الاحتياط.

- هل يكون الولد مشيو؟..

قلبته على أسياخ ظنونها.. فلم ترجح اتهامه. إنه لا يعرف قيمة الكردان ولا ماذا سيفعل به.. هو لا يكاد يفكر في شيء من هذا القبيل.. عادت تقول:

- لم يبقَ إلا نبيل.. فهو عاطل.. ولابد في حاجة إلى نقود، والمصروف الذي أعطيه له مؤكد لا يكفيه.. لكن نبيل مؤدب ولم يسرق أبدا.. والأهم أن البنات هي التي تأكل نقود الشباب، وقد غارت بنت سرحان. لا.. كله إلا نبيل.. نبيل متعلم ولا يفعلها.

لكنها ظلت تبكي وتسب الزمن والظروف والقلوب التي لا تحرم، وتلعن حظها وميلة بختها.. لا تأخذ منهم لا أبيض ولا أحمر ويسرقونها، الآن أصبح ظهرها للحائط، لا يوجد ما تعتمد عليه: غدا سأكون مثل أم رمزي الخياطة.. طردها ابنها فتحي من بيتها.. عيال آخر زمن.. وهي يا حبة عيني عمالة تلف من بيت لبيت.. يرموها لبعض.. وكانت ست الستات، بقيت مثلك يا إنصاف.

ظلت تبكي. بكاء أقرب إلى الأنين، بدون دموع، لكنه "سرسوب" من الأسى يتساقط من قلب قلبها، ويخف من وهج الألم المشتعل في بدنها كله، ويتكثف في حشاشة الروح.

جاء نبيل وعرف الموضوع.. مال عليها وقال لها بهدوء:

- متأسف يا أمي.. أنا الذي أخذت الكردان.

- أنت يا نبيل!.. تسرق أمك!

- لم يكن هناك حل آخر.

- حل؟!

- نعم.. دفعت ثمنه للحصول على تأشيرة سفر.. وللأسف.

- أسف.

- راحت الفلوس.. وطلعت شركة نصابين.

انحنى على يديها.. يحاول أن يقبلها.

- أنا غلطان. سامحيني.. ماذا أفعل حتى أصحح خطئي؟

مسحت عينيها فجأة وهبت نشيطة، وكأنها لم تفقد شيئًا عزيزا.. انحنت عليه وقبلته في رأسه، وقالت بحنان تدفق بغزارة:

- فداك يا حبيبي. ولا يهمك.. عليه العوض ومنه العوض.. قم لتأكل، أنت أكيد من الصباح على لحم بطنك.. لا تحزن.. تبات نار تصبح رماد.. أنا قلبي حاسس إن فرجه قريب.

- ربنا يخليكي لنا يا أمي.

وبينما كانت في المطبخ تعد الطعام، كانت دموعها بهدوء شديد غير معتاد تتسال إلى خديها وتلمع وتغرق صدرها، وهي ترى قطعة الأرض تنضج في الوعاء مع الفاصوليا.. الأرض حمراء تنبت فيها فقاقيع.. تنهدت بعد أن ذاقت طعمها بطرف لسانها.. لم تجد لها طعما.. حطت الغطاء في موضعه وتأكدت أن البخار لن يخرج، وأن كل شيء قد انتهى بسلام، وبقي الحال على ما هو عليه. محلك سر.

(٢٥)

طال غيابها في الصعيد.. هل يكون عم ملاك قد فهم شيئًا أو أدرك أي سر.. فأرسلها إلى هناك.. كم أتعسني سفرها وكم يضايقني غيابها.. مرت أسابيع ثلاثة، ومن الظلم الفادح أن أحرم منها كل هذه المدة.. أي قلب بشري يملك أن تغيب عنه الحياة أياما وهو يتشبث بأذيالها، وإلى متى؟ وأنا أتصبب شوقًا لنظرة منها.. للمسة.. لهمسة.. بل حتى لإشارة من يدها، لم أعد أستنكر إذا حكى لي أحد عن عاشق سجين حطم الجدران من أجل أن يرتوي قلبه بنور الحبيب، أو متيم سار على قدميه آلاف الكيلو مترات يجتاز الصحارى والقفار ويعبر الأنهار.. لا يقر له قرار قبل أن يلقى من بيده أمر قلبه.. وأمر نومه ويقظته.. رضاه وغضبه، أمله ويأسه، بل حياته وموته..

وأنا ماذا فعلت إلا أن أقبع هنا وبين يدي الكتب أبثها همي.. ماذا لو كانت المدة ستطول، العام الدراسي يبدأ بعد أيام.. غير مستبعد أن يكون عم ملاك قد نقلها إلى جامعة أسيوط.. ماذا تفعل يا من تحسب أنك عاشق مدله؟

ماذا ستفعل؟ انطق.. حان وقت العمل.. اكشف عن قدرات قلبك.. عن عزيمة حبك وقوة غرامك.. هيا.. أفصح.. واجه المصير المنتظر..

نعم.. إذا لم تحضر بعد غد على الأكثر فتكون الأمور قد اتضحت وعم ملاك نقلها، أو يكون قد أخبر أهلها في الصعيد.. يا نهار أسود هل تكون المسألة وصلت إلى القتل؟!

لا.. لا.. لن أنتظر.. غدا سأكون في القطار.. بل الآن وليس الغد.. نعم الآن.. ولكني أحتاج بعض المعلومات.. علي أولاً أن أذهب إلى عم ملاك لاستدراجه.. الوقت يقترب الآن من منتصف الليل.. غدا إذن معلومات، وبعدها السفر مباشرة، ولماذا ملاك، أنا أعرف أنهم من بلدة تابعة لأسيوط.. أظن القوصية.. نعم، هي القوصية.. ولكن اسم عائلة أمها.. هل أسأل في الجامعة.. لا.. لابد من ملاك أولاً..

ما الحكاية يا كوكب الشرق؟.. بل ما حكاية القائمين على برامج الإذاعة.. أفي هذا الوقت بالذات يبث الراديو هذه الأغنية؟!.. شكرا فما أحوجني إليها..

أغدا ألقاك.. أنت ياجنة حبي واشتياقي وجنوني
أنت يا قبلة روحي وانطلاقي وشجوني
أغدا تشرق أضواؤك في ليل عيوني
يا رجائي.. أنا كم عذبني طول الرجاء
كم أناديك وفي لحني حنين ودعاء
أنا لولا أنت.. أنت لم أحفل بمن راح وجاء
أنا أحيا في غدي الآن بأحلام اللقاء
فأتي أو لا تأتي، أو فافعل بقلبي ما تشاء

(٢٦)

في الصباح حضر صبي إلى بيت الفار وقال لنبيل:

- الحاج يحيى يريدك
- من الحاج يحيى؟
- الحاج يحيى صقر.
- آه.. قل له من يريدنا عليه أن يحضر إلينا.

لم يحضر إليه أحد، وعند الظهر كان عم يس يمر في الشارع، سمع من يناديه.. توجه ناحية مصدر الصوت.. كان يحيى صقر يجلس على مكتب فخم في صدر محل كبير، تعلوه لافتة ضخمة، "صقر لقطع الغيار"، لم يعرفه في البداية.. قال يحيى مباشرة بلهجة واثقة: إذا أحب نبيل أن يعمل معي، هذا محله، سيحصل على مرتب كبير وكذلك ميشو، لم يصدق يس أذنيه، غير مساره المتجه إلى ناهد واتجه إلى البيت. سأل عن نبيل. لم يجده. ذهب إلى جودة في بيته لم يجده، ووجدهما عند ملاك. كان ملاك يقول: عيسى ابن الله.

علي يقول هذا هو الاختلاف الوحيد بين المسلمين والمسيحيين. المسيح نفسه عليه السلام يقول في الإنجيل: أنا ابن الإنسان.. الله لا ينجب ولكنه يخلق، وقد خلق الله عيسى بكلمة منه، فهو يقول للشيء كن فيكون، وعيسى مثل آدم ولا فرق إلا أن عيسى له أم.. وقولكم إنه ابن الله – سامحني نحن نتحدث ومن حقك أن تصر على رأيك – له معنيان سلبيان ضد سمو التفكير وصحيح الرؤية الدينية.. أولاً أنكم غير متقبلين لفكرة أن عيسى في الأصل كلمة تحولت إلى روح وتصرون على أنه مولود له أب وله أم.. والأب هو الله.. وهذا الاعتقاد فيه شبهة الفهم المادي، حاشا للدين المسيحي أن يقع فيها، والأمر الثاني أن هذا الفهم نفسه يتناقض مع كون السيدة مريم عذراء.. فهي عذراء بالفعل لأن لا أحد ولا حتى الرب مسها، ليس لها زوج.. إنها مباركة وطاهرة.. ولم تنجب عيسى كما ينجب البشر، ولكنها تلقت كلمة.. وكلمة الله تخلق بقدرته وأمره..

لم يتحمس يس للحديث، مال على نبيل وهمس في أذنه برغبة يحيى.. هب نبيل واقفًا.. مضى إلى يحيى، فوجئ بفخامة المحل وكميات قطع الغيار، ومنظر يحيى وهندامه.

البذلة الكحلي الفاخرة والقميص الأزرق ورابطة العنق الحمراء.. تتناثر عليها نجوم سماوية، ومنديل أصفر تطل أغصانه من جيب صغير فوق القلب.. علبة سجائر أجنبية وولاعة ذهبية وسيجارة يدخنها عبر مبسم أسود.

يجلس على مكتب زان أبانوسي مزين بالأويما، وفي أركانه وجوه لأسود تكشر عن أنيابها وعليه لوح سميك من البللور.. الأرضية السيراميك تلمع وتسمح لحذائك أن ينقر عليها نقرا برجوازيا مشعا.

عرض عليه ثلاثمائة جنيه كراتب شهري.. ووافق نبيل دون كلمة. طلب من العامل الذي كان يلبس بذلة رمادية وله وجه كشر، أن يعرف الأستاذ نبيل قطع الغيار الموجودة وأقسامها وأنواعها وأسعارها، واختتم أوامره قائلاً:

- سوف أسأله بعد يومين عن أصغر قطعة.. الأستاذ نبيل هنا هو المدير. زام بلبل ذو الوجه الكشر وقال بصعوبة:

- طيب.

وقف وتحول إلى نبيل قائلاً:

- أستاذ نبيل. اجلس على المكتب. افتح أدراجه. اقرأ كل الفواتير والملفات وخطابات البنك وحسابات العملاء وكشوف أسعار القطع.. كل حرف هنا أريده أن ينتقل إلى رأسك، سيساعدك بلبل وميشو عندما يحضر.. هذا المحل لقطع الغيار الجديدة وهناك في الشارع الخلفي مخزن كبير للمستعملة، أنت خريج تجارة. أريد أن أرى همتك.

سلمه مائة وعشرين جنيها تحت الحساب. مائة له ولميشو عشرون.. انطلق بسيارته المرسيدس الزيتوني.

جلس نبيل على المكتب. كان يجب أن يجلس عليه بعدما رآه.. وتساءل عما جرى..

- يبدو أن نرجس أخيرا فتحت الحنفية على الآخر.. لكن.. الفلوس تأتي بالدكان والبضاعة والسيارة.. فكيف وفرت له زيادة في الجسم واحمرار في الوجه.. غريبة.. وكل هذا في شهور، بعد سنوات الضنك.. علي بابا بعد الضنا لابس حرير في حرير.. والست مرجانة..

تملكت نبيل كريزة ضحك.. ثم عاد إلى الذهول والأسئلة قبل أن يبدأ العمل.. وقف ودار في المحل قليلاً والأسئلة الحائرة بلا إجابات لا تفارقه. تطل على الدكان مع

كل نظرة من عينيه، وترتد إليه بمزيد من الأسئلة.. طالعته صورة يحيى.. كبيرة ملونة فوق رأس الجالس على المكتب.. الوجه سمين كأنه اعتاد العز.. شارب مبروم ضخم.. صورة باشا أصيل.. أليس كذلك يا من تعلمت في الجامعة؟!

تنهد وجلس على المقعد الدوار. لف به عدة لفات.. بسط يديه على المكتب الكبير، تسللت إليه برودة الزجاج.. عاد يرفع رأسه وتأمل مكونات المحل، فكل ما فيه وغيره ملك للرجل الذي رفضه زوجا لأخته العانس.

بدأ يفتح الأدراج.. ويطالع الأوراق.. ورقة ورقة.. سطرا سطرا.

- ما الذي يحدث في الدنيا بالضبط.. جاء علينا وقت قلنا فيه: لم تعد هناك مفاجآت، والآن نقول إن كل ما يحدث حولنا.. مفاجآت.

في اليوم التالي، كانت الأرض الفضاء المجاورة لمكتبة ملاك يحفرها البلدوزر وتكدس فيها أطنان الرمل والزلط والأسمنت، وعلقت عليها لافتة كبيرة ترى من بعد كيلو.. "مؤسسة صقر الخيرية".

خلال مدة وجيزة ارتفع البناء أربعة أدوار، الأول مسجد والثاني عيادة نرجس لعلاج جميع الأمراض مجاناً، والثالث مضيفة للعزاء ومقر لمحو الأمية وتحفيظ القرآن، والرابع مقر جمعية صقر التي تستقبل كافة المحتاجين لصرف الإعانات الشهرية ويتولى الإشراف على الثالث والرابع بركات السكري..

انتشرت في أنحاء المنطقة لافتات ومطبوعات دعائية، ومكيروفونات تحملها السيارات تلف وتدور في كل الشوارع والحواري تعلن بدء نشاط المؤسسة الخيرية..

- هلموا إلى دار صقر.. كل من يحتاج علاج.. إعانة.. حل لمشكلة، يتوجه إلى دار صقر.

مع أول يوم للمشروع دعا مساعديه للاجتماع، وحرص فيه على أن يوضح لهم الأمور التي يجب أن يكونوا على علم بها:

- أنا مجرد منفذ لمشروعات السيدة حرمنا.. هي صاحبة المال والفكرة وكل شيء.. أنا ساعٍ فقط في الخير.. وقد أصرت أن تكون المؤسسة باسمي.. وبالكاد قبلت أن تسمى العيادة باسمها..

تدحرجت حبات المسبحة بين أصابعه وهو يقول لهم: أي سؤال.. أي استفسار.. لكنهم لم يتساءلوا عن شيء ولم يستفسروا، وشكروه وامتدحوه وهتفوا بحياته.. في البيت سألته نرجس عن المؤسسة الخيرية التي يتحدث عنها الناس في كل مكان، وكانت قد خرجت إلى الخياطة، وانهال عليها الناس بالشكر وكالوا لها المديح، وانهمرت الأدعية لها بالصحة والولد والهناء مع زوجها رجل البر والإحسان..

- فهمت منك أن هذه المؤسسة ملك رجال أعمال وليست ملكك، فلماذا سميت باسمك؟

- وهل هذا يغضبك؟

- لا يغضبني، لكني أتساءل لماذا لم تكن بدون اسم شخص محدد، أو تكون باسم أحدهم، ولماذا اسمي أنا أيضا على العيادة؟ أسئلة كثيرة، هناك أمور مجهولة تماما بالنسبة لي..

هل كان يعرف أنها ستسأله؟. ليس ساذجا إلى درجة ألا يستعيد بالإجابة.. لكن الاستعداد شيء والمواجهة شيء آخر.. فنظرات عينيها لابد أن تدخل في الحساب..

ابتسم لابنته التي لم تكمل عاما بعد.. وتقدم منها.. داعبها، ثم حملها بيديه من تحت إبطها ورفعها عاليا.. فتحت فاها رعبا، لكنها كانت قد تعودت على مداعبته الوحيدة.. هبط بها ثم قذفها إلى أن لامس ظهرها السقف، والطفلة الجميلة التي تشبه أمها بوجهها المستدير الأبيض تتغير على ملامحها المشاعر بين الفرحة والرعب، بينما عيناها عليه إلى أن تسقط وتستقر في أحضانه، ويعاود قذفها..

- لم تجبني.
- من يترك هذه الجميلة ويرد على أسئلة أجاب عنها من قبل؟
- لم تجبني يا يحيى.
- أجبتك يا نرجس.
- لا بأس.. أجبني مرة أخرى.
- يا سيدتي.. قلت لك من قبل وأنت لا تريدين أن تقتنعي، مصرة على ما في رأسك.. لا تتصوري أن هناك ناسا تحب الخير وتنكر أسماءها.

أخذت منه البنت ووضعتها في المشاية.. وحطت في فمها اللهاية، كي يتفرغ لها..

قالت:

- أعرف أن هناك من ينكرون أسماءهم من أجل مشروع عام، من أجل مسجد، من أجل مستشفى، من أجل أي خير للناس جميعا..

- هذه المؤسسة للناس جميعا.

- أعلم، ولكنها مؤسسة صقر وعيادة نرجس.

- أمري إلى الله.. كنت أحب أن يبقى الموضوع سرا.

- شفت إنك تخفي عني أشياء.

- المسألة أنها لا تستأهل.

- تستأهل أو لا تستأهل، من حقك تعرف عني كل شيء، وأنا من حقي أعرف عنك كل شيء، ومن يخفي شيئًا لا يكون إلا خائنًا.

- يا نرجس تيك إت إيزي.. خليكي إنجليزي..

- المهم.. خش في الموضوع، ما هذا السر الذي أخفيته عني.

- يا سيدتي.. تعرفت على عدد من رجال الأعمال الذين يتاجرون في السيارات وفي غيرها، وفي جلسة من

الجلسات وكانت في فيلا واحد منهم اقترحوا علينا نساعد مرضى معهد الأورام، واقترح آخر أن نساعد في تأسيس جمعية لكفالة اليتيم.. شعرت يومها بأني ضعيف وعاجز من مجاراتهم، وتمنيت لو كان عندي أي مبلغ كنت أشارك معهم.. ولمحني الحاج مبارك وسألني.. صارحته بإحساسي.. وتحدثنا كثيرا في هذا الموضوع، وخرجت وأنا نفسي جدا وأملي أكون من المشاركين بقوة في أعمال الخير.. لن تصدقي يا نرجس..

- أصدقك..

- في اليوم التالي.. كان يوم أحد، لا.. يوم اثنين.. والاثنين مهم عند ربنا، جاءني رجل من ديرب نجم بلدنا وقال لي خالتك ماتت. سافرت ودفنت، وفوجئت بالعمدة يقول لي على جنب: مستعد أشتري الثلاث فدادين وربع بأي سعر، إنت عارف، أرض خالتك جنب أرضي.

- أي أرض؟

- خالتي ماتت دون أن تنجب وأنا الوارث الوحيد.

-......... !!

ضربت كفا على كف من حكمة ربنا.. نويت على الخير، وقبل أن تمر ٤٨ ساعة انصب في حجري.. قالت لا يدخل جيبي منه مليم، هو لله ولعباد الله، ورحت للجماعة واتفقنا.. مضت نرجس تنظر إليه.. تحاول أن تفك خيوط اللغز، لم تستطع.. قالت له: ولماذا لم تحدثني بهذا من قبل؟

* * *

مرت الأيام والناس تعودت أن تسأل، وعمدة الأسئلة هو:

- لماذا كل هذه الخيرات؟

قال أحد كبار السن:

- لعل نرجس تحاول أن تخفف من آثام أهلها، فكم مصوا دماء المستأجرين في الأرض الزراعية، والعمال في المصنعين اللذين استولت عليهما الثورة بعد التأميم.. خاصة أن أخاها كان مغرورا ولم يعترف أبدا بهذا، وكان ساخطًا على الثورة ورجالها وعلى الناس أيضا..

لم يعد هناك بيت لا يتحدث عن جمعية صقر الخيرية وأعمالها، أقبل الناس بالآلاف للحصول على المساعدة، والعلاج، وصرفت إعانات ثابتة للطلبة والمحتاجين واليتامى،

وأقيمت موائد الرحمن لإفطار الصائمين في رمضان.. في الثلاثة طوابق تصف الموائد، ويعد الطهاة طعام الإفطار، وكل يوم يذبح رجال صقر عجلاً سمينًا يأكل منه نحو ألف صائم..

الجديد هو مجلس الحكماء ويرأسه الشيخ إبراهيم الذي يختص بحل أي نزاع من أي نوع، بدلاً من المعارك والعنف وبدلاً من الشكوى للشرطة أو رفع الدعاوى.. كل مشكلة بين طرفين تعرض على الرجال العقلاء..

خير يتدفق بقوة ويسع الناس جميعا، والأموال تنفق بلا حساب ولا بأس من قبول تبرعات الأغنياء..

لم يعد في الحي واحد لا يتحدث عن يحيى صقر.. حتى الأطفال يعرفون من هو وماذا يقدم، لأن صوره مع لافتاته في كل مكان وهو داخلها يبتسم ويلوح للناس بيده قائلاً:

تعالوا..

كان ضمن رجاله محسن اللبودي مدرس التربية الرياضية ويوسف المحامي ابن الشيخ الذي كان يقول لوالده:

- كله خير ما عدا مجلس الحكماء الذي ترأسه.. عطل علينا كثيرا، وكان أبوه في الغالب لا يرد عليه، لأنه غير راضٍ عن منهج ابنه كمحامٍ.. أما علي جودة فقد أرسل إليه يحيى كي يعمل معه ورفض علي بحجة أنه مشغول، ولما التقى بيحيى مباشرة، قال له يحيى ساخرا:

- وقتك يتبدد مع ملاك..

اضطر علي أن يقول:

- الدقيقة مع ملاك تساوي ساعات مع غيره.

كان علي متشككًا في يحيى ومصادره وأهدافه، وأفضى بشكوكه لصديق عمره نبيل، قال له: إن شكوكه في غير محلها.. كل شيء أصبح واضحا، بعد أن عرفنا أنها أموال زوجته مع التبرعات وتسهيلات الحكومة.

تحدث يحيى بنفسه في عدد من الجلسات مع الناس حول مشروعه الخيري وذكر بعض أسماء المتبرعين من رجال الأعمال وطالب بالمزيد من التبرعات ليتواصل نهر الخير.

(٢٧)

ارتبط بها ارتباطًا شديدا وملأ بها روحه، أصبحت صورتها أنيسته ليل نهار، وغدا في حالة شرود دائم، هائما وراء طيفها.. أسيرا لخيالها، إذا تحدث إليه أحد يحسبه هي التي تتحدث بصوته.. وكيف لا يكون كذلك وصوتها الرقيق في أذنيه، وفي عينيه دائما وجهها وابتسامتها الوديعة تضيء ملامحها الدقيقة وعيناها العسليتان اللامعتان..

يجلس يس في البيت ساكنًا، وفي المقهى ساكنًا، وفي الشارع يسير بوداعة لافتة للنظر، كأنه ينتظر من رسولها الوحي.. وهاتفها النوراني أن يجيئه في أية لحظة، فلابد أن يكون مستعدا بالتركيز والدعة والإنصات.. يسأله عابر:

- مالك يا عم يس؟
- أبدا.
- كويس؟
- الحمد لله.
- تأمرني بأي خدمة.
- شكرا.

يمضي في طريقه تاركًا قدميه تهمسان على خدود الأرض بآثار لا تبين.. أحيانًا يتساءل هو نفسه.. أليس غريبا أن يكون في الستين ويغمره هذا الحب حتى لينشغل به عن كل شيء إلا عن صاحبته. البنت الصغيرة المهذبة.. لقد أراد أن يدنو منها فأصبح هادئًا مثلها.. يسير في حاله، لا يلتفت كما كان يفعل من قبل، ولم يعد يدفعه الفضول ليطل في الدكاكين ليتعرف أخبار الناس، ولم يعد يتطلع إلى البلكونات ليرى الغسيل، ويلوح لمن يطل منها إذا كان يعرفه، ولم يعد يحيي كل من يمر به وإذا حياه أحد اكتفى بالرد عليه باقتضاب.. هذا إذا سمعه. في الأغلب لم يعد يسمع ما يجري خارج روحه، هو فقط يسمع ما يأتي من الداخل.. وينظر إلى الداخل فيرى عالما جديدا يتشكل.. مدينة كبيرة مسحورة يبنيها البناءون من أبناء كيوبيد.. مخلوقات صغيرة جميلة.. صبيان وبنات عرايا لا يزيد أكبرهم عن الخامسة.. ملحمين "وماظاظين". لهم أجنحة صغيرة، يمشون إذا شاءوا ويطيرون أيضا.. لا يحملون سهاما وأقواسا، لكنهم يعملون باهتمام وإخلاص في بناء مدينة الحب الجديدة على أنقاض مدينة قديمة في قلب يس الفار.. كانت مدينته قبل زلزال ناهد

عبارة عن أطلال وخرائب. جدران مائلة وطلاء مهترئ وأشجار محروقة دمرت الكثير منها مدفعية جندية.. أم هنية، وبالمدينة أيضا ترع بها مياه خضراء آسنة، تسقط عليها بقايا الأشجار فتتعفن، ويتصاعد الدخان من هنا وهناك كأنها شهدت معارك حامية، انتهت منذ قليل ولا يزال غضبها يتنفس.

سعيد هو لأن السكري لاحظ شبابه وصحته وإهابه الجديد، واقتنع بأنه سيصبح غنيا، وناهد في عينيها الرضا والقبول، ولا يبقى إلا أن يتحول الكلام إلى فعل، والتلميح إلى تصريح والنقر على الباب إلى دخول..

- عندما كنت إلى جوارها في حديقة ناصر، ولمست يدها الناعمة أحسست ببدني ينتفض وأعصابي تتوتر وتنتشر في كل خرائط الجسد، هذا الجسد الذي اعتقدت يوما أنه مات. ها هو ينهض ويصهل كحصان يتأهب للركض في سباق كبير. بصراحة وبدون خجل فرحت فرحا كبيرا، وإن كان غامضا في البداية، وسرعان ما أصبح زهوا، إنني إذن حي.. حي.. وقد مضى زمان جندية أم العيال، المرأة القديمة المسيطرة التي أخمدت حواسي وخنقت شهوتي، ودفنت كل

مواهبي أما عندما لمست يد ناهد التي سألفها في حرير، وجدت نفسي أهب من مرقدي.. أنا حي يا أولاد.. أنا حي.. والحي كله سيرى من أنا..

(٢٨)

كانت الطيور البيضاء المحلقة في سماء مصر القديمة وبالذات في مناطق وعزبة غراب تغرد للصباح الجميل الذي توحي ملامحه واندفاعات ناس الحي أنه سوف يشهد لحظات ابتهاج مخطوفة خطفًا من الأيام المبللة بالملل.

كانت البداية قرار حافظ أن يتزوج هنية في اليوم التالي لخروج أخيه من السجن الاحتياطي، ولما تحدد يوم خروجه طلب حافظ من هنية وأهلها الاستعداد لعقد القران والزفاف وإقامة حفل كبير بالمناسبتين معا..

عزم جمعة أن يغني لأول مرة أمام الجماهير في هذه الليلة، وفي الاتجاه الآخر عزم أبوه أن يتقدم بشكل رسمي إلى بركات السكري يطلب يد ابنته ناهد، فقد فتح شهيته المحامي الذي تجاوز السبعين ويتولى القضية منذ عشرين عاما عندما قال: القاضي على وشك النطق بالحكم، ربما في الجلسة القادمة بعد ثلاثة أسابيع.. الأموال في الطريق فما الذي يمنع من تحقيق الآمال...

* * *

في يوم فرحها استولى عليها فجأة إحساس بأنها ترمي نفسها للذي لا يلائمها، وأنها فرارا من العنوسة رضيت بشخصية متواضعة جدا في السلم الاجتماعي، كانت قد تعودت أن يقوم نبيل بالتفكير والمقاومة بدلاً عنها، لكنه هذه المرة وافق، ولم يعلق بكلمة، ولم تتح لها الفرصة كي تدهش، فقد علمت أن حافظًا كان يجري للحصول على تأشيرة سفر لنبيل.. سعى هو للتأشيرة ودفع أخته ثمنًا لها وليته حصل عليها، لكنه لم يكن قادرا على سحب كلمته بعد ضياع التأشيرة والكردان معا.

- وعندما علم أن أخاه تاجر مخدرات وسيدخل السجن لا محالة، لم يعلق بكلمة.. ماذا جرى لك يا نبيل؟! لما كنت عاطلاً لا تحتكم على مليم كان لك رأي قوي ورأي مرفوع، ولما ذقت طعم النقود ضعفت وانكمشت وانحنيت، هل يا ترى تحني النقود الرقبة، وتخلع من القلب استعداده للمقاومة والتضحية، أم لأنك تعمل عند يحيى صديق حافظ.. رد.. انطق.. أين أنت الآن يا نبيل لكي ترد علي وترد عني.. لم أعد أجدك.. لم أعد أجد أحدا ولا حتى أبي الذي أصبح شخصا آخر، دائما ساكتًا، شاردا وأمي فرحانة.. تحس

أنها القوة الوحيدة.. هي الأب والأم، ولا يوجد في البيت شخص آخر غيرها.. هذا هو النظام الأسري الجديد.. آه، بيتنا لم يعرف الفرح من خمس سنين.. من يوم فرح راوية.. مجرد ليلة.. حصتنا في الفرح ليلة واحدة كل خمس سنين، هناك من يفرحون كل يوم.. قلبي مقبوض. هل يمكن أن أرفض أم فات الميعاد؟.. ومن الذي سيوافق على رفضي؟ لن أجد أحدا.. الكل يريد ذهابي بأي صورة، وأنا نفسي أريد ذلك ولو من قبيل التغيير.. الحياة تمضي ولا تهتم بأمثالي.. علي أن أركز في أحوالي.. يمكن أن تكون هناك حياة أفضل عند حافظ.. حالة جديدة تخرجني من الملل والتكرار..

جاءها من راديو الجيران صوت فايزة أحمد.

- أنا قلبي إليك ميال.. ومفيش غيرك على البال.. أنت وبس اللي حبيبي.. أنت وبس اللي حبيبي.. مهما يقولوا العزال.

حاولت أن ترتدي فستان الأغنية.. أحست أنه على غير مقاسها.. مضت إلى حجرتها وفتحت دولابها وهي تعيد تذكير نفسها بأن حافظًا قال إنه اتفق مع الكوافير على استقبالها الساعة الرابعة عصرا، وأنه سيمر عليها هو

وأصحابه بالسيارة المزينة والموتوسيكلات الساعة السابعة ليصحبها إلى محل التصوير، وبعدها يتحرك الفوج كله إلى قاعة الأفراح بالنادي الرياضي المجاور لاسطبل عنتر..

كان موعد خروج سلطان الساعة العاشرة والنصف.. قام حافظ بتوصيل الأولاد إلى المدرسة في السابعة والنصف.. وراح يتناول فطوره.. الفول المعتاد بالزيت الحار عند شكورة.

بعد الفطور كان لابد من الشاي وحجري الشيشة. أصبح الآن جاهزا للذهاب إلى محكمة وسط القاهرة.. اصطحب أخاه إلى بيته.. أكد يوسف إبراهيم المحامي أنها مؤامرة وسوف يخرج منها سلطان كالشعرة من العجين، انصرف حافظ ليعود إلى مدرسة النديم.. يأخذ الأولاد إلى بيوتهم ويستعد للفرح.. لم ينس أن يؤكد أن الفرح ليس من أجل الزواج ولكن من أجل سلطان.. والفرح الكبير يوم البراءة وإغلاق ملف القضية تماما..

باقي على خروج التلاميذ عشر دقائق.. فتح لهم باب الأتوبيس واتجه إلى المقهى ليشرب حجرين..

من المحتمل أن يكونا آخر حجرين هذا النهار.. وربما يمر موافي العجلاتي بتعميرة.. تذكر شكل البذلة الكحلي التي اشتراها.. ها هو التطريز الفضي على الصدر والكمين..

- سوف تكون قنبلة الفرح.

أرسل نظرة إلى الأتوبيس.. سوف تكون التوصيلة الأخيرة وبعدها يغيب عن المدرسة أسبوعا كاملاً، لا عمل فيه على الإطلاق.. إلا الأكل والنوم ويذوق في الحلال طعم النساء.

أمسك بخرطوم الشيشة ودس طرفه في فمه وامتص بقوة وتلذذ.. ملأ فمه وشدقيه بالدخان، كتمه طويلاً واستشعر تأثيره على أعصابه وأعماقه.. إحساس غامض لا يستطيع تفسيره، لكنه يشمله إذا دخن الشيشة. شعاع من الضوء يسري في بدنه وينير سراديبه، قبلها يكون الجسد كتلة مصمتة من اللحم، ثقيلة ومعتمة، يطلع هذا الإحساس إلى رأسه، فيوشك أن يتوقف عن العمل ويمتنع عن التحدث إلى الناس، وإذا تحدث ثار لأتفه الأسباب، هو الآن يخف ويخف وتنهض من كهفها أعصابه، تتفتح جميع الخلايا، كأنه كان

بالونة منكمشة ومطفأة، ولما اندفع فيها الهواء الذي هو روحها وحياتها، تمددت وانتشرت وخفت ورقت. شرعت تتهادى يمينًا وشمالاً مع النسمات، وهي راضية راغبة، ومع أول هبة لريح حنون تطير وتتمايل، وتكاد تعانق كل من تلقاه..

يسحب الدخان. يفتح عينيه إلى أقصاهما ويشد عروق وجهه وأعصابه مع أعصاب وعضلات فمه الذي يتولى المهمة المقدسة، يبدو كأنه يريد أن يمتص العابرين والدكاكين والسيارات التي تمرق أمامه، نهم مجنون لاحتواء العالم وابتلاعه وكأن سحب وشفط أكبر كمية من الدخان، ربما تنفخه فيكبر ويتضخم وينال ما يتمنى ويقدر على ما لا يقدر عليه الآخرون..

وهو يفتح عينيه إلى أقصاهما رأى المنظر، لكنه لم يصدق، لأنه لا يفتح عينيه ليرى بهما، يفتحهما ليشارك دون أن يدري في سحب الدخان وابتلاع العالم، ولما نفذ المشهد داخل عيونه وفرض نفسه على عقله الشارد، وضغط عليه، رأى... ولما رأى لم يفهم. ولما فهم لم يتحرك.. ولما تحرك تعثر.. ثم نهض واندفع، وقد تحول الدخان في جسده إلى

بركان.. شق الطريق فجأة بجسده الأعمى.. كادت السيارات تدهسه.. توالى خروج الكلمات المحمومة:

- يا نهار أسود، مصيبة.. مصيبة كبيرة وحطت..

كان أتوبيس المدرسة الذي تركه بعض الوقت حتى يحين ميعاد خروج الأولاد يتحرك وحده حاملاً بعض الأولاد، وكان عشرات الأولاد يتجمعون أمامه.

في البداية أوقع الأتوبيس السكرتيرة ناهد السكري التي كانت تعطيه ظهرها.. ركب فوقها ثم تقدم نحو الأولاد. أخذ يطويهم تحته واحدا بعد واحد.. البعيدون عدة أمتار يرونه فيذهلون.. يتخبطون.. يقعون.. الأتوبيس يمشي فوق اللحم هادئًا واثقًا.. ومصمما.. العجلات تهرس الأجسام الصغيرة والحقائب.. تهشم الرءوس في هدوء.. تنزع الأرواح وتعجن الضحايا.. تسيل الدماء وتحطم العظام وتكتم الأنفاس ببطء.. ببطء شديد.. ذهول ملفوف بلحظات صمت ناتجة من تجمد الحياة وتوقفها، هل هكذا الحياة عندما ترى الموت؟.. أخيرا انكسر حاجز الفزع والدهشة وانفجر الغضب.. ولولت النساء وصرخ الرجال. أسرع بعضهم يقفون في طريقه ويدفعونه بأيديهم حتى تتوقف مناجل الموت

عن حصد الأرواح الصغيرة الرقيقة البريئة.. كان الجميع يتقافزون بأصواتهم وهرجهم في مقلاة المصيبة..

ذاب حافظ وسط الذين انطرحوا على الأرض.. يزحفون تحت الأتوبيس.. يسحبون بعض العيال أو بقاياهم، ويرصونهم إلى جوار الحائط إلى أن تحضر الإسعاف.. منهم من كان سليما لكنه انهار تحت سيطرة الصدمة الثقيلة، ولما جاءوا بالماء ورشوه عليه أفاق، وهب واقفًا مذعورا، أما من كان تحت العجل فلم ينطق بحرف..

التم الناس.. توقف الطريق. زادت النار اشتعالاً بحضور أهالي التلاميذ.. دب الصوات محاولاً تحرير اللوعة.. وانطلقت الآهات من القلوب المكلومة.. سألت إحداهن عن السائق وهجمت عليه، شاركها زوجها وأهلها وكل من يعرفونهم وأنقذه قبل النهاية آخرون.. الدماء تسيل والأجسام الصغيرة تفرفر بداخلها الأرواح المهددة بالموت، وقد تعلقت بها بقايا حياة.. الأهل يقلبون فيها وهي على جانب الطريق مركونة، وهم يبكون وينادون الله في توسل وتضرع أن يلطف بهم ويبقي لهم فلذات أكبادهم..

أخيرا جاءت الإسعاف وحملت من الأولاد خمسة عشر ومعهم ناهد..

مأساة عاشها الحي كله.. كان بينهم حافظ فاقدا النطق، بعد أن كف عن الولولة. سكت وظل مكوما على الرصيف، أعماقه ثائرة حائرة مذهولة، لا يعترف حتى بينه وبين نفسه أن ما رآه يمكن أن يكون قد حدث فعلاً.. على ثقة أنه كابوس.

- يمكن العيال فكوا فرامل اليد، الأرض فيها ميل.

وقد حدث للحظات أن أفاق من غيبوبة الصدمة فرأى هنية بعيون الأسف والإحساس العميق بالضياع، باحثًا عن سبب. تحدث إلى نفسه:

- ليلتها شؤم بنت القديمة.. يوم الخطوبة قبضوا على أخي، ومؤكد من طلبوها قبلي إما ماتوا أو نقلوا إلى المستشفيات، وربما دخلوا السجن، ولعلهم نجوا من هذا كله، لكن النحس أصابهم وتغلغل في عروقهم ليصيب الأبناء والأحفاد.. أعوذ بالله. علي الطلاق بالثلاثة ما تكون زوجتي أبدا طالما كنت حيا..

لم يفكر حافظ في مجرد النظر إلى يس والد عروسته وهو يقلب في بدن ناهد يسألها الحياة، كانت جثة هامدة.. نظر إليه بجمود ورآه وهو يبكي ويكاد يختنق بدموعه ولوعته، من فرط الذهول وصدمة الفجيعة المباغتة التي أطاحت بأحلامه في ذات اليوم الذي عزم فيه على أن تكون خطيبته.

بقي حافظ غارقًا في صمته المضمخ بالأسى وعيونه الحمراء تحدق خارجة من كل نقطة في جسده المرتعد، إلى أن جاء الشرطيان وسحباه إلى القسم.

أما يس الفار فقد تشجع وقرر أن يغادر ساحة المأساة المفاجئة، وعزم على أن يسير حتى ينتهي العالم. خطا عدة خطوات مهتزة، لكنه واصل دون أن يعرف على وجه الدقة إلى أين يمضي.

أحس بعد قليل أنه يتناقص.. يتفكك قطعة قطعة.

سقطت عدة أصابع وتلتها الأنف، انسلخ قدم وساق وتلتهما ذراع كاملة. لم يحس بسقوط أذنيه معا، ولكنه أحس بذراعه الثانية وهي تنخلع وتتدلى إلى جانبه، ثم تنفك تماما وتسقط.. ولابد أنه أحس بصوت ارتطام واضح جدا، كما

لابد أنه أحس بما يشبه العري عندما سقطت مؤخرته، وبرغم ذلك ظل يسير، دون اتزان كامل، لأنه ظل يستشعر تلك الكينونة المفككة، وتتسلل إلى أعماقه رغما عنه رجرجة السماء واهتزاز الشمس المتسارع، وانشطار عدد من الكواكب وتهاوي الشهب، ومضى مخلصا يحاول الخروج من دائرة مصر القديمة.. دائرة العيون التي تعرفه وتنفذ في خلايا جسده الباقي.. كان يود لو تبقت له بعض الأعضاء كي تحزن على ناهد وتأسى لفراقها.

رغم ما خسر حمد الله أن أبقى له عينيه حتى إذا أراد أن يبكي قدمتا له المساعدة.. وحتى إذا ما أراد أن يرى طيف الراحلة أعانتاه على ذلك، وقد كان يخاف دوما الشعور بأنه لا يراها ولا يرى طيفها بعينيه، لكنه مع ذلك كان طامعا أن يطالع بهما طيفها الجميل وهو متلفع بغلالة شفيفة، وعيناها السوداوان الواسعتان، تمتدان بعرض الدنيا كلها، ودائما على الشفاه بسمة مشجعة.

قبل أن أسافر إلى أسيوط، مررت على أمي وأختي لأكذب عليهما قائلاً إني أسافر في مهمة.. علمت من آية أنها وصلت.

نقرت نقرتين على بابها.

وتركت لها قصاصة تحت عقب الباب:

"هأنذا أراكِ يا حبيبتي مقبلة تتهادين كنسمة الربيع.. بقوامك الذي يشبه النخلة الرفيعة.. مرفوعة الرأس يداعب الريح ضفائرك، وتزين الثمار الحمراء خدودك وجيدك.

تكاد قدماك لا تلمسان الأرض وأنت تخطين كراقصات المعبد، وتتماوج ذراعك ويداك في دلال كأمواج البحر.. صوتك يحمله إلي النسيم من بعيد كرنين قيثارة الحب..

هأنذا أراكِ يا حبيبتي مقبلة، فيبتهج قلبي وأمد ذراعي لأضمك إلى صدري، ويهتز قلبي فرحا وأنت تهمسين: حبيبي لا تبتعد عني..

عزيزتي: هذا ما قاله سنوحي لحبيبته الأميرة الجميلة تيكاهيث..

أرجو أن ألقاك صباح غد الجمعة عند الباب الخلفي لمدرسة المعوقين.

* * *

مضت بنا الأقدام من شارع بيوت العرب متجهة شمالاً.. صعدنا الكوبري الجديد ودرجاته العريضة، سرنا فوقه مطلين على الطريق الذي تحته.. طريق منطلق بسياراته قادما من كورنيش النيل إلى شارع صلاح سالم مرورا بكوبري الخارطة.. تسبقني في شارع الحجارة إلى أن تصل إلى شارع العبيط.. تنتظرني ونمشي معا.. الشارع كبير والناس أقل وكل واحد مشغول بأحواله. نصل إلى شارع ماري جرجس ومحطة مترو الأنفاق.. ومجمع الكنائس، شارع هادئ جدا تظلله الأشجار وتخف فيه الحركة إلا القليل من المارة القادمين من شارع حسن الأكبر، حيث جامع عمرو والورش والمحلات المجاورة..

كنيسة العذراء على يميننا وبقايا حصن بابليون، بعده على نفس الصف، كنيسة ودير مارجرجس.. نهبط درجات

السلام.. نرسم خطواتنا على المربعات الحجرية التي تحت أقدامنا، تمضي بنا في حارة ضيقة وهادئة.. أستشعر كأنها جزء من معبد، وكأنني أمشي بين عباد لا بين جدران وأسوار لأديرة.. بعد أمتار دير ماري جرجس للراهبات.. تطلب صديقتي أن تلتقي بالأب فرج.. الأب في خلوة يرجو ألا يطرق أحد بابه اليوم بطوله.. باب الدير يزيد ارتفاعه على ستة أمتار.. عالٍ جدا ومهيب، ورغم مرور القرون، فما زال قويا وأحد العناصر الأثرية في الدير.. جلسنا في حديقة الدير بعض الوقت، نرقب الداخلين للزيارة ونوال البركة.. بالمثول أمام آثار الشهيد والسير على طريق سبق أن داسه ويتنفسون هواء سبق أن تنفسه..

سألتني الجميلة وهي تقدم كلمة وتؤخر كلمات.

- هل أنتم تؤمنون بالمسيح؟

ابتسمت، فسألتني عن سر بسمتي.. قلت لها سألتني نفس السؤال من قبل وأقول لك:

- نؤمن به طبعا كما نؤمن بموسى وكل الأنبياء والرسل.. هكذا أمرنا الله في قرآنه ووصانا الرسول به. ففي سورة المائدة من القرآن الكريم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ما

الْمسِيح ابن مريم إِلا رسولٌ قَد خَلَتْ مِن قَبلِهِ الرسلُ﴾، وفي سورة البقرة: ﴿آمن الرسولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيهِ مِن ربهِ والْمؤْمِنُون كُل آمن بِاللهِ وملائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورسلِهِ لاَ نُفَرقُ بين أَحدٍ من رسلِهِ﴾.. الكل لدينا سواء، لكن عيسى على وجه الخصوص له مكانة خاصة، لأن له قدسية الميلاد ومعاناته مع المتربصين به وظروف وفاته، شابا لم يتجاوز الثالثة والثلاثين، في حين أن عددا كبيرا منهم يعمرون، وسيدنا محمد توفاه الله في الثالثة والستين، والأهم من هذا جميعه أنه نبي النصارى الذين قال الله فيهم في سورة المائدة:

﴿ولَتَجِدن أَقْربهم مودةً للذِين آمنُوا الذِين قَالُوا إِنا نَصارى ذَلِك بِأَن مِنْهم قِسيسِين ورهبانًا وأَنهم لاَ يستَكْبِرون﴾.

أنا شخصيا أحب المسيح بصرف النظر عن هالات التقديس الزائدة التي تحاط بها سيرته..

تعجبني فيه بشريته. إنسانيته. ليست المعجزات هي وسام المجد، لأنها من عند الله، ولكن سلوكه الجميل مع الناس ودعوته للقساة بعذوبة، هي التي تحبب الجميع فيه.. مسيحيين كانوا أو مسلمين، وكما تعلمين فإن نبينا محمد ﷺ ليست لديه معجزات إلا القرآن وهو من عند الله، لكنه

الإنسان الذي يحاول أن يضع نظاما لسلام البشر ومحبتهم، ومنهجا قويا يضمنون به فلاحهم في الحياة، وفوزهم برضا الخالق سبحانه، وهذا هو مجده وإسهامه الذي يستحق به حب البشر واتّباعهم له.

قالت الحبيبة وقد علت خديها حمرة:

- أحفظ سورة العصر..

- حقا!

- وسور أخرى مثل الكوثر والإخلاص والنصر.. وسورة ليلة القدر.

- رائع..

- أتحب أن تتعرف على درجة حفظي.

- ليس امتحانًا ولكن مصدرا من مصادر الفرح.. لأنني أفرح كما تعلمين بكل ما هو ثقافة.

- والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

- جميل.

- عندما حفظتها فهمتها على الفور، ما عدا كلمة وتواصوا – سألت عنها حتى فهمتها.

- ومعناها.

- أظن أن معناها أن الذين سينقذون من الخسارة، هم الذين يذكّرون بعضهم بكل ما هو حق وصواب وينصحون بالصبر و..

- ممتاز.. أنت مسلمة أكثر مني..

ضحكت وقالت: والآن.. هل يوجد من المسلمين من يقرأ الإنجيل؟

- نعم يوجد ولكنهم قلة.. لأن عندنا مشكلة.. الكتب الدينية التي تتناول الإسلام والعبادات والفقه والشريعة والأحكام والآداب السلوكية كثيرة جدا.. جدا لا يستطيع إلا القليل منا مطالعتها.. وكثرتها لا تعطي فرصة للاطلاع على غيرها.. وعلى أية حال لا تشغلي بالك بهذه المسألة.. هذا لنا وهذا لكم.. أنتم تفعلون كذا في حين أننا نفعل كيت.. المهم أن يكون الإنسان مهتما بدينه، أيا كان.. صحيح أن الإسلام هو الدين الخاتم.. أي الأخير والنهائي، وكان من المفروض أن يترك الجميع دينهم، ويتبعوا الإسلام، لا لأن المسيحية غير الإسلام ولكن لأن الأخير جاء مفصلاً وكاملاً، يشمل كل الأديان ويشمل كل المذاهب، وفيه كل الشرائع والنصائح التي

يريد الله أن يهتدي بها البشر في حياتهم، المسيحية ليست ملك أصحابها، إنها ملك لله، والإسلام ليس ملكًا لأصحابه.. الإسلام لله.. لأن الدين لله والوطن للجميع..

الأديان تشبه القرارات التي يصدرها الحاكم مع الفارق.. فالقرار الأول ينفذه الناس، ولما يصدر الحاكم قرارا أشمل من الأول وأحدث منه، ينفذون الجديد، فإذا أصدر ثالثًا فعليهم أن يتبعوا الأخير، لأنه جاء بعد تجارب وبعد القرارات السابقة التي ظهرت لها ثغرات عند التطبيق.

يذكرني هذا بالخمر..

- هل تشربها يا علي؟

- شربتها مرة، ولم ترق لي، ولم أعد إليها أبدا.. ذكرتني بما جرى بشأنها في بداية ظهور الإسلام.. قال الله في سورة البقرة وهي أول سورة، كما أظنك تعرفين.

- أعرف.

- ﴿يسأَلُونَك عن الْخَمر والْميسِر قُلْ فِيهما إِثْم كَبِير ومنَافِع لِلناس﴾... لاحظي قوله: فيهما إثم ومنافع، كان العرب جميعهم تقريبا يشربون الخمر وهي أنيستهم في أغلب

المجالس وكل الليالي، لذلك فلم ينزل أمر الله بمنعها وأبان فقط أنها يمكن أن تضر.

وبعد أن امتنع البعض عنها وظل البعض عليها، وتزايد عدد المسلمين وأراد الله أن يضع الشرائع التي تضمن استقرار البيوت وسلامتها، قال في سورة المائدة:

- ﴿إنما الْخَمر والْميسِر والأنصاب والأزلاَم رجس من عمل الشيطَان فَاجتَنِبوه لَعلكُم تُفْلِحون﴾..

- فهمت قصدك.. لكن..

- لكن لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي.

- يعني..

- يعني يكفي ما قلناه.. هيا بنا نمشي ونتحدث عن أنفسنا.. حدثيني عن الكلية والمحاضرات..

عبرنا خط المترو، وبلغنا النيل، أخذت كفها في كفي، أدنيت كتفها من كتفي وأسعدني النسيم إذ لطمني لطمات رقيقة من خصلات شعرها البني الناعم.

قالت: كل شيء على ما يرام.. لكن ما يشغلني حقا أنني كثيرا ما أسأل نفسي كيف يفكر علي في.. ما شكل

صورتي في خياله.. هل يستدعيني ويكلمني، أم أنني أمر على باله بالصدفة.. وهل أنا بالنسبة له كما هو بالنسبة لي..

- تسألينني هل..

قاطعتني باسمة:

- أسأل نفسي..

- أنا نفسك.. فاسمحي لي أن أجيب..

- أسمح لك..

- لا تصدقيني إذا قلت لك: إني جننت بحبك وإني فقدت قدرتي على التفكير في غيرك؛ ولم تعد سيرتك إلا فراشي بالليل وصورتك إلا رفيقي بالنهار.. لكن صدقيني إذا قلت إني أحبك حب العاقلين، إذا جاز أن يحب العاقلون، أو يكون لهم حب خاص.

أقول لك فقط إن حياتي كانت فارغة وجئت أنت فملأتها، وكان نومي كنوم الميتين فأطلت صورتك في الأحلام، تضيء الليالي الحالكة، وأجدني معك نسير ونسافر ونتعانق، نأكل معا ونضحك.. وفي آخر الأحلام رأيتني أركب مرجيحة وأنت إلى جانبي تركبين مرجيحة.. نتسابق

ونعلو وتقترب، عيونك على عيوني وعيوني عليك، لكن مرجيحتك تبطئ قليلاً فأصعد أنا وتهبطين وتصعدين وأهبط.

أهم محطة في حياة كل إنسان هي بداية الشباب لأنها نقطة الانطلاق لبقية عمره، فمن يسعده الله في هذه المرحلة بالعثور على نصفه التائه بين أبناء وطنه، بل أحيانًا يتوه بين أبناء الإنسانية جمعاء.. ويكون هذا النصف محققًا للتفاهم والانسجام، مفجرا للسعادة والأمل.. تصبح الحياة جديرة أن نحياها.. وقد حدث، فأنت نصفي الذي لا نصف غيره.. لذلك فأنت بالقرب مني دائما، قد لا أفكر فيك أحيانًا كثيرة، لكنك دائما في عقلي.. في نفسي.. في روحي.. في إدراكي. في قلبي.. في سمائي.. في أرضي.. في الشوارع.. في الطعام والشراب.. في الفراش وعلى المكتب، وفي كل مكان، قريبة من عيوني وأنفي وآذاني وأنفاسي وأطراف أصابعي ونبضي..

كلما تناولت طعاما شهيا تمنيت أن تسري حلاوته في شفتيك، وكلما شربت شرابا لذيذًا تمنيت أن يرويك قبلي، وكلما قرأت كتابا ممتعا وددت لو كنا نقرأه معا سطرا سطرا، وينتقل إلى عقلك ما انتقل إلي..

فجأة قلت لها: يا رب الدنيا تمطر، قالت فزعة: لماذا؟!

- هل تذكرين عندما هطل المطر في أحد الأيام منذ شهر تقريبا.. وكنا معا قد سرنا من بركة الحبش أقصد اسطبل عنتر حتى مجرى العيون. هل تذكرين؟

- أذكر أنك قلت بيتين من الشعر عن بركة الحبش.. شعر جميل، نسيته طبعا كعادتي.

- آه.. شعر أبي الصلت أمية الذي قال فيه:

لله يومي ببركة الحبش ونحن بي الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب كصارم في يمين مرتعش

- وأذكر أنك حدثتني عن مجرى العيون التي بناها صلاح الدين لتروي القلعة وجددها قلاوون، ثم هطل المطر.

- رائع.

- من عاشر القوم.

- وأخذنا نركض وحدنا تحت الماء.. حتى وصلنا إلى ميدان فم الخليج.. وقف كل منا قبالة الآخر لحظات ثم بدأنا الرقص.. كنا وحدنا والناس جميعا يجرون ويختفون في مداخل البيوت.

أضاء وجهها وهي تقول: أذكر.

- وأخيرا توقف المطر وتسللت أشعة شمس واهنة بين السحاب الرمادي المختنق.. ساعتها أخذتك في أحضاني وخبأتك فيها.. ضممتك بقوة.. ضممتك بقوة، وشربت المطر الذي كان لا يزال يتقطر على وجهك، شربته من جبينك ومن عينيك ومن فوق خديك ومن أنفك، ومن شفتيك وذقنك ورقبتك.. وعدت أضمك بقوة، أغمضت عينيك وأغمضت عيني وذبنا معا.. تماما واختفى الزمان.. لم أعد أحس به.. واختفى المكان لم أعد أعرف أين أنا، وبعد دقائق أو ساعة، أو ربما شهر.. تذكرت أن أتنفس من أعماقي، وأسرف في شهيقي، لعلك تدخلين مع الهواء إلى عمق أعماقي وتسكنين فيه إلى الأبد..

ضغطت الحبيبة على يدي وتطلعت إلي وكانت عيناها بحيرتين من دمع أحمر.. ولما فزعت أسدلت رموشها فانفطر الدمع وسال على الخدود.. سحبتها برقة وراء شجرة ومسحت دمعها.. ضممتها إلى صدري الذي كان كالطبل من وقع طرقات القلب عليه.

تنفست وهي مخبأة في صدري، وسمعت شهيقها العالي وهي تغرف من رئتي أنفاسها وتشرب من روحي هدوءها.. اعتدلت وأطلت في عيوني وقالت بثبات:

- ماذا بعد هذا الحب يا علي؟

أخرجتني من وجدي وإشفاقي عليها، غالبتني مسحة من الدهشة للسؤال المفاجئ.

قلت:

- بعد الحب.. حب.. مزيد من الحب.

- وبعد المزيد من الحب.

- أشعر أن حالتنا ستكون كحالة فيكتور هوجو وحبيبته جولييت دورييه وهي ليست أم أبنائه، وليس هو أب أبنائها.. أحبته وأحبها..

- ما حكاية جولييت.

كانت راهبة في حبه تعيش له وتسعد به وبكتاباته، تعد له أشهى وجبات الطعام وتنظم منزلها حتى يكون لائقًا به.. تهتم بأناقته وهندامه، وتغسل ملابسه بنفسها وتحرص على نظافتها. وقد كتبت إليه يوما: أرجوك.. مزق ثيابك حتى أستمتع بلذة رتقها، وكانت تنظم أوراقه وترتب مقالاته

وتنسخ رواياته، ولا تسمح لأحد من أبنائه أن يفعل شيئًا له، وبقيت كذلك خمسين عاما، أطال الحب عمرها، وقد وهبت هذا العمر كله للحب..

- هذا ليس حبا، هذه عبادة..

- ولماذا لا يكون الحب عبادة؟ المهم أن يدفعنا الحب إلى الجمال، ولو لم يفعل فهو جريمة.

- الغد يا علي.

- لا تفكري فيه، إنه ملك الله.

- سوف تمر الأيام..

- تمر.. الحب لا يكبر ولا يشيخ.. الحب دائما طفل وليد ولا داعي للتفكير في تقييده.. دعيه يجري كالطفل في الحديقة.. حرا بريئًا طاهرا..

- لن يدع المجتمع ذلك الطفل يلهو كما يشاء..

- تسلحي بالإيمان.. الإيمان بالله وبالحب وبالحبيب.

- الإيمان لن يحمينا ونحن نتلقى سخط الساخطين..

- كيف لا يحميك الإيمان بالله، الأمر كله، واحدة من اثنتين.. إما الإيمان أو الجنون..

- أظن الثانية.

- لا أذكر اسم الفيلسوف الذي قال: إن المحبة حين تكون صادقة مخلصة فإنها تنطوي في ذاتها على قيمة قاطعة تبرر وحدها شتى انحرافات الحب، والمسيح ﷺ هو الذي قال لم آتِ لدعوة أبرار، بل خطاة إلى التوبة، ونحن بالحب نتوب..

- علي..

- عيون علي..

- هيا بنا.. لقد تأخرت.

لن تذهبي قبيل أن تسمعي هذه الطرفة:

مر الأصمعي بجدار كتب عليه أحد الفتيان:

أيا معشر العشاق بالله خبروا.. إذا حل عشق بالفتى ماذا يصنع..

فأجابه الأصمعي على نفس الجدار:

يداري هواه ثم يكتم سره.. ويصير في كل الأمور ويخضع..

فكتب الفتى: وكيف يداري والهوى قاتل الفتى.. وفي كل يوم قلبه يتقطع.

فأجابه الأصمعي:

فإن لم يجد صبرا لكتمان سره.. فليس له عندي سوى الموت ينفع..

وفي اليوم التالي مر الأصمعي بالمكان فوجد الفتى ميتًا وقد كتب:

سمعنا، أطعنا ثم متنا فبلغوا سلامي إلى من كان للوصل يمنع..

ضحكت من قلبها وأشرق وجهها بنور الجمال وقالت:

- هذا شهيد الحب.

فرحت لفرحها وقلت:

- اللهم هذا حالنا لا يخفى عليك.

- يبدو أن مصيرنا المحتوم نفس مصير الفتى.

- صبرنا يا ماجدة وكتمنا.

وفجأة انسحبت البسمة وقالت بهدوء:

- حتى الصبر والكتمان لن ينفعانا.

- لا تحملي هما.

نكّست رأسها ومضت، وأنا أتابعها بنفس قلقة لا تستطيع أن تتجاهل السحاب الذي يتدافع نحو السماء الصافية.

(٣٠)

أراد الله أن يعمر الكون بالبشر الذين يحبهم، لأنهم أفضل خلقه، فزرع فيهم شهوة الجنس، وبهذا جذبهم لتعمير الأرض من ألذ الأبواب وأقواها، هذا ما قاله ملاك، لكنه فوجئ بتلميذه النجيب يقول له: التعمير الحقيقي لم يأتِ من الجنس، وإنما جاء من شهوة أخرى هي حب المجد والشهرة.. تناقشا طويلاً. لكن ملاك كان مستعدا للتسليم. وسرعان ما أطلت الأحداث من طاقة الأيام، ووقفت أمام سبورة ملاك..

وافقت اللجنة الدستورية العليا على أسماء أحد عشر متقدما للترشيح لمجلس الشعب.. بين عشرات الذين تقدموا له بطلبات، يحدوهم الأمل في العضوية عن دائرة مصر القديمة.. أبرز الأسماء د. شاهر لطفي أستاذ الاقتصاد. نبيهة ريحان محررة صحفية، مراد بخيت وكيل وزارة التموين، راغب راغب رئيس نقابة عمال المناجم والمحاجر، جابر وهيب مستشار مجلس الدولة، ومن رجال الأعمال، منير

زخاري ويحيى صقر، كما كان هناك ثلاثة من العمال المغمورين.

قام كل مرشح باختيار خبير في الحملات الانتخابية، وشاركه في وضع الخطة الدعائية.. اتسمت معظم الخطط بالتشابه الشديد بينها وبين الخطط الحربية.. قيادات الحملة.. مواقعها.. أساليبها.. أسرار الخصوم.. نقاط الضعف.. نقاط القوة.. الاستشاريون.. مصادر التمويل.. أوجه الصرف.. العقبات.. الإعلام.. المندوبون.. المطبوعات. السيارات. الإكراميات والرشاوى. الخرائط الكاملة للدائرة بأحيائها وشوارعها وحاراتها، أسماء العائلات الكبرى، أسماء الشخصيات المهمة. أعضاء المجلس المحلي. أعضاء النقابات. المدارس. المستشفيات. المواقع ذات التجمعات الكبيرة..

انطلق الرجال والشباب والنساء ينفذون الخطط. انتشروا على الأرض الدائرة بجدية، وعزيمة لا تعرف الكلل.. لا تفكير في طعام أو شراب.. لا تفكير في راحة أو نوم.. خصص لهم المرشحون مرتبات وحوافز مغرية، ربما أضعاف ما يحصلون عليه من جهاتهم الأصلية.

معظمهم أخذ إجازات من أعمالهم.. ومنهم من أغلق أبواب متجره بعد أن حسبها جيدا، آخذًا في الاعتبار مكاسبها العاجلة قبل النتيجة، ومكاسبها الآجلة بعدها، فقد ينجح مرشحه وعندئذٍ لن يتوقف نهر الخير.

لم يترك رجال المرشحين مربعا صغيرا أو كبيرا في الفضاء إلا وشدوا عليه أقمشة الدعاية، وأقيمت السرادقات الكبيرة ليتحدث فيها المرشحون إلى الشعب عن برامجهم، وماذا أعدوا من أفكار لتطوير الحي وتلبية الحاجات وتوفير الضروريات، ونقل الدائرة كلها من حالها البائس إلى حال الرخاء والرفاهية، وتنعدم تماما كل أسباب الشكوى، ويأمل الجميع في المستقبل الذي يحمل إليهم رجالاً مخلصين.

اختار صقر لحملته يوسف إبراهيم المحامي يساعد محسن اللبودي ونبيل الفار وفتحي الدمنهوري ابن خالة صقر.. اختار يوسف شعار للحملة أرضى يحيى جدا وأثار إعجاب مؤيديه وحسد منافسيه..

الشعار هو (نحن لا نتكلم. نحن نفعل فقط)، ومن هذا الشعار كتبت العديد من العبارات التي تستلهمه وتنبعث منه (آن أوان الفعل.. كفاية خطب) (أطلب تجد) (نعتذر عن

الكلام، لا نعرف إلا الأعمال) (انقضى تماما زمن الثرثرة) (لا تستمعوا إلى وعود) (زرعتم ويحيى صقر يدعوكم لجني الثمار)..

لكن الشعارات الجميلة البليغة لم تنزع تماما من العقول والذاكرة حقيقة راسخة هي أن يحيى صقر مجرد سائق غير متعلم، وهو بالطبع غير قادر على أن يمثل الدائرة في البرلمان. الأحق بذلك رجال يملكون اللسان والتعليم والثقافة والخبرة مثل د. شاهر لطفي ونبيهة ريحان والمستشار جابر وهيب..

تسلل القلق إلى قلب صقر بقوة لأن مسألة ماضيه المتواضع، وإثارة الشك حول مصادر أمواله المفاجئة امتدت وانتشرت وسمعها رجاله في كل مكان. أثارت البلبلة وسممت ضده الأفكار. وعبثت بقناعات البسطاء.

لم يكن ينام غير ساعتين في النهار، لقد خطط جيدا كما نصحه مستشاروه، أولهم الصول عواد النمس.. وطوال شهور أنفق بسخاء. حقق صيتًا بلا حدود، نفذ إلى البيوت. حفرت صورته في الذاكرة وتردد اسمه على كل الألسنة. أصبح حديث الناس في كل ميدان وكل زقاق، لكن هذه البقعة

في سيرته تركض بسرعة وتنتقل في لهفة، كما تمرق النار بين أكياس القطن أو الكتان.. مسألة مثيرة لشديد القلق، بل الفزع لأن المشروع كله بداية من زواج نرجس يوشك على الانهيار بصورة مدوية..

ألم يجهز القاعدة كما يقولون: رفع المعاناة عن المئات وأطعم الآلاف وكساهم وعالجهم.. جاد بالملايين غير ناقم ولا نادم، حتى قيل عنه إنه يصرف بغشم، لكنه راضٍ وسعيد لأنه يسمع الدعوات، وللدعوات من أفواه المساكين وهج ولذة وسحر.. أليس هذا هو الرصيد الكبير في بنك الشعب؟! وأهم من هذا أنه طلب رضا ودعم شخصية مهمة في الحكومة حسب نصائح كل الناس، فذهب عدة مرات بالهدايا إلى كمال الدهبي ذي الكرش الكبير والأسنان الذهبية، في ثالث مرة قال له: اطمئن يا صقر.. خلاص. لكنه اكتشف – وهو في غاية الدهشة – أن الناس تحب وتقدر منير زخاري مثله ولا تكاد تميزه عنه، رجل أعمال مثقف ومتعلم. لديه عدد من الشركات الناجحة.. يطالع الناس وجهه في التليفزيون.. ويستمعون أحيانًا إليه في الإذاعة. وله وجه سينمائي وفي حديثه لباقة ووعي، لكنه لا ينفق على

المشروعات إلا القليل، وكان ذلك سببا في حيرة صقر.. كان يتصور أنه بما أنفقه يفوق زخاري..

على أية حال المشكلة ليست في زخاري. المشكلة أن الناس تقريبا تجمع على أن الأفضل هو د. شاهر لطفي، أستاذ الاقتصاد بكلية التجارة، الكثيرون يعرفونه ويتحدثون عنه باحترام، وكان عضوا في المجلس من قبل، ويذكر له الناس قوة حججه وجرأة استجوابه، وما زال الوزراء المسئولون يخشون لسانه ودراساته الدقيقة ومقالاته المستفزة في الصحف، ولم يكن ممن يهرولون إلى الوزراء طالبين الحصول على المزايا لهم ولأبناء الدائرة.

لكن يحيى صقر لم يتصور أبدا أن تكون نبيهة ريحان المحررة بجريدة الأسبوع ضمن الوجوه البارزة وتتمتع بهذه الشعبية وهو لم يسمع عنها مطلقًا.. قيل إن عائلتها كبيرة فهي بنت سالم ريحان الذين كان وكيلاً أولاً لوزارة الخارجية في الستينيات، وجدها ريحان باشا مستشار الملك وعمها رجل الأعمال الشهير حشمت ريحان المقرب من رئيس الجمهورية.. خالتها كانت عضوا في مجلس الأمة قبل عشرين عاما، كان يمكن لو استمرت بعافيتها أن تصبح

رئيسة وزارة لولا أن تهشمت عظامها بعد الحادث المروع الذي راح ضحيته ابنها وسائقها، ولا تزال حية ودماغها سليمة بنسبة ألف في المائة.. تحطمت جميعها إلا عقلها.. ونبيهة تزورها صباح كل يوم، تطرح أمامها حصيلة حملتها وتتلقى النصائح الجديدة. ثم تلتقي برجالها في المساء لتقدم لهم ما فكرت فيه، وما تراه من تطوير ومهام جديدة..

يشعر بالغرق.. بالضياع، ويؤكد له رجاله أن شعاراته وأعماله سلاح قوي فعليه ألا يبتئس، لكنه يشعر في قرارة نفسه أن المشروع كله خطأ.. لأول مرة ينظر في مرآة نفسه ويتأمل أيامه الماضية، منذ تركه أبوه وتزوج.. لقد حاول أن يصعد بعيدا عن المستنقع.. تذكر أشياء كثيرة خطأ وارتجال وتهور وكذب.. ما بني على خطأ مصيره معروف.. قصور الرمال سوف تتهاوى كلها فوقه، وستمسح بكرامته الشوارع.

- "تروح فين يا صعلوك بين الملوك".. أستاذ جامعي يحاضر في جامعات أمريكية وأوروبية، ونبيهة هانم التي حضر الملك زواج خالتها عام ١٩٥١ ولم يتمكن من حضور زواج أمها لأنه كان قد طرد إلى إيطاليا، وزخاري الذي ترك

له أبوه مصنعين وأضاف هو إليهما مصانع جديدة ومشروعات أشكال وألوان ويجيد عدة لغات، ويفهم في القوانين مثل أصحابها.. من أنا حتى أتحدث لدقائق مع المستشار وهيب الذي رشح عدة مرات لوزارة العدل ورأس العديد من المحاكم، وكان عضوا باللجنة الدستورية وصاحب اقتراح محكمة القيم ومنصب المدعي الاشتراكي، وكان رجل السادات الأول.. قال يوسف إبراهيم نقلاً عن شخصية كبيرة موثوق بها، كان يوسف واحدا من هيئة الدفاع عنه بسبب اتهامه بالحصول على مائة مليون جنيه قروضا من عدة بنوك بدون ضمانات.. رغم شخصية السادات القوية وإحساسه العالي بنفسه، إلا أنه كان حريصا على أن يلتقي وحده بالمستشار وهيب مساء كل يوم ثلاثاء في تمام العاشرة والنصف ولم يختل الموعد إلا مرتين، مرة بسبب وجود نيكسون بالقاهرة، ومرة لوجود السادات في الإسماعيلية مع بيجين وكارتر.

أكوام من الأسرار والأخبار توضع مساء كل يوم على مكتب صقر.. فيصيبه الذهول، ويأسف بينه وبين نفسه لأنه هو الوحيد الذي لا يجد نقاط ضعف في خصومه.

- هل كتب علي أن أحارب عشرة، كل واحد منهم خرتيت في مجاله.. لا أمل إلا إذا خرج البعض من السباق.. لازم العملية تخف والوزن يقل.

كلما تسلل إليه اليأس وأوشك على الانهيار شدوا حيله وآزروه، ووضعوا تحت إبطيه السقالات الخشبية وأوقفوه وجددوا أمله، فيتنفس من أعماقه ويستعد ليوم جديد، لعله يحمل مزيدا من ثقة الناس فيه، واستعدادهم لأن يقبلوه ممثلاً لهم.

أخيرا اعترف يوسف رئيس الحملة الانتخابية أن نبيل ليس مخلصا كما تحدث عنه صقر، وأوضح للمرشح أن نبيل لا يجتهد في أداء ما يوكل إليه من أعمال، ودعاه صقر إليه وأنبأه بما قاله يوسف فأبدى دهشته، وتحدث باستفاضة عن إنجازاته وتجنيد عشرات الشباب من أصدقائه للعمل معهم، وطلب شهادة فتحي الدمنهوري.

انتهى الموقف بتعهد نبيل أن يزيد عطاءه وجهد ويبتكر ويعمق الصلات مع العائلات الكبرى.. وكان نبيل قد تصور أن يوسف شقيق زوج أخته راوية لن ينقل أي تقصير إلى صقر.. فالحقيقة هي بالضبط كما وصفها يوسف.. نبيل

كان متعاطفًا مع أستاذه شاهر لطفي، وهو أحب أستاذ لديه، شكلاً وعلما ومنطقًا وفكرا ومنهجا في الحياة، وكان يتصور أنه قادر على أن يحذو حذوه، ويتخذه قوة ومثلاً أعلى، لكنه عندما نجح بتقدير مقبول، هبطت روحه وتراجعت آماله.. وظل المثل كما هو في عليائه، وربما زاد علوا.. يتبع أخباره، ويحييه إذا التقاه في سيارته ويسلم عليه كلما رآه وهو على باب الفيلا ينتظر أن يخرج السائق بالسيارة من الجراج.. الفيلا المجاورة لفيلا البارودي التي يحتلها الآن خصمه يحيى.

شاهر يعرف تلميذه من أيام الكلية، ولا يزال يحفظ اسمه وشكله ويرى فيه شابا نجيبا، فقد كان يشارك بحيوية في المحاضرات ويحرص على حضورها بانتظام، يسأل ويجيب ويقوم بنشاط رياضي واجتماعي.. طالب معروف وليس من النماذج النكرة أو الخاملة، لكن علاقته بربباب كانت قديمة وعميقة ويبدو أنها أثرت على تحصيله. وقد دهش الدكتور عندما علم بتقدير نبيل. لكنه لم يعرف بأن قلب نبيل بدأ يتجه نحو ابنته بعد انحسار موجات الحب القديم.

نبيل أثناء الحملة كان حريصا على أن يظل متواريا مجهولاً ولا يتباهى كما يفعل الجميع بأنهم يمثلون يحيى صقر.. كان يعمل بغير حماس لأن يحيى كلفه بذلك، وكيف لا يعمل له وهو مدير محلاته لقطع الغيار، لكنه يتمنى أن يعمل مع الدكتور شاهر الذي يثق في أنه سيسحق الجميع، كما أنه صديق والده طارق.. وتحظى نهال بإعجابه، ومن يدري.. لعل..

* * *

علم صقر أن نبيهة ريحان ستلقي كلمة في الجماهير المحتشدة في سرادق خاص بها. اضطر أن يغير ملامحه ويتخذ عدة المصور الفوتوغرافي ومضى لمشاهدتها.

نبيهة في الخامسة والثلاثين.. آية في الجمال. سبحان من صور، زوجها عميد جيش، وكان مديرا لمكتب وزير الدفاع قبل أن يكلف بالعمل ملحقًا عسكريا في دولة كبرى وأعيد بعد تقرير يصمه بالحصول على عمولات أسلحة بعد أن تم تصويره عدة مرات مع عدنان خاشقجي، ويقال إن القضية حفظت لأن الأدلة غير كافية وغير دامغة.. لكن

الأقوال كلها انتهت إلى أن الحكومة تسترت على أخطائه كما تعودت مع رجالها.

نبيهة سيدة تفيض حيوية، تتحرك بدقة وثقة، تتحدث في قوة، تركب سيارة أحدث موديل، هانم بكل معنى الكلمة.. تحدث إليه رجاله عنها بمنتهى الإعجاب.. وعندما قال صقر ليوسف:

- ما رأيك لو تنازلت؟ آه.. أتنازل أشرف..

اندفع يوسف قائلاً:

- إذا كان ولابد، تنازل لنبيهة.. الواحد يتنازل لها عن عمره وليس عن البرلمان.. أين تاهت عنها السينما.. هذه واحدة من عجائب بلادنا..

- ربما عرضوا عليها ورفضت.

- عندك حق.. فاتتني..

لما صعدت إلى المنصة.. سكت الجميع فجأة، كانوا فيما يبدو يعرفون طبعها.. لم ينطق مخلوق بحرف.. ظلت ساكنة لحظات، وهم لا يكادون يتنفسون، ثم تكلمت، فأعجب بها أحد الحاضرين وفكر أن يقف ليهتف بحياتها أو يحييها، لكنها – قبل أن يفتح فمه – أشارت إليه بإصبعها كي يجلس..

دنا منها صقر ودنا، حتى أصبح تقريبا تحت قدميها وهو يحمل آلة التصوير، تأملها وصورها، ثم عاد يتأملها ويصورها، ثم خرج وهو يقول:

- لو لم تكن متزوجة، صدق يوسف.. النمر، هي أهم من المجلس والوزارة أيضا، إذا تزوجها الإنسان ماذا يريد من الدنيا بعد ذلك..

وضحك وهو يتيح الفرصة للتعليق الطريف المتفجر..

- بسيطة.. نطلب من زوجها تأجيرها عشر سنين.

بعد ما جرى لحافظ أحست هنية أنها مقصودة، تترصدها نفس مريضة وقلب حاقد وعين لا ترضى أن تراها بخير، لكنها كانت تسأل نفسها:

"على إيه يا حسرة"

لا العربة ذات الخيول أمام الباب، ولا الفيلا التي تسكنها واسعة جدا عليها، ولا الكلاب الوالف الكبيرة تمنع أحدا من الاقتراب من ثمار الشجر المتدلي على الأسوار.. ولا العرسان طوابير، منهم الضابط الذي على أكتافه النسور والنجوم.. ومنهم رجل الأعمال الذي ترك سيارته الستة متر تلمع وتسد الحارة، والعيال يلتفون حولها ليشاهدوا وجوههم فيها، وتمر أصابعهم بحنان على سطحها المصقول، ولا.. ولا.. "على إيه يا حسرة"..

ومع ذلك ظلت تقول في نفسها ويقول لها بعض الأحباب الذين لا غرض لهم إلا التخفيف عنها، ودفع الشعور العميق بالمأساة: إنها لابد عين بدليل ما جرى لحافظ شارودة..

اضطرت أخيرا إلى قطع العرق وتسييل الدم.. والانتقال من حالة الشك إلى اليقين مضت من فورها إلى الشيخ حمزة النشوقاتي لكي يشوف لها حل، ويفك عقدتها ويبعد عن طريقها "العكوسات" التي أحاطت بها من كل جانب.. وخاصة لاعتقادها الراسخ إلى درجة اليقين أن نفوس الناس غير خالصة لا لنفسها ولا لله، فما بالك بالجيران والأقارب والأغراب.. مضت إلى الشيخ دون علم أمها وتمنت ألا ترى هناك أحدا يعرفها..

الشيخ حمزة سره باتع، ما قصده أحد ورجع خائبا، ولا كتب لأحد وصفة إلا وأصابت الهدف، وعدلت المائل وأرجعت الغائب وقربت البعيد، ومرات يصارح صاحب الشأن بأنه لا يتعب نفسه.. الباب مقفول وإرادة الله لا راد لها ولا محاولة لتحويلها أو تبديلها.. ريح نفسك وارضى..

في آخر شاع في عزبة مبارك بعد مدرسة المعوقين.. تقع مضيفة الشيخ حمزة.. هناك في المضيفة الكبيرة قبل الممر المفضي إلى حجرة ما قبل قاعة الشيخ.. جلست نساء كثيرات وهي المضيفة التي تكون على اليد اليمنى بعد الدخول من الباب الكبير بخطوات ثلاث، وهي

معروفة ببابها البني المشقق.. معلقة به كف كبيرة من نحاس، ومقبض حديدي كبير وصدئ.. الحجرة الصغيرة للرجال وهي إلى اليسار وبابها مقابل باب مضيفة الحريم.. الحجرة الصغيرة للرجال مناسبة فهي بهم أبدا لا تمتلئ، وقد تمتلئ الكبيرة بالنساء..

يتوالى دخولهن، واحدة بعد أخرى، وفي الأغلب يرتدين السواد، والسواد ألوان. ليس دائما معتما وحزينًا، منهن من ترتدي السواد المزركش والملون والسواد المطرز، ومن ترتدي سوادا يكشف ما تحته، أو سوادا يبدي من ضيق تصميمه مفاتن البدن الجسور، ومن ترتدي سوادا غالي القيمة، وسوادا يبرق كعين الشيطان، وهناك سواد فقير أجرب وكالح، لكن الجميع حضرن لافتقاد السعادة والراحة والأمل، ويطمعن في التغيير.. وثقتهن كبيرة في الفرج بعد الشدة..

عندما دخلت هنية لمحت سيدة ذات وجه صبوح تجذب من يدخل إليها.. بياض وجهها شاهق، وجمال ملامحها آسر.. لم تستطع هنية المقاومة فمضت نحوها مباشرة، ولم يكن أحد بجوارها، كان الجميع في مقابلها،

كأنهن أردن ألا يجاورنها إشفاقًا على أنفسهن من قسوة المقارنة، ولكي يستطعن النظر والتمتع بنعمة الخالق وفضله على عباده..

هنية تساءلت في نفسها:

- غريبة.. كيف من كان في جمالك تكون له مشكلة أو يحتاج "مشايخ"؟ المشاكل والقهر خلقوا لأجلنا..

هنية جلست.. خلصت رأسها من الملاية. وشرعت تفكر في البداية.. بداية وصل الخيوط.. فجأة قالت للسيدة الجميلة، التي ترتدي تاييرا أسود مطرزا وتظهر من تحته قصبتان من الرخام الأبيض المرسوم رسمة رباني رائعة..

- هل مر وقت طويل عليك وأنت هنا؟
- ساعتان
- دائما المضيفة عامرة.
- الشيخ النشوقاتي يأتون إليه من آخر الدنيا.
- أول مرة؟
- نعم أول مرة.
- ربنا يشفي – مما تشكين يا أختي؟
- ابنتي.

- ما بها كفى الله الشر؟

- بلوى بعيد عنك.

- ربنا يشفيها.. أكيد عين..

- يا أختي ربنا ما يوريك.. ابنتي منتخبة ملكة جمال مصر.

- طالعة لك

- مرسي.. تقدم لها ستين شاب من أحلى وأغنى شباب البلد.

- طبعا ما دام جميلة ومؤكد أنهم زملاء والدها.

- أبناء زملائنا في الجامعة، ورجال أعمال.

- حضرتك ما زلت تدرسين في الجامعة..

- أنا وأبوها أساتذة.. أنا دكتورة وهو أيضا.

- حصل لنا الشرف..

- ترفض كل هؤلاء وتدخل علينا بواحد مثل الفأر.. قصير وقميء وأقرع، وتقول لنا: لن أتزوج غيره..

ضربت هنية على صدرها بقسوة.

- يا حبيبتي ياختي.. وضع بطال خالص..

- فضيحة.. مصيبة.. كارثة.. لا أحد منا ينام الليل، وأخيرا حكى لنا واحد من جيراننا عن الشيخ حمزة..

- المهم يكون معك أي أثر من آثارها ما دمت لم تحضريها معك..

- رفضت.. قالت عليه.. دجال واص.. وأنا سليمة وواعية مائة في المائة.

- ربنا هو الشافي.. إن شاء الله ستفرحين بها وهي مع من يستحقها.

ظهرت وجيدة العتر على الباب الجواني فسدته.. جثة مارد من أيام خادم المصباح.. أو مثل الجلادين العظام.. نادت بصوتها الجهوري الخشن.

- د. علياء زهدي.

قامت الدكتورة، ودعت لها هنية بالتوفيق والفرج.. اكتشفت أن بنتًا إلى جوارها ومعها أمها والكنبة كلها مسكونة بعد أن كانت مشغولة بالدكتورة وهنية فقط.

عادت تقول:

- كل الناس مصابة بعلل.. والعلل علاجها غير موجود في الأجزخانات ولا عند الأطباء، حتى الأطباء أتوا إليك يا شيخ حمزة..

اعتدلت في جلستها مع مواجهة قليلة نحو البنت وأمها، وبحثت عن البداية.. تعثرت البداية قليلاً، إلى أن قالت الأم لهنية:

- الناس يا أختي كثيرة.. يبدو أننا سنتأخر..

قالت هنية:

- مهما تأخرنا لابد يقابل الجميع.
- أخاف ألا نجد مواصلات..
- أنتم من بعيد؟
- من بني سويف..
- إن شاء الله تخلصوا على طول وإذا تأخرتم بيتي مفتوح لك أنت والصبية.. ماذا بها؟
- تهيؤات..

اعتدلت هنية: تهيؤات.. أول مرة أسمع هذه الكلمة..

قالت الأم: قولي لها يا صابرين..

زعقت البنت في أمها بصوت منخفض مبحوح: لن أقول شيئًا.. أبعدي عني يامه.. هو أنا ناقصة كلام وحديث..

قررت هنية أن تسأل عن حال هذه البنت التي فيما يبدو تركبها العفاريت وروحها في مناخيرها، واشتاقت أن تعرف حالتها، لابد أن تسأل حتى لا تسأل، فهي مؤكد تعاني من مشكلة غير كل هؤلاء النسوة، وهي ليست مشكلة بمعنى أنها صعبة تتعذر على الحل، لكنها تتعذر على الحكي، سألت أم البنت الحرون:

- العيل لما يكون مريض، أهله هم المساكين.. قولي ياختي وفضفضي..

- صابرين ابنتي ذكية وشاطره، وتشتغل في البيت شغل لا أحد منا أنا وإخوتها يقدر عليه..

- ومن سمعك..

- لكنها تحب تسهر قدام التليفزيون.. وبالنهار أيضا إذا فرغت من طلبات البيت..

- خليها تتفرج.. لا أحد سيأخذ منها شيئًا إلا الانبساط..

- ابن العمدة شافها حب يخطبها، رفضت.. ابن عمها رفضته.. زميل أخيها في الجامعة رفضته.. ابن الجابري بك عنده أرض بلا آخر.. رفضته..

- لابد فيه واحد شاغل بالها..

- صحيح.. لكنه غير موجود في الدنيا بالمرة..

- لا أفهم.

- كل ليلة تحلم بشاب جميل وكلامه جميل وفارس.. يحملها ويطير بها فوق البلاد وفوق المركز وبني سويف، وتوصف في منظرها وشعرها الطويل يهفهف ويتفرد، وشعرها بطولها، وتفضل على هذا الحال طول الليل، والصبح نسمعها وهي تنادي عليه وتقول: يا فارس.. يا فارس.

فجأة صرخت فيها البنت قائلة:

- ارتحتِ.. قلت كل ما في نفسك. ممكن تسكتي ولا أقوم أمشي من هنا.. أسرعت هنية..

- لا يا حبيبتي.. ولا تزعلي.. خلاص نسكت.. ربنا يشفيك إن شاء الله..

خرجت وجيدة العتر فسدت الباب ونادت بصوتها الصاعقة على ناعسة عمران، واصطحبتها ودخلت، تاركة هنية وهي تكاد تضرب كفا بكف وتتساءل في حسرة: الخطاب كلهم ذهبوا إلى ابنة الدكتورة وإلى صابرين.. والغريب أن البنات لا تريدهم.. على الله الشيخ حمزة يدلهم على طريقي.

* * *

(٣٢)

كانت مفاجأة.. مفاجأة..

فكلما سأل أحد عن شريط أغنياته.. لم يجده، وقيل: نفد.. الجميع يسمعونه في كل مكان.. الدكاكين والأكشاك والميكروباصات.. الشباب يضعونه على آذانهم ويمشون في الشوارع يتراقصون.. صوره في التليفزيون والصحف.. قال له صاحب شركة الصوتيات: لا يهم إذا كان الصوت جميلاً صافيا.. قويا أم نحيلاً كما صوت العرسة.. المهم الإعلانات.. الناس "هبل" تشتري أي شيء يعرضه التليفزيون، وتسري العدوى إلى كل من لا يراه.

اتفقا معا على أن يتحمل جمعة كل شيء ويقوم صاحب الشركة بالتوزيع مقابل ٢٠% من الأرباح، وبعد أن رأى الرجل بعيني رأسه إقبال الناس على جمعة في الأفراح، وعد أن يساعده في طبع الشريط الجديد، وتنفيذ حملة إعلانية ضخمة إذا دفع عشرين ألف جنيه، على أن توزع الأرباح مناصفة، أي أنه مستعد للمشاركة في المخاطرة..

اقترض جمعة المبلغ من صقر على أن يرده بعد ستة أشهر، كانت الدعاية قوية ومكثفة، اللافتات كثيرة، والتليفزيون لا يكف عن الإشارة إلى الشريط.. وكذلك محطات المترو.

تم توزيع الخمسين ألف شريط التي تم طبعها بالكامل خلال شهر.. حققت دخلاً يتجاوز ثلث مليون جنيه.. استأجر جمعة شقة جميلة وواسعة على النيل في مواجهة قصر المانسترلي بالروضة.. وأعيد طبع الشريط.. مائة ألف نسخة، وزعت خلال شهر ونصف.

مكسبها مذهل.. فرحة بلا حدود.. شعبية طاغية.. جمعة قارب على الجنون.. لم يتصور أن يشتري الشريط غير أصحابه وهم قلة قليلة، كان علي جودة أكثر المندهشين وقد عانى كثيرا ليصدق ولم يصدق، عم ملاك مثله، لكنه لم يقل شيئًا، أما علي فقال لجمعة:

- حاذر يا جمعة أن يأخذك الغرور.. أنت صوتك لا مثيل له في طبقة نبراته الخشنة.. ليس فيه أي جمال..

وكان جمعة يضحك ويقول مهونًا:

- اعتبره يا سيدي رزق الهبل..

الشريط يبيع ويبيع، والناس تبارك لجمعة ولكل أهله.. والده لم يهتم.. هنية خرجت بنجاح الشريط من أزمتها.. نبيل فرحان، لكنه مهزوز، وحائر، وأصبح غير سعيد لأنه لا يجد لنفسه شكلاً محددا.. يرى أنه مجرد ريشة في الهواء يطوحها حيث يشاء ولا يمسك بشيء.. وظل يتساءل في اكتئاب عما هو بالضبط طريق النجاح.

بعض الناس سمى الشريط.. شريط علاء الدين، على نسق مصباح علاء الدين، وسماه البعض شريط الهنا.. شريط السعد، أما الشيخ إبراهيم فقال:

- قال الله في كتابه الكريم: ﴿ومن يتقِ اللهَ يجعل له مخْرجا ﴿٢﴾ ويرزقْه مِن حيثُ لاَ يحتَسِب﴾، وهذا ما حدث مع جمعة، ولكن جمعة لم يتق الله.. اللهم لا اعتراض.. ما زالت لديك يا رب من الأسرار ما نعجز عن فهمه.. سبحانك.

ذهب جمعة منتشيا إلى صقر ليسدد ما عليه.. قال له صقر:

- لا أريده نقدا.. أريده غناء..

- غناء!

- نعم.. أريد أن تدعم حملتي بغنائك..

- كيف؟

- هذه مهمتك..

- لكن..

- لا توجد لكن.. مع احترامي لك ولأهلك، وطبعا نحن أصدقاء.. والورق بيننا مكشوف.. لو لم تكن أموالي ما طلع الشريط ولا نلت هذا النجاح..

- أنا لا أنكر فضلك.. المهم نحاسب على الكلام..

- تاهت ولقيناها.. مالي أريده غناء، وإذا تعللت بأي سبب للتراجع، فلا أريد المال ولا أريد أن أعرفك..

ابتسم جمعة وانتقل للدعابة مستهجنًا كلام يحيى وسرعة غضبه.. ووعده أن يسهم في بعض اللقاءات بالغناء ذاكرا اسمه وأمجاده.. وتعهد يحيى أن يدفع أي تكاليف للمؤلف وأي موسيقي يشارك في العزف... قال:

أريد أغاني يرددها حتى الأولاد في الشوارع.. وبسرعة.. لم يعد هناك وقت.

- الأسبوع القادم تكون جاهزة.

- الانتخابات يا.. علاء الدين الأسبوع القادم، أريدها بعد غد على الأكثر.. ركب جمعة سيارته الألفاروميو ذات الصوت العالي والسرعة الفائقة.. مضى نحو الحارة على مهل ليزور أمه وأباه وهنية.. لم يمنع نفسه من أن يقول للمرة المائة..

- رءوسهم ناشفة.. ما الذي يعجبهم في البيت القديم المسنود بالبيوت المجاورة؟ ما الذي يعجبهم في حي لا يصلح إلا ليكون سوقًا للحمير والخردة.. كل حاجة أصبحت خردة حتى البني آدمين..

بتأفف أخذ طريقه فوق النفايات وبقع المياه التي يخيم عليها الذباب.. فلم تستطع أن تحمله سيارته إلى باب البيت..

كان قد عرض على أمه وأبيه وهنية بإلحاح أن يغادروا "خرابتهم" وينتقلوا معه إلى النيل "على وش الدنيا"، لكنهم كما قال: وقعوا عقدا إلى نهاية العمر مع الفقر، وربنا كتب الهداية لنبيل وميشو فلحقا به.. وكانت هنية في البداية قد وافقت، لكنها عادت ورفضت أن تترك والديها وحدهما..

بعد أيام فوجئ نبيل وميشو بأصحاب جمعة القدامى والجدد يملئون الشقة ويحضرون كل يوم، والسهرة التي

كانت تتم مساء كل ليلة عند موافي العجلاتي، أصبح مقرها الجديد في الشقة.. يطول السهر وتعدد المشروبات، وتتسخ الشقة وتتكدس القمامة والفضلات حتى استاء نبيل من منظرها، لكنه لم يجد الشجاعة ليصنع شيئًا، ولم تسمح له كرامته أن ينظف، فمهما فعل بوصفها شقتهم، فهي تمتلئ بالأغراب...

عاد يوما أحد الأصحاب من سكان الشقة ومعه سيدة لتنظيفها.. سيدة عفية.. طلبت من الموجودين المغادرة، وشمرت عن ساعديها وفخذيها، وكل ما يعوق حركتها وأعملت في البلاط والجدران التنظيف.. قلبت الشقة ظهرا لبطن.. غسلت كل شيء.. كبيرا أو صغيرا حتى ملابسهم جميعا.. أعادت ترتيب الأثاث كله قطعة.. قطعة.. عاد الرجال مع المساء.. لم يتعرفوا على الشقة النظيفة الهادئة التي تفوح منها رائحة معطرة..

بعد أسبوع رجعت الشقة كما كانت.. أعادوا جلب السيدة التي تعمل في صمت.. بادرت على الفور بالعمل بعد أن شمرت عن ساعديها وفخذيها وكل ما يعوقها.. وخلال ساعات كانت الشقة، شقة أخرى جديدة تماما وجميلة.. نظيفة

معطرة، ولكن سكان الشقة اكتشفوا بعد لحظات اختفاء بعض الأجهزة والمشغولات الذهبية الخاصـة بجمعـة، وتسـاءلوا جميعا: هل كان ذلك جزءا من عملية التنظيف؟!

لم يتمكن من أحضرها أن يصل إليها مـرة ثانيـة، وقرر جمعة حزنًا على المسروقات أن يسـهر والأصـحاب سهرة صباحي..

وبعد يومين فقط أصبحت الشقة في حالة لم تعشـها من قبل على الإطلاق تبرع أحد سكانها بإحضار فتاة، طيبـة وهادئة وبطيئة، حاول عدد منهم الاعتـداء عليهـا وأنقـذها أحدهم في آخر لحظة..

لاحظ نبيل أن أخاه يسرف في السهر والسكر.. دعاه إلى الإقلاع حتى لا تصبح عادة، خاصة أنه يستعد للشـريط الجديد.. تجاوب جمعة بفتور، وسرعان ما دعا للسهر بـلا حساب أو حذر..

قرر نبيل ترك الشقة والعودة مع ميشو إلـى "شـق الثعبان".

* * *

(٣٣)

الانتخابات بعد أيام.. نبيل مطمئن – من استطلاعه للآراء – أن الدكتور شاهر سيكتسح، وأن الدائرة تكاد تكون قد أصبحت في قبضة يده، وتضاءلت الفرص أمام الجميع، لكن نبيهة كانت دائما تقول لرجالها:

- لا تتأثروا بالإشاعات، هذه حرب نفسية يجيدها الدكتور لأنه عضو محترف، لا تزال الكرة في الملعب وما زال هناك وقت، فابذلوا المزيد من الجهد، إلا إذا لم تكونوا أنتم أنفسكم مقتنعين بنبيهة ريحان..

الجميع يقاطعها في لهفة وحماس:

- ست الكل يا هانم.. ولا دكتور ولا مستشار ولا فلوس الدنيا تساوي قيمتك أو تكافئ مكانتك.

تشير إليهم كي يكتفوا بهذا القدر من المديح..

- اطرقوا الأبواب.. تحدثوا إلى الناس بلباقة، قولوا لهم، من هي نبيهة.. اطبعوا كميات إضافية من البرنامج ليقرأه من يجيد القراءة.. باقي أيام، وهي أهم الأيام.. كل

جهودنا ستذهب سدى، إذا لم نتحرك في كل الاتجاهات، إنها آخر فرصة لنا جميعا..

المعركة حامية متنوعة الأسلحة، ومتعددة القوى، تعتمد على رجال أشداء أغلبهم بلا ضمائر، على الأقل مؤقتًا لحساب المرشح الذي يدفع، والذي أخذ عليهم بالقسم أن يخدموه ولا يعرفوا شخصا في الدنيا إلا هو.. جيوشهم لا حصر لها.. ولديهم صلاحيات بلا حدود لإغراء الناس وجذب المؤيدين، لذلك تتوالى من الجميع وعود أسطورية، وتصريحات ملونة، وأحضان إنسانية، وقبلات مفعمة بالشوق.. آمال عريضة وأمنيات أكبر من حجم المستقبل نفسه، وأشواق الجماهير تتناثر وتجري في السماء وتحلق في الفضاء وتلف حولهم، فتدور رؤوسهم وتعمل الفانتازيا عملها، ويتخيل الناس منظر الحي بعد نجاح المرشحين..

* * *

في يوم الانتخابات.. كان الفضاء كله مسرحا عجيبا لأصداء الميكروفونات الراجلة والراكبة والثابتة، تزعق بعلو الحس مطالبة الناس بالتوجه إلى الصناديق وكتابة اسم

المرشح فلان، وآخرون يذكرون اسم المرشح فلان، وغيرهم.. وغيرهم..

تخصص بعض رجال المرشحين في الوقوف على مقار الصناديق والهمس في آذان الناخبين الواقفين صفا طويلاً يتثنى كالثعبان ليدخل المبنى الذي بداخله الاختيار. وتخصص آخرون في المرور على الناس في التجمعات والمحلات ومواقف السيارات يدفعونهم لترك ما بأيديهم للإدلاء بأصواتهم أولاً..

كان الجو محموما والحماس ملتهبا.. جنود المرشحين يركضون في كل مكان ويتصادمون ويتعاركون من أجل الزبائن وزيادة عدد الأصوات لمرشحيهم، وتجري الشرطة بينهم فلا تكاد تلحق بؤر النزاع المتجددة هنا وهناك..

* * *

أخيرا وقبل الفجر.. انتهى الفرز وحصرت أصوات كل مرشح، وفاز صقر، وسقط د. شاهر سقوطا مدويا. فقد جاء قبل الأخير، وكانت نبيهة هي التالية ثم المستشار زخاري رجل الأعمال ثم أحد العمال.

أصيب د. شاهر برعدة ثقيلة ودوار مؤقت.. لكنه تماسك وانتزع ابتسامة وقال وهو يكز على أسنانه:

- لا غرابة ولا عجب.. هذه طبيعة الانتخابات.. هناك مجالات كثيرة لخدمة أبناء الوطن..

التف حوله رجاله وهو يمضي متعثر الخطى خارجا من مكتبه، أسرع طارق ابنه ليقود السيارة وجلس شاهر في المقعد الخلفي.. يبدو في حالة هبوط بدني واضحة، تطلق عيناه نظرات ضبابية إلى اللاشيء.. تدلت نظارته حتى استقرت فوق أرنبة أنفه.. أغلق فمه وأخذ يتنفس تنفسا عاليا، ولم يكن يستمع إلى أي كلمة مما قالها مرافقوه.. ولما وصل إلى البيت لم يتحدث إلى أحد، طلب أن يتركوه نائما حتى يصحو وحده، ولم يوافق على طعام أو شراب، ورضي أن يخلع البذلة ويرتدي البيجاما..

شعر العالم أجمع بأصوات الفرحة الهادرة التي عبر عنها أهل الحي تحية لصقر.. عشرات الألوف يهللون ويغنون، وبدا الحي كأنه أدلى بجميع الأصوات لصقر فقط.. وأن صقر رجلهم كلهم.. رجلهم الوحيد..

أخذ النهار شكلاً آخر وكذلك الشوارع.. وسبحت في الأفق مائة حمامة بيضاء تدور حول نفسها وحول الحي.. رآها الناس كلهم.. ثم اختفت. باعها صاحبها للجماهير ساعة من الزمن، ثم عادت إليه، وظل الناس هناك، وفي كل مكان يلوكون الحلويات ويمضغون ألوانًا مختلفة من الطعام ويتجرعون كل زجاجات المشروبات الباردة التي أمر بها صقر، وهل ثمة يوم في التاريخ بطوله يستحق أن ينفق فيه مثل هذا اليوم.. إنه يوم الأيام.. يوم الحصاد.. اليوم الذروة.. وتذكر صقر لوقت طويل كلمات عواد النمس.. صول الشرطة الذي وصف له الوصفة، وأعد له الخطة التي أصابت هدفها بدقة وفلاح..

احتدم الحماس في قلبه شكرا للرجل وعلا إيقاع التقدير، وما لبث أن بعث شخصا يستدعي له عواد.. ولما وصل، سحبه إلى غرفة منفصلة من شقة مكتبه.. عانقه، وقال له:

- شكرا اك.. تقبل هذا المبلغ.
- لا.. لا..
- أقسم بالله.

- أنا غير محتاج..

- خذهم ووزعهم..

- لكنه مبلغ كبير..

- خمسة آلاف ليست كثيرة عليك..

عاد يعانقه ويقبله، ثم همس في أذنه قائلاً..

- غير مسموح بنشر كلمة.. هذه مسألة بين صديقين..

- اطمئن..

لما جلس على كرسي المكتب وأخذ نفسا عميقًا.. اصطفوا جميعا أمام عينيه..

كان يود أن يراهم.. إخوانه وأبوه وهنية، وكل من أسقطوه من قوائمهم.. هاهم الآن جميعهم أمامه.. جامدون.. متخشبون.. لا ينطقون، لكن عيونهم فارغة من كل معنى، ولا حتى الإحساس القديم نحوه بوصفه مجلبة للعار أو باعتباره كائنًا لا قيمة له..

في المساء.. ذهب محملاً بما خف وزنه وغلا ثمنه إلى رجل الحكومة الأول: كمال الدهبي.. انحنى وشكر وكان مستعدا لتقبيل الأيادي والأقدام، قال الكبير باعتداد:

- أنت تستحق كل خير يا صقر.. ولنا في الرجال نظرة.. شد حيلك.. البوابة الكبيرة فتحت لك.

في صباح اليوم التالي رأى الناس د. شاهر وهو يخرج من داره بالبيجاما والشبشب يسألهم عن أخبار الحرب، ويقول في لهفة وحيرة.

- أنا لم أسمع أصوات الغارات أمس.. ممكن الدول وافقت على وقف إطلاق النار.. هل سمعتم النشرة.. أنا لم أسمعها، لكني أعرف.. تأتي الأخبار إلي مباشرة.. أسمعها أينما أكون.. من منكم استمع إلى خطبتي وأنا أدعو الناس كي تحارب.. أظنك حضرت و.. وأنت.. وأنت أيضا كنت حاضرا.. القيادة السياسية علمت بخطبي.. وعبد الناصر أيد الفكرة.. لابد أن نحارب.. إذا فرض علينا القتال.. لابد أن نقاتل..

وسار على رجليه في الشوارع يحمد الله أن الغارات توقفت.. والناس لا ترفع عيونها عنه، وتضرب كفا بكف.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. الرجل مخه اتلحس يا ولداه.

* * *

(٣٤)

يحيى الآن – يا ناس – يجلس تحت القبة، يلبس كما يلبس الوزراء والكبراء، ويجلس في نفس الكراسي، كتفه بأكتافهم، وأمامه ميكروفون يستطيع أن يتحدث فيه إذا شاء، مسموح له أن يمدح من يشاء ويهاجم من يشاء.. ويعبر عن رأيه في كل الأمور والقوانين والأحوال.. هو الآن وسيظل على الأقل لأربع سنوات قادمة ضمن رجال السلطة.. محسوبا منهم.. ولماذا أربع سنوات.. ما دام قد ذاق طعم الانتصار وعرف الوصفة وطبقها ونجحت، وسوف يفهم – لا شك – خلال الأيام المقبلة أسرار اللعبة وسراديبها.. مزاياها وعيوبها.. سيكون باستطاعته في يسر أن يعود دائما ليجلس في الصدر.. وكلمته مسموعة في الدائرة وتحت هذه القبة.. أتيح له أن يرى رئيس الجمهورية مرتين، وسلم عليه يدا بيد في إحداهما، ولمس كم هو طيب ولطيف، ويذكر أن رئيس المجلس قدمه له قائلاً:

- الحاج يحيى صقر رجل أعمال وابن مصر القديمة.

ابتسم الرئيس ابتسامة مرحبة وانتقل إلى غيره، لكن صقرا كاد يضحك وهو يتذكر قول أحد زملائه وهو يعرفه لبعض الزملاء قائلاً فلان ابن الدقهلية، وفلان ابن بني سويف، والحاج صقر ابن القديمة..

كل الذين لم يشاهدهم من قبل إلا في التليفزيون والصحف، يشاهدهم ويتحدث إليهم ويعترض على كلامهم ويختلف معهم.. وضع جديد تماما ومبهر ويستحق ما صرف عليه، وقد أسعده جدا أن يرى صورته في الصحف. يده مرفوعة في وجه وزير الإسكان، طبعا لم يكن اختلاقا أو مشكلة، لكنه كان مجرد حديث حماسي، وهو دائما يستخدم يده في الحوار، ورأى صورته في مجلات كثيرة مع شخصيات مشهورة.. طلب نسخًا من هذه الصور علقت على جدران مكتبه الذي كان يمتلئ كل يوم بأبناء الحي، يريدون حل مشاكلهم أو التوسط لدى المسئولين لتلبية حاجاتهم، وتعيين أبنائهم والحصول على تراخيص لأكشاك ومبانٍ وطلبات نقل من جهة إلى أخرى.. وغير ذلك من المطالب التي لا تنتهي..

حرص على بذل أقصى اهتمام بطلبات أهل الحي وفي مقدمتها طلب شبل اللبودي لإعادة هشام ابنه الضابط المنقول إلى الصعيد، وقد أفلح في هذا.

إزاء كم الطلبات المتلاحق، أصبح يغير مواعيد حضوره إلى المكتب، وقد لا يحضر أياما متواصلة، ولم يعد يدفع مليما لمؤسسة صقر الخيرية، وأصبح المصدر الرئيسي للصرف فيها من التبرعات، فقد أتيحت له الفرصة للتعرف على العشرات من الأغنياء المستعدين للإنفاق على المشروعات الخيرية.

حاول صقر أن يتابع المناقشات ليشارك فيها ولو بالتأييد، لكنه لاحظ أن القضايا المطروحة صعبة ومعقدة، بعضها لا يفتي فيه إلا من يفهمون في القانون الدولي وبعضها خاص بعلاقة الأردن بفلسطين، وبعضها حول تعامل بعض المصريين مع الشركات متعددة الجنسيات، وأخرى حول موقفنا من دفن النفايات النووية. وهناك من يثير مشكلة، منح الجنسية لأبناء المصريات المتزوجات من أجانب، وأغلب الحديث عن الخصخصة والآثار السلبية والإيجابية لاتفاقية الجات، وحقوق التأليف ومشكلة خروج

آثارنا للعرض بالبلاد الأجنبية ومشكلة المياه العالمية وغيرها..

يضطر يحيى للصبر حتى يظهر موضوع أسهل يستطيع أن يقول فيه كلمة حتى ولو يظهر من المناقشة أنها خطأ، ويقول بعد أن يطول الصبر:

- كانت "شورة غبرا".. الكلام واضح.. وهو كلام عربي بلا شك لكنه غير مفهوم، ولا أقدر على الإمساك بالمشكلة، في حين أرى البعض يتحدث عنها كأن أحدا قتل والده. غاضب وثائر ولا يسمح.. ولا يقر.. و.. و.. وينهض آخر ليعترض ويوضح لزميله أمورا، فيفهم الزملاء جميعا.. إلا أنا، لم أكن أحسب أن المناقشة ستكون هكذا.. على أية حال.. لنا أهدافنا وسوف نسعى للحصول عليها، وما دام الكلام صعبا، فالأمر لله.. أنا نفسي لم أتأخر، لكن أظن أن تعلم لغة الماو ماو أسهل..

استطاع يوسف إبراهيم المحامي الذي يقضي معه ساعتين كل أسبوع أن يساعده في فك بعض الرموز وتوضيح بعض الأمور التي ترد في الصحف، وأمكن لصقر أن يستوعب بعضها.. بالبلادي.. لكن ظل الحديث فيها حتى

بالعامية في المجلس متعذرا، في حين كان عواد النمس هو الأنفع، لأنه هو الذي نبهه إلى التركيز على مناقشة القرارات الجديدة.. لعبتك.. مشروعات القرارات.. كلما أعد المجلس لمناقشة مشكلة، تمهيدا لإصدار قرار.. تفتح العيون على الآخر.. حتى لو اقتضى الأمر تسجيل المناقشة على كاسيت سري تخفيه في جيبك ونسمعه معا بوجود يوسف المحامي.. هذا هو الشجر المثمر في المجلس..

تمكن يحيى خلال عدة أشهر من شراء مئات الأفدنة في عدد كبير من محافظات مصر فما إن يسمع.. وهو في المجلس.. أن مساحات زراعية على أطراف المدن على وشك أن يصدر بشأنها قرار بضمها إلى كردون المدينة، أي مدينة، حتى لو كانت مدينة كوم أمبو أو الطور، حتى يندفع لشراء عشرات الأفدنة الزراعية ولو اقترض ثمنها..

يكلف الخبراء بالسفر إلى المنطقة والمعاينة من كافة النواحي وإفادته بالحالة، ثم يقدم على الشراء، وأحيانًا مجرد تليفون لصديقه المحافظ يكفي كي يحجز له مائة فدان أو مائتين، ومع قليل من الصبر والأيام تمر بسرعة البرق

سيصبح ثمن الفدان مباني على الأقل نصف مليون جنيه بعد ثلاثين ألف وهو زراعي..

على الشواطئ الشرقية الشمالية وضع يده على آلاف الأمتار لإقامة أربع قرى سياحية، واضطر للاقتراض بدون ضمانات أكثر من ثلثمائة مليون جنيه من أربعة بنوك.. لم تكن المهمة صعبة.. يكفي أن يرسل الهدايا وينظم السهرات مع المديرين كل ليلة خميس إلى أن يروا ببقايا الوعي ميلاد نهار الجمعة، ويعودوا بالكاد إلى بيوتهم وألسنتهم لا تذكر من الأسماء إلا القليل في مقدمتها يحيى صقر.. الرجل الكريم.. خفيف الظل.. الذي يفهم في الذوق..

في إحدى الولائم الثقيلة المترعة بالسهر والانشراح، والاستعداد لدى الجميع لعمل أي شيء يؤدي إلى انطلاق الجسد وتحليق الروح ونسيان الدنيا والأهل والأرض أيضا، تعرف يحيى صقر على جين ديكنسون – سيدة أمريكية جميلة جدا ورشيقة لا تتجاوز الثلاثين.. جاءت إلى القاهرة لتستثمر أموالها وأموال زوجها هاري ديكنسون الثري الذي توفي في حادث انفجار لنشه في المسيسبي وتعذر التوصل إلى معرفة الفاعل أو الأسباب..

اعترفت ديكنسون لصقر بأن أموالها تزيد قليلاً على المائة مليون دولار، وأنها تحب مصر مما قرأته عنها وما حكاه الأصدقاء، وقبلهم زوجها.. لطالما تمنت أن تزورها، لكن ظروف زوجها لم تسمح بذلك، وها هي تجد نفسها غير قادرة على مقاومة سحر مصر، ولما كانت حرة طليقة إلا من بعض المشروعات الصغيرة المتبقية في ولاية فلوريدا، قررت أن تأتي لتعيش إلى الأبد في بلد التاريخ والحضارة.. في بلد حسن الضيافة.. في بلد الجو البديع طول السنة، لذلك فهي تتعلم اللغة العربية على يد أستاذ لغة إنجليزية بالجامعة الأمريكية.

اصطحبها عدة مرات على مدى شهر لزيارة معالم القاهرة.. شاهدت الأهرامات والمتحف المصري.. زارت المتحف الإسلامي والقلعة وجامع السلطان حسن.. زارت الأزهر والحسين وشربت شايا في الفيشاوي وتمشت في شارع المعز.. وركبت لنشًا في النيل، وكاد يصيبها الجنون من روعة الجو وجمال المناظر.. أخذها صقر إلى منطقة مصر الجديدة، وزارت متحف الشمع والمتحف الزراعي، كما سافرت إلى الفيوم والإسكندرية مع بعض مساعديه،

وكذلك القناطر الخيرية، ثم زارت الأقصر وأسوان، وقررت بعد اقتناع شديد أن تستقر في مصر نهائيا، خاصة بعد أن زارت مرة حي مصر القديمة، استطاعت بعدها أن تأتي لزيارة مصر القديمة عدة مرات.. تلف في شوارع الحي وتتعرف على طبيعته سيرا على الأقدام.

يتعرف عليها نبيل وهي تزور مكتب صقر، بعد أن انتقل إليه ويدعوها لحضور فرح أخته في نفس الليلة..

كانت هنية قد قبلت الزواج من بركات السكري والد ناهد.. الذي تحسنت صحته واسترد حيويته وشفيت تماما ساقه، وكسب كثيرا من يحيى صقر منذ بدأ يعمل معه في المؤسسة الخيرية.. تعهد صقر بأن يتكفل بكل مصروفات الفرح وسلمه قبلها منحة طيبة كي يؤثث شقته بأثاث جديد، ورضيت هنية أخيرا، وكانت قد أوشكت على اليأس من صنف الرجال.. وإن لم يكن هو الرضا المثالي، ولكن "ضل رجل ولا ضل حيطة".

قال ملاك لعلي:

- أنت يا علي مشغول عن نفسك.. تجاوزت السادسة والعشرين ولم تتزوج.. ولم يرد على لسانك ما يفيد أنك مهتم بهذا الموضوع ككل الشباب.

داهم علي إحساس بالمفاجأة.. وبدا عليه التوجس، لكنه قال:

- من قال إني لا أريد أن أتزوج؟

انفرجت أسارير ملاك وقال: عال... إذن فأنت تريد الزواج؟

بسرعة أجاب علي: طبعا..

قال ملاك: ولا يبقى إلا البحث عن عروسة.

رد علي: موجودة..

قال ملاك منشرحا:

- لماذا لم تتقدم إليها؟

تنهد علي وصمت لحظات، ثم قال:

- أخشى أن يرفض أبوها.

- ولماذا يرفض؟

- لعل لديه أسبابه.

- هل هو من الأثرياء أو الوزراء؟

- لا.. أهلها ناس طيبون وفي مستوانا الاجتماعي تقريبا.

- إذن ما المانع؟

عاد يتنهد:

- ربما يكون هناك نقص في التكافؤ..

- أي نقص؟.. مال قلت لا.. منصب قلت لا.. ربما الجنسية..

- مصرية..

- هل أعرف العروسة؟

- عز المعرفة.

- من تكون؟

عاد علي يتنهد، ثم لاذ بالصمت، فقال ملاك:

- ماذا بك يا علي؟ لم أجدك أبدا في حيرة.

- ليست كل الأمور على هوانا.

- لم تقل لي.. من تكون؟

- الآنسة ماجدة.

- بنت من؟

- بنت ملاك.

اصفر وجه ملاك، ثم سأل:

- ماجدة ابنتي؟

هز علي رأسه مؤكدا أنها هي.

قال ملاك: خذ المسألة يا علي بجد، هذه المسائل لا لهو فيها ولا دعابة.

أسقط علي نظراته إلى الأرض، ثم قال:

- سامحني يا عمي.. أنا أحب ابنتك، وقاومت ذلك فلم أستطع.

- علي؟

- لا أمل لي في الدنيا إلا إذا تزوجت ماجدة.

- علي!

- أنا ساكت لأجلك فقط، ولذلك أنا لا أنطق ولولا أنك والد بحق.. فكرت في وفكرت لي، وألححت، ما قلت لك.

- تعلم يا علي أن هذا مستحيل.

- أعلم لكني أحبها..

- لست وحدي صاحب القرار.. هناك الكنيسة وأبونا والأهل.. فاهم..

- أفهم يا عمي.

- وهي..

- أظنها تحبني.

- نسيم ابن خالها خطبها يا ولدي.

لم يرد علي... زاد اصفرار وجه ملاك وشرد طويلاً، وعاد يقول:

ابن خالها طلبها يا ولدي.

استأذن علي في الانصراف.. لم يرد على ملاك.. كان في حالة ذهول قاتلة.. قام ملاك فجأة وأغلق الدكان ولأول مرة يغلقه عصرا.. ذهب إلى بيته.. سألها لم ترد.. أحس بصدق ما قاله علي، طلب إليها ألا تصعد إلى والدة علي وأخته لأي سبب، وقال لها:

- أنا واثق أن ابنتي لن تضع رأسي في التراب وتسبب لي الإحراج.

هزت رأسها استطرد في شبه ذلة.

- أرجوك يا ابنتي.. الموضوع حساس.. أنا عشت طول عمري جنب الحيط، رأسمالي سمعتي، ولابد يا.....

قاطعته ماجدة قائلة:

- تأكد يا أبي أني لن أغضبك أبدا.. أنت كل مالي، وإن كنت أرجوك أن تعذر مشاعري.

- مسلم يا ماجدة.. مسلم يا ابنتي؟

- الدين لله يا بابا.

- آه..كلامه.. ونسيم يا ابنتي؟

- سامحني يا بابا.

أدرك أنه ما دام علي نفذ إلى عقلها فلن يستطيع الحوار معها، وإذا استطاع فلن يصل إلى نتيجة.. لأن إضافة عقل علي مع عواطف فتاة طيبة وحنون وكلها مشاعر مثل ماجدة، معناه الجنون الأكيد.. العقل وحده لا ضرر منه، العواطف وحدها لا ضرر منها، ولكن عقل عبقري وعواطف ملتهبة.. يصبح جيشان وانطلاق بلا حدود ومأساة.. تذكر أنها رفضت شخصين تقدما لها بحجة رغبتها في استكمال الدراسة بالجامعة.

تركها ودخل غرفته وأغلقها عليه، لم يخرج إلا صباح اليوم التالي، كان يوم أحد. لم يذهب لتوزيع حكمته ولم يحضرها من مطبعة سلامة.. لم يفتح المكتبة وذهب إلى الكنيسة.. فكر أن يتحدث إلى المطران أو القسيس أو حتى صديق من أصدقاء الكنيسة.. لم يستطع.. كان يشعر بأنه غير قادر على أي شيء ولا حتى على الكلام أو المشي.

خرج من الكنيسة وظل يمشي في الشوارع، لا يدري لماذا يسير وإلى أين وإلى متى؟ كان يجر قدميه الثقيلتين، نصفه الأسفل المفكوك، حاملاً نصفه الأعلى غير المتزن، لكن الحل الوحيد له هو المشي.. المشي إلى أن يقع وينتهي العالم.. فكر في عرض يحيى صقر عليه بترك دكانه.. يأخذ عدة آلاف ومكتبة جديدة في وادي حوف.. لم يجد في نفسه القدرة على الاستمرار في مناقشة الموضوع.. عاد إلى البيت.. ألحت عليه ماجدة أن يتناول الطعام وطلبت منه ألا يحمل هما ولا يقلق، وعليه أن يثق بها.

تنهد ودخل الغرفة وأغلقها عليه وشعر برغبة عميقة في النوم.. النوم إلى نهاية العمر، ويا ليت أحدا لا يناديه

عندما تقوم القيامة.. وقد خامره شعور بأن القيامـة سـتقوم قريبا جدا وقبل أن يموت.

بعد عدة زيارات للمنطقة وهي الجزء الشمالي من حي مصر القديمة، اقترحت جين ديكنسون على صديقها يحيى صقر أن يشاركها في مشروع ضخم لتعمير وتطوير المنطقة، ونقلها نقلة حضارية لتدخل القرن الواحد والعشرين بما يليق بمصر، بدلاً من هذه البيوت الصغيرة والحواري والخرائب.

مساحة كبيرة من الأرض تمتد من كورنيش النيل، بالضبط من خلف قسم شرطة مصر القديمة وسيدي رويش غربا، إلى نهاية كوم الغراب والشيخ مبارك التي تجاورها المحاجر شرقًا، تنتهي جنوبا إلى مدرسة المعوقين وشمالاً مجمع الكنائس.

رأت ديكنسون أن هذه المنطقة جديرة بأن تمحى من الوجود ليحل محلها مدينة جديدة اسمها "مدينة النور" تتضمن فندق سبع نجوم ودار للملاهي وكازينو وصالات للقمار والبلياردو وحمامات ساونا، ومطاعم عالمية، وقاعة ضخمة للأفراح وقاعة للمؤتمرات ومركز علاج طبيعي، وشركة

سياحية واستديو للتصوير السينمائي والتليفزيون واستديو للتسجيلات الصوتية، ووكالة إعلانات وسينما ومسرحا ومكاتب اتصال وبنوك.. تحف بها الأشجار والنافورات والبحيرات الصناعية.

مدينة النور.. مشروع متكامل يغطي مساحة ضخمة، ويتكلف نحو مليار جنيه، قدمته جين لصقر خلال لحظات عاطفية غاية في الرقة والشفافية.. كان ساعتها مستعدا لأن يتقبل أي شيء، ومع ذلك سمح لنفسه أن يتساءل عن مصير الناس الذين يقيمون بالمنطقة.

- المنطقة يا دارلنج كلها كراكيب، والناس تشبهوا بها على مر السنين.. العالم لم يعد يسمح بهذا.. العالم المتحضر يحاول أن يستثمر كل سنتيمتر واحد في رفع مستوى المعيشة وتحقيق أكبر عائد.

- المنطقة فيها آثار وأماكن مهمة لأصحابها..

- عواطف فارغة.. تعطيل للطاقة.

- لكن.

- أنا كنت أظن أنك مع التطور، ومصر بالذات أكثر بلاد العالم حاجة للتغيير وإعادة صياغة شكلها، ولا تنس أنك

أحد قيادات البلد.. ربنا أتاح لك الفرصة ممثلة في عدة عناصر.. هي مركزك وموهبتك وإحساسك ببلدك من ناحية.. ولقاؤك بي من ناحية ثانية كي نحول قطعة من الطين إلى لؤلؤة تلفت نظر العالم..

- يعني قصدك..

- تخيل لو هذا المشروع تكرر خمس مرات في أماكن مختلفة في مصر كلها.. ماذا تكون مصر بالنسبة للعالم.

قال وهو في شبه شرود.

- يا سلام.. لابد تكون عظيمة.

- ستكون عاصمة العالم أجمع.. تحفة.. موقع وجمال وسحر.. ومن صاحب الفضل.. أنت.. أنت البداية..

يا يحيى.. اضغط على الزر.. اضغط..

- ماذا.. أضغط.. أي زر؟

- زر الانطلاق.. أنت إنسان سيتحدث عنه كل العالم، لأنك ستبدأ رحلة التغيير والتطوير في أهم منطقة في العالم.. اضغط..

لما احتار.. قالت له: قل موافق..

بعد أشهر قليلة أعاد فيها صقر دراسة المشروع مع مستشاريه الكبار في وزارة الاقتصاد والسياحة ومحافظة القاهرة وهيئة الاستثمار، بدأت الخطوات الفعلية للتنفيذ بتوقيع العقد بينهما، وكان يقضي بأن يتعهد الطرف الأول "صقر" بهدم المنطقة المذكورة بالكامل وتسليمها أرض فراغ لجين (الطرف الثاني)..

حددت الدراسة تكاليف عملية التفريغ بنحو مائتي مليون جنيه ثمنًا للأرض والبيوت والمحلات وغيرها، وكذلك بناء بدائل لأصحابها في أماكن أخرى، وكان مطلوبا من يحيى أن يسدد نقدا ثلاثمائة مليون جنيه، لتكون الأرباح بعد ذلك مناصفة بين الطرفين... كان دوره إذن المساهمة في عمليات البناء والتجهيز ومن ثم، يصبح مشاركًا في ملكية المدينة بكل ما تشتمل عليه، وقد أصر صقر على ألا يدفع مليما بعد إتمام عملية التفريغ إلا بعد أن تقوم جين بالصرف على تنفيذ ٢٥% على الأقل من المباني والتجهيزات، وهي تعادل أيضا مائتي مليون جنيه.

استعان صقر بجيش من المساعدين، كي يتولوا إقناع الناس بترك منازلهم، وكان عليه تعويضهم عما يشغلونه من

عقارات، مع بناء مجموعات من المساكن في منطقة ١٥ مايو ووادي حوف، لينتقل إليها الذين يتم ترحيلهم من المنطقة القديمة، وقد طلب أصحاب البيوت عدم ترك مساكنهم إلا بعد استلام الجديدة والرضا عنها.

كانت المهمة في غاية الصعوبة والتعقيد، لكن صقرا كان يمضي فيها بقوة وإصرار، وكل من رفض أرجأ الصراع معه والإلحاح عليه حتى النهاية، وتولى الاستمرار في الشراء.. بيتًا وراء بيت.. وشقة بعد شقة، ودكانًا إثر دكان، الكثيرون فرحوا بآلاف الجنيهات التي وضعها أمامهم وإلى جوارها التنازلات.

مع النقود.. ضع توقيعك أو بصمة إصبعك ثم عد فلوسك.. وفي نفس الوقت بدأ بناء مساكن جديدة، وتعهد أن يسلمها لهم في غضون ثلاثة أشهر.

ومن لم يستجب من نفسه استعان لإغوائه بمن له تأثير عليه ونفوذ، ومن لا يخضع للضغوط ولا يعبأ بأصحاب النفوذ، لجأ معه إلى أسلوب التهديد بوقف الحال وتشريد أهله وخطف أولاده، واستخدم عددا من القيادات المحلية الرسمية والشعبية وبعض رجال الشرطة...

التقى نبيل في أحد الأيام الحامية بصديقة طارق ابن د. شاهر لطفي، وكان يعد الماجستير في الجامعة الأمريكية، أبلغه أن جين ديكنسون صاحبة المشروع تتعلم اللغة العربية على يد صديق هو د. رأفت، الذي يدرس اللغة الإنجليزية بالجامعة، وأنها يهودية تزوجها صقر في السر، حتى لا يثير حوله الأقاويل في المجلس.

نقل نبيل المعلومة إلى علي جودة الذي قام بإرسال عدة خطابات، الأول لرئيس مجلس الشعب والثاني إلى المستشار القانوني للمجلس والثالث لنرجس زوجة يحيى، التي كانت تحتفل وحدها بميلاد الطفلة الثانية منذ أيام قليلة، كما أرسل المعلومات إلى بعض صحف المعارضة.

كان علي قد أنهى بحثه عن قصر الأمير نور وتوصل إلى رسومه الأصلية وتكوينه المعماري، ووصف دقيق لقاعاته وغرفة وممراته وحماماته ومطابخه، وغرف الخدمة والحراسة وأسماء النباتات والأشجار التي غرست في حديقته ومداخله ومخارجه والشرفات والمظلات والخزانات والمخازن ووسائل الإضاءة وغيرها من المستلزمات، كما توصل إلى الأيام التي كان يجيء فيها الأمير لزيارة زوجته،

وهي الثالثة في الترتيب والأولى في الأهمية، وهي التي هرب إليها بعد أن طعنه أحد منافسيه، وما إن استقبلته في أحضانها حتى خر صريعا.

أرسل الدراسة إلى هيئة الآثار. تداولتها أيدي خبرائها شهورا دون جدوى، فاضطر علي – بعد أن بدأت حملة صقر لإزالة السكان والاستيلاء على المنطقة بما فيها القصر الذي لن يدفع فيه مليما لأحد – إلى بدء سلسلة مقالات بالصحف لتخليصه من الباعة والمتشردين والحمير والمدنين، ولينقذه من احتمال استيلاء صقر عليه.

(٣٧)

وصلت برقية لنرجس من سراج يخبرها بعودته، يوم الاثنين السابع من أغسطس، طارت الدنيا بها، ولم تتسع لفرحتها.

- أخيرا سيعود أخي.. ما أحوجني الآن إليه.. لم أشعر بضرورة وجوده وأهميته إلا في السنة الأخيرة، تغير يحيى وأصبح يلعب بذيله، ويكذب في أحاديثه ويتنكر لوعوده، وينشغل عني تماما، وبالأسبوع أحيانًا لا يدخل البيت.. ياه.. حتى وأنا أفكر في أخي يقتحم يحيى فكري.. أين تراه كان؟ ولماذا كل هذه الغيبة.. الحمد لله.. أخيرا سيعود، لعل يحيى يعمل له حسابا ولابد سيعمل، سراج رجل قوي ولا يقبل الحال المائل أبدا.

كانت فرحتها بلا حدود، ولا تكاد تقل عن يوم عرسها.. تشعر أنها مقدمة على حياة جديدة قوية مطمئنة.. تطلع بها فوق الأرض. كانت تشعر دائما أنها زوجة في السر.. تحت الأرض.. لا دور لها ولا كلمة ولا اقتراح ولا نقاش.. مجرد فراش.. بينما حياته هو مملوءة بالأسرار والألغاز والتصرفات المريبة، والأحداث الكبيرة ذات

الأطراف المجهولة.. رفضت أن تجيب على أسئلة سراج القلقة عليها إلا بعد أن يحكي لها عن سر غيابه كل هذه المدة..

- لما وصلت باريس.. وعلم بوجودي عدد من أصدقائي، لم يتركوني، زيارات واتصالات متواصلة.. رحلات.. سهرات.. كل أسبوع في مكان مختلف.. كرم كبير أحاطوني به.. لست في حاجة إلى تذكيرك بأن هذا كان متوقعا، على الأقل ردا على ما كنت أقدمه لهم عندما يحضرون إلينا لزيارتنا.. المهم أني رأيت كل معالم باريس التي لم أرها في زياراتي القليلة السريعة السابقة.. زرت متحف اللوفر وقصر الحكومة في الشانزليزييه حتى مصنع داسو للطائرات.. دخلت تقريبا كل الكباريهات، كنت أقيم في أحد الفنادق لفترة ثم انتقلت إلى شقة صغيرة لكنها جميلة في غابة بولون.. دلني عليها شاب مصري يعد للدكتوراه، تصوري أني لأول مرة أشعر بأهمية أني مصري.. أحببت المصريين.. هناك شباب كلهم حيوية، مقبلون على العلم، لهم مواقف لا تحصى تتسم بالمروءة والكرم.. أما المفاجأة فكانت محبة الفرنسيين لمصر.. لدرجة أني تمنيت أن أقضي عمري

كله هناك حتى امتلئ ببلادي وحبها وحب ناسها الذين رأيت بعضهم هناك، وداخلني إحساس أني لم أكن أعيش هنا.. هناك وجدت مصر جديدة.. حتى عبد الناصر الذي تصورت أن كل العالم "قرفان" منه، وخاصة فرنسا.. بالعكس قابلت كثيرا من الشخصيات الفرنسية والألمانية والإنجليزية والأمريكية، أبدوا إعجابهم الشديد به، ومنهم من راح يحلل لي مواقفه وأسبابها وأهميتها لبلاده، بعضهم لم يكن يعرف أني مصري، وكانوا يقولون: العبرة بدور الرجل لأمته، كما أن النتائج ليست وحدها هي المهمة، لكن المحاولات المخلصة هي الجديرة بالاعتبار.

عشت سنوات رائعة، عمل، علاقات، نزهات، فرجة، سفر، معلومات.. وكان الذي أسعدني أكثر.. أسلوب الحياة.. النظام.. الدقة.. الجدية في كل شيء حتى في اللعب والعلاقات، علاقاتي انتشرت ووصلت إلى شخصيات مرموقة.. منهم داليدا.. كنت أسميها داليدا المسكينة.. لما عرفت أنها انتحرت بالحبوب المنومة. في اليوم التالي ذهبت إلى بيتها، وجدت آلاف الفرنسيين حول البيت، يبكون ويستخدمون مكبرات الصوت في إذاعة أغانيها، وكأنهم

يحاولون بالأغاني إعادتها للحياة، لكنها كانت يائسة، وكانت دائما تقول: الحياة لا تطاق..

بعد وفاتها بحوالي سنة، فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل، عندها شعرت بالفخر الحقيقي والسعادة وأنا أرى صوره على أغلفة المجلات والكتب، ويتكلمون عنه وعن مصر في النوادي والصالونات والتليفزيون.. بس يا خسارة صورتنا من شهور رجعت أسوأ من الأول بعد غزو العراق والكويت، والعالم كله لم يعد له سيرة ولا حديث إلا عن العرب الذين يأكل بعضهم بعضا.

قاطعته نرجس، أنا لا أريدك أن تحدثني عن فرنسا وجمال عبد الناصر وداليدا ومحفوظ والعراق.. أريد أن أعرف لماذا غبت كل هذه المدة بلا رسائل... انقطاع كامل؟

- في يوم أفقت وجدت نفسي في مكان غريب.. حراس مسلحون يحيطون بي وأسأل عن المكان وعن أصحابه وعن السبب وعن.. وعن.. لا أحد يجيبني، وبعد عدة أيام وجدت نفسي في فيلا فوق جبل في كولومبيا.

- كولومبيا!

- كولومبيا دولة في أمريكا الجنوبية.

- أعرف، ولكن لماذا ذهبت إلى هناك؟

- أنا لم أذهب.. أنا نمت في شقتي في باريس.. فتحت عيني، وجدتني في مكان مختلف والرشاشات حولي من كل ناحية.. والرجال لا يجيبون، كأنهم خرس، وعندما يضيقون بي، يهددون بالضرب.. كانوا في البداية يشيرون إلي بالإصبع فوق الشفة.. يعني ألزم الصمت، وبعد ذلك يسحبون الإصبع نفسه أفقيا تحت الذقن، يعني إلا ستذبح..

في مرة ثار أحدهم علي وضربني على رأسي بمؤخرة الرشاش.

بعد أسبوعين فهمت أنهم تجار مخدرات على مستوى دولي ويصرون على أني الرجل الذي عقد معهم صفقة بعشرين مليون دولار، واستلمت البضاعة واختفيت وأنا ورجالي، إلا واحدا منهم (من رجالي) هو الذي دلهم على مكاني.. كنت أسهر في نادٍ للقمار تديره سيدة فرنسية من أصل لبناني اسمها سيمون، لما رأتني أكسب مبالغ كبيرة طلبت أن أشاركها، لكن رجال العصابة كانوا يراقبونني ويرصدون كل حركات وتنقلاتي إلى أن تمكنوا من خطفي إلى كولومبيا بعد تخديري.

نفخت نرجس وقالت: ياه.. إنت بطيء.. يا جدع خاص.

- سجنوني في أحد أوكارهم فوق جبل على بعد ثلاثمائة كيلو متر غرب العاصمة بوجوتا.. الجبل يطل على المحيط الأطلنطي.. المياه أمامنا بلا نهاية، ويصعب تماما الهرب منهم حتى لو تخلصت من القيود التي كانت تقبض على قدمي اليسرى فقط.

جاء عليهم الدور ليسألوني عن البضاعة، والأموال والرجال والخيانة والنذالة وتنوعت إهاناتهم ووسائل تعذيبهم، وبعد عدة أسابيع لاحظت أن حوارهم معي قل وخفت الإهانة والبصق المقزز، وقال أحدهم لي: ظهر أنك لست الشخص المطلوب، ومع ذلك لم يطلقوا سراحي، إلى أن هجمت قوات الشرطة بالطائرات من الجو، وبالمدافع من البر والبحر.. فر الجميع وأصبت في الهجوم ووصلت حالتي النفسية إلى أدنى مستوى.

تمنيت في كل لحظة أن أعود إلى مصر، إلى بلدي اكتشفت أني أحبها، وأنها مهما حدث بها أفضل من بلاد كثيرة.

قضيت شهورا تحت العلاج بمستشفى كبير بالعاصمة، وقد أبلغت السفارة المصرية، وطلبت منهم عدم إبلاغك بشيء وكانوا متحمسين لذلك.. طلبت منهم فقط متابعة حالتي وإعادتي إلى شقتي بباريس بعد إتمام الشفاء.. كانت عدة طلقات قد نفذت في ظهري وبطن ساقي..

احتجت السفارة المصرية لدى الحكومة الكولومبية التي قدمت اعتذارا رسميا يتضمن أسفها لقيام هذه العصابة العتيدة في الإجرام وتجارة المخدرات باختطاف المواطن المصري سراج البارودي وتعرضه للإصابة، وإصرارها على عدم السماح بمغادرتي أراضيها إلا بعد كامل شفائي، واستعداد الحكومة لتحمل كافة النفقات بل وتعويضي ماديا، رغم أنها ليست المتسببة فيما أصابني وعزمها على مطاردة الآثمين أينما كانوا..

تنهدت نرجس وقالت بحنان: الحمد لله يا أخي إنك عدت بالسلامة.

- بعد تماثلي للشفاء عدت إلى باريس، وجدت شقتي كما هي، ذهبت إلى نادي القمار لأعاود اللعب والحصول على مال للشقة التي تأخرت على إيجارها وحاجتي الماسة

للنقود.. فوجئت بسيمون تعاملني بغلظة، وتطردني وتهددني بإبلاغ البوليس إذا عدت مرة أخرى، حاولت التوضيح.. لم تسمع.. علمت بعد ذلك أن أشخاصا حاقدين حذروها مني بوصفي أحد تجار المخدرات والسلاح، بدليل اختفائي والقبض علي، قالت لهم إنها تخشى العصابات لأن رجالها لهم علاقات برءوس المافيا.

وقعت في حيرة وأصابني الارتباك الشديد.. اختفت كل أموالي، حتى التحف والأشياء الثمينة وبعض المجوهرات التي كانت بالشقة تم الاستيلاء عليها.. في أحد اللقاءات مع بعض المصريين الذين علموا بحالي وحاولوا التخفيف عني، التقيت بفتاة سويسرية جميلة وطيبة.. أحبتني وحرصت علي رؤيتي كثيرا.

قاطعته نرجس: لماذا لم ترجع على الفور ما دمت لا تجد عملاً وضاع منك كل ما تملك؟

- لم أكن متحمسا للعودة وأنا على هذه الحال من الإفلاس.. كرامتي لم تسمح بذلك.. يقولون.. غاب.. غاب وعاد "يد ورا ويد قدام".. ليس فيها حتى الهدايا.

كنت غير راضٍ عن نفسي.. عزمت على أن أعمل عملاً محددا، يدر دخلاً كبيرا، قررت افتتاح محل لبيع التحف المصرية بمساعدة بعض المصريين، وهم أنفسهم الذين اقترحوا فكرته، وفتحت المحل وملأته بالآثار والتحف وبعض المنتجات المصرية مثل السجاد والنحاسيات والبردي والجلاليب المنقوشة.. وكانت السويسرية تأتيني في المحل، وقد توطدت العلاقة وتعمقت وازداد التفاهم، وأصبحنا نشعر برغبة عارمة في الرفقة الطويلة الدائمة، ولا نود أبدا أن نفترق.

تعرفت بأخيها وهو صاحب شركة لصناعة أجهزة غسيل الكلى، أما هي فكانت هوايتها الوحيدة وتجارتها شراء الكريستال الأصلي والأحجار الكريمة، وهي رخيصة نسبيا في دول شرق أوروبا وأفريقيا وتباع غالبيتها للأثرياء في غرب أوروبا..

تزوجنا، ومرت بعض الأشهر، وقال أخوها فريدريك إنه سمع بأن حالات الفشل الكلوي في مصر من أعلى معدلاتها في العالم، وهو يريد أن يفتح مصنعا في مصر، يسوق إنتاجه في مصر ودول العالم الثالث المحيطة، وأيدت

إليزابيث الفكرة، وهكذا أصبح ملائما جدا.. الآن فقط أن أعود.. بعد تحسن الأحوال وتجمع الرغبات واتفاقها على هدف واحد.. أعود وأنا لست الذي سافر قبل عدة سنوات.. سنوات غيرتني تماما، وإن كنت سوف اشتاق قريبا للعودة إلى باريس..

رضي سراج عندما علم أن أخته نرجس لم تتزوج رجلاً نكرة، وإنما رجل أعمال وعضو بمجلس الشعب وذو نفوذ وعلاقات، وكل ذلك يمكن أن يفيده.

سأل نرجس عن الأراضي والعقارات، قالت له إن كل شيء كما هو، ولم يمس أحد من إخوته شيئًا.. سافر إلى البلد وبحث موضوع بيع كل الأراضي الزراعية.. فوجئ بأن المعروض عليه مبالغ ضعيفة جدا، والذين يركبون الأراضي يرفضون أن يبيعها لغيرهم، دارت مناقشات حامية، لم تسفر عن تقدم كبير، لكنه بدا متعجلاً، ولم تساعده أعصابه وظروفه على الصبر والمغادرة.. أخيرا رضي ببيع الأراضي لزارعيها بثلثي ثمنها في السوق، وقال له البعض إنه حقق ما لم يحققه غيره، فالعادة أنها تباع بنصف ثمنها.

بعد أسبوعين حضرت زوجته وأصرت على أن تنزل في فندق.. وأقام سراج حفلاً ساهرا ورائعا، جمع فيه كل أفراد الأسرة والأصدقاء ليعرفه بإليزابيث ويعرفها بهم ويجمع الشمل من جديد بعودته، وأعلن عزمه على إقامة مشروعات مشتركة مع زوجته وأخيها، وتكون البداية بناء مصنع لأجهزة غسيل الكلى.. دهش البعض في البداية، لكنهم بعد استعراض الأرقام الخاصة بحالات الفشل الكلوي، أقروا الفكرة، بل وأعجبوا بها وحيوا فردريك ووعدوا بالمساندة الجادة والمخلصة، وتحدث البعض عن الفرق بين هذا المشروع وعشرات المشروعات التي أنفق عليها أصحابها المليارات من أجل إنتاج البسكويت والشيكولاتة واللبان والعطور وأدوات الماكياج وتعبئة الشاي.

ذهب ملاك إلى أم علي يرجوها باسم المودة والعشرة الغالية والجيرة، وباسم كل ما هو مقدس أن تتحدث إلى علي ليصرف نظر عن التفكير في ابنته، ويبعد عنها ولو يتحمل العذاب من أجل رجل أحبه، وتمنى من كل قلبه أن يكون أسعد إنسان.

وذهب إلى الشيخ إبراهيم يعرض عليه المشكلة، ويدعوه لمساعدته في توجيه علي وجهة أخرى غير وجهة ابنته.. عليه أن يتصرف في بوصلة قلبه وأن يفعل أي شيء لكي ينساها ويحمي الأسرة من الدمار، فالمسألة أكبر من علي ومن ملاك، كما أنه ليس لديه غيرها، إذا ذهبت لا داعي له أن يعيش.

حدثه عن التكافؤ الذي يمثل أهم عنصر من عناصر الزواج الناجح في كل مجتمع. واختلاف الدين يمثل نوعا من الاختلاف الكبير في هذه العلاقة المقدسة.

كان يس الفار يجلس بالقرب منهما.. لكنه لم يكن معهما.. كان شاردا تماما لا تتحرك فيه غير أصابعه التي

تحرر حبات المسبحة وتسقطها واحدة فوق الأخرى لم يعرفه ملاك لطول لحيته وبياضها.. قال: هل تتصور يا سيدنا الشيخ إن الكنيسة نفسها أحيانًا ترفض زواج المسيحي بالمسيحية؟

قال الشيخ: أعلم أن هناك نوعا من الاختلاف بين الطوائف، يعني الأرثوذكسي غير الكاثوليكي.. لكن هل يؤثر هذا في الزواج؟

قال ملاك: نعم، وقد حدث أن نشأت علاقة بين مدرس ومدرسة، وتزاورا وتحابا، ولم تكن المدرسة تعرف أن المدرس كاثوليكي فشعرت بأنها أقدمت دون أن تقصد على خطيئة، ولابد أن تذهب إلى الكنيسة وتلتقي بالأب لتعترف له بأنها كانت تتحدث مع شخص غير أرثوذكسي، فقال لها إنها ليست خطيئة، لكن لا داعي للزواج من شخص غير أرثوذكسي وعدم دخول كنيسة غير أرثوذكسية، وحضرتك تعرف أن الزواج لابد له من أن يكون الزوجان من عقيدة واحدة حتى يتحقق الانسجام بينهما، وتتحقق السلامة النفسية والدينية لأبنائهما.

وعده الشيخ بالتحدث إلى علي.. وتحدث بالفعل إليه فوافقه علي، إنهاء للحديث الذي طال، ومنعا لانتشار القضية واتساع الحوار حولها.. وتعهد له أن يبحث عن وسيلة للتخلي عنها، لكن ذلك سيتم تدريجيا ومن ثم يحتاج لبعض الوقت، وتمنى عليه ألا يذيع هذه الأنباء لمخلوق.

ذهب ملاك إلى كنيسة العذراء، وقف أمام الهيكل، تعلو رأسه صورة مريم البتول تحمل ولدها المضيء بالسماحة، والحنان:

- سيدي المسيح، أنا أتبع تعاليم كنيستك المقدسة في كل ما أفعل، وفي كل ما أقول، وفي كل ما أفكر.. هذا مسعاي اليومي، بل وكل من ينكرك أقطع به صلتي.. أطلب المساعدة.. ابنتي تحتاج إليك.. ذهب الجميع وبقيت ماجدة.. فقف معها واهدها.. أنت صعدت إلى ملكوت الرب. لكنك معنا.. نحن جميعا بحاجة إليك.. امسح جبينها بيدك الطاهرة تهتدي.

عاد ملاك من الكنيسة مهموما وقد انخفض إلى الأرض وتهدل ثوبه من كتفيه، ولما نكس رأسه إلى الأرض وسار ببطء، بدا قصيرا ولا يكاد يبين، وأمام عينيه لوحة

مكتوب عليها قول المسيح: ما جمعه الله لا يمكن لإنسان أن يفرقه.. كانت اللوحة تمشي أمامه إلى أن نفذ في وعيه ما سمع من الهرج.. رفع رأسه.. رأى عائلة يس الفار تجري جميعها بنسائها ورجالها، ما عدا يس نفسه وفي وجوههم غضب وحزن، وفي عيونهم دمع غزير يتناثر مع صراخهم.. ولما سأل.. صدمه الخبر.

جيران جمعة في شقته الجديدة أبلغوا الشرطة أنهم يشمون رائحة نتنة تأتي من ناحيته.. جاءت الشرطة وكسرت الباب، وجدت جثة جمعة متعفنة، قرر الطب الشعري أن ذلك حدث منذ ثلاثة أيام، وكانت هناك بقعة دم كبيرة والشقة مبعثرة الأثاث.

تمت الإجراءات في جو من الأسف والدهشة.. الحي كله شارك في الجنازة وامتلأ السرادق عن آخره عدة مرات، وفي اليوم التالي باشرت النيابة التحقيق.. واشتعلت عناوين الصحف تتناول مصرع الفنان الفذ.

تأثر علي لما رأى منظر ملاك.. ذهب إليه وتحدث معه بعض الوقت وسأله عن أحواله.. كان ملاك متحفظًا، لا يكاد ينطق.. قال علي والدموع في عينيه..

- لأجلك وحدك يا أبي سأخنق قلبي وأبتعد عن ماجدة.

ارتعد ملاك ورفع رأسه لأول مرة وسأله:

- أحقا.. يا علي.. يا ولدي..

- حقا يا أبي، ولكن اعلم أني أحب ماجدة حبا لا حدود له، يملك علي كل أعصابي وحاضري ومستقبلي وحياتي، ولا أحسب أن شابا أحب فتاة كما أحب ابنتك الغالية الطاهرة.

- أعرف يا ولدي، وأشكرك على أنك عملت لي حسابا، وحافظت علي وأنا مستعد أن أتنازل لك عن كل ما أملك.

- ما هذا الكلام؟.. لا تقل هذا، هل أنا أبيع لك قلبي، أتنازل لك عن حبي مقابل شيء.. أبدا أنا لا أبيع ولا أتنازل ولن يحدث ذلك أبدا، سيبقى كل شيء كما هو، ولكني سأكتمه، من أجلك وحدك وأنت عندي غالٍ جدا جدا، فأنت أبي بحق ولا يتعين أن يغضب الولد أباه أو يتسبب له في ذرة حزن..

انفطر ملاك من البكاء وتبعه علي جودة، وقام ملاك فعانقه ومسح له دموعه وقبله عدة مرات.

ثم قال له: تمم جميلك.

قال علي: ليس جميلاً قلت لك.. هذا حقك، ولكن اعلم أنه أصعب المواقف التي مررت بها وأحرجها، وأثقلها على نفسي، واعلم أيضا أني سأضحي بحياتي وبكل ما أملك من أجل أن يبقى حبي، على الأول في قلبي..

عاد ملاك يقول: تبقى خدمة.

- ما هي؟

- أن تقنع ماجدة أن تنساك.. وتنسى حبك وتنتبه لدراستها وحياتها.

- أنا في الحقيقة أفكر في السفر خارج مصر، وربما هذا يكفي.

- لا.. لن يكفي.. ابقَ كما تشاء.. لكن المهم أن تجعلها تنساك.

- كيف.

- هذه مهمتك.. هذه هي الخدمة الحقيقية، لأنها للحق.. تحبك.

- سأحاول.

- حاول جدا ولا تتوقف عن المحاولة.. أنت يا ولدي تعلم أنها هي وحدها الباقية لي، وقد ذهب أخوها.. هل تعلم أنه أرسل برقية منذ عدة أيام يخبرني فيها أنه سيبقى لعدة سنوات هناك.. إذن فهو يخطط للبقاء الدائم هناك.. هل فهمت يا علي؟

هذا هو الحال يا ولدي..

- تذكر أنك تتصرف معي وكأني غريب عنك.. ألست ولدك.. ألا تعتبرني مثل مجيد؟!

- يا علي.. سعادتنا كلها بيدك.. طوع قرارك.

- كما كانت سعادتي بيدك.

- أبدا يا ولدي لا تصدق.. أنا لا دخل لي.. هناك سلطة دينية وهناك الأهل في الصعيد، وهناك أخوها ومستويات عديدة من آباء الكنيسة، وبعضهم يعرفني شخصيا ولن أغيب عن عيونهم، ولست غريبا عنهم، ولا تنس أن نسيم ابن خالها يريدها، وطلبها عدة مرات وأخذ يبعث إلي من لا أستطيع ردهم.

- امضِ يا ولدي.. ستر الله عرضك وأهلك وحفظك لشبابك.

كان في استقباله في المطار وزير التربية والتعليم ويحيى صقر ابن خالته وعدد من العلماء وأساتذة الجامعة والصحفيين، وكذلك كان هناك مصورون من القنوات التليفزيونية المصرية والعربية ومراسلو الإذاعات ووكالات الأنباء وجماهير تزيد على الألف مواطن، ينتمون لفئات مختلفة، جاءوا جميعا لرؤية المفكر التربوي الكبير د. رمزي الدمنهوري، الذي بدا سعيدا ومندهشًا، وصرح بأنه كان يحسب أن أهله فقط هم الذين سوف يجدهم بانتظاره، وما يراه الآن ويلمسه يدل على نظرة الحكومة للعلم وتقديرها له، وحب الشعب لأبنائه الذين يواصلون الطرق ولا يخضعون للإغراءات العاجلة، أو قصيرة الأجل أو ذات الطابع المادي الاستهلاكي.

وصرح أيضا أن كل المؤشرات توحي بتزايد الوعي وانتقال نظرة المواطن البسيط إلى مستوى أعلى، ولو استمر هذا الدفع والتصاعد، فمعنى هذا أن القاعدة الشعبية العامة، يمكن أن تضع أقدامها على أعتاب عالم متقدم، إذ المعيار دائما ليس الفرادى المتقدمين أو النابغين، ولكن المعيار يأخذ

في الاعتبار القاعدة أو الجموع ولا يعتبر وجود خمسين مفكرا أو عالما في دولة من خمسين مليون فرد تقدما.. ما دام الجميع يتصرفون في الأغلب بشكل عشوائي.

ومع ابتسامة جميلة لمعت معها عيناه قال: وأنا بالطبع سعيد جدا بلقاء أهلي.. وهم كل من تراهم عيوني الآن.

إحساس غريب يسري الآن في بدني، كنت قد نسيته منذ خمسة عشر عاما منذ أن وطأت قدمي الأرض التي يفصل بيننا وبينها المحيط وأشياء أخرى.

تعددت الأسئلة.. أجاب عن بعضها بإيجاز وبعضها بدبلوماسية وأرجأ بعضها الآخر لمجال أوسع لحاجتها إلى تفصيل، والحديث عنها يحتاج إلى الحديث عما قبلها.. فمجال الدراسات التربوية والتعليمية ينهض في الأساس على فكرة البناء من عدة طوابق وليست الفيلات المنفصلة أو المنعزلة.

أصر وزير التعليم أن يوصله بنفسه إلى الفندق ليرتاح ساعة، وبعدها يلتقيان وضيوفه على الغداء، ويتوالى البرنامج حسب النشرة المطبوعة.

يسعد بوجود ابن خالته يحيى بك صقر عضو مجلس الشعب ويشكره على حضوره بينما الكاميرات لا تكف عن التصوير. على جنب يسأل د. رمزي أخاه فتحي عن أمه، فيضطرب ويقول له إنها خرجت ولم تعد ويسأل أخواته البنات، يقلن جميعا: إنها خرجت ولم تعد.. يقرر رمزي أن يذهب إلى الحي للبحث عنها.. يقول له البعض: إنها كانت هنا في الخرابة تعيش منذ شهور.. ومنذ أسبوعين فقط اختفت.. مرة أخرى يأخذ رمزي أخاه فتحي على جنب ويسأله:

- صارحني يا فتحي.. إنت أو أي واحد من أخواتك عملت فيها حاجة.. "زعلتوها".

يدهش فتحي من كلام أخيه.. ويقول..

- والله يا رمزي يا خويا.. والمصحف الشريف..

يسرع رمزي يوقفه.

- لا تحلف.. أنت صادق.. أو المفروض، لأنها أمك..

- حتى لو مجرد سيدة غريبة أرعاها في بيتي.. سأهتم بها وألبي طلباتها، فما بالك وهي أمي.. قال الله في

كتابه العزيز: ﴿وقَضى ربك أَلا تَعبدوا إِلا إِياه وبِالْوالِدين إِحسانًا إِما يبلُغَن عِنْدك الْكِبر..﴾ يقاطعه رمزي، لكنه يكمل بحماس: ﴿أَحدهما أَو كِلاَهما فَلاَ تَقُل لهما أُف ولاَ تَنْهرهما وقُل لهما قَولاً كَريما واخْفِض لَهما جنَاح الذل مِن الرحمةِ وقُل رب ارحمهما كما ربيانِي صغِيرا﴾..

لا يا دكتور.. لا..

يسرع الدكتور رمزي قائلاً:

- خلاص.. مصدقك يا فتحي.

- لا يا دكتور لا.. لا يحق لك أن تتهم.

- خلاص يا فتحي.. خلاص..

كان فتحي الدمنهوري قد علم بقرب قدوم أخيه فذهب إلى الخرابة التي بلغه أن أمه فيها، ليصطحبها وتعيش معه أياما حتى يرجع أخوه إلى أمريكا وتعود هي إلى الخرابة، لكنه لم يجدها، فأخذ يبحث عنها دون جدوى.

استولت حالة غريبة على د. رمزي، وبدا عليه التوتر بسبب عدم رؤيته لأمه، وعلم يحيى فبعث رجاله للبحث عنها في صباح اليوم التالي.. ذهب إلى الحي وسأل

كل الناس عنها، وتبرع بعضهم بالحديث عن معاملة إخوته لأمهم وإهمالهم لها، بل طردها وتشريدها.

التقط أحد الصحفيين الخبر، فسجله تحت عنوان "مستشار بوش يبحث عن أمه في الخرابة".. لولا أن لحق به نائب رئيس التحرير قبل طبع الجريدة.

علم الوزير بالموضوع، ولاحظ ارتباك المواعيد وإلغاء الندوات وتأجيلها، استعان برئيس الوزراء لكبح جماح الصحافة، وكاد الأمر أن يخرج من أيديهم بسبب الأقلام التي تحاول أن تكون حرة جدا، فاكتفت بأن تسأل فقط أين اختفى المفكر التربوي الكبير بعد وصوله إلى القاهرة.. وكان من السهل على الجميع توقع المشاكل التي يمكن أن تنفجر، ليس آخرها أو أقصاها سؤال السفير الأمريكي عن المواطن الأمريكي حامل الجنسية المزدوجة..

كان رمزي يشعر بطعنة بالغة، تمزق قلبه لأن أمه حية، بينما أولادها لا يعرفون أين هي.. لو ماتت.. لا بأس.. كلنا سنموت، لكنها لا تزال تتنفس، وكانت حتى أسبوعين موجودة، وأين كانت موجودة.. لقد رأى المكان البشع الذي كانت تقيم فيه، بينما ابنها على أمتار منها سعيدا وهانئًا

بزوجته وأولاده في شقة أمه.. مستحيل، وفجأة.. أفاق من غيبوبة الأمومة على طرقات العلم والوطن.. ورأى أن يمضي في عقد الندوات وتلبية الدعوات، ثم يتفرغ بعد انتهاء البرنامج للبحث عن الوالدة، ويحاول الاتصال بمكتبه في واشنطون لتأجيل العودة أسبوعا واحدا.

تعددت الندوات وتوالى التكريم والمناقشات، وعاش قطاع كبير من البلاد حالة من الزهو بما أنجز الابن النابه، وطغت العاطفة الجياشة لشعب محروم من الانتصار والتفوق إلا قليلاً.. وكان هناك جانب كبير من الأضواء حظي به يحيى صقر ومسحة من التقدير من جانب رئيس المجلس والأعضاء.

ما إن أعلن المذيع في إحدى الندوات ترحيبه بالضيف الكبير د. رمزي الدمنهوري، حتى صرخت أمه الجالسة أمام التليفزيون، وسقطت الكوب من يدها..

- ابني.. ابني..

ارتعدت وسالت من عينيها دموع مفاجئة، وعادت تصرخ:

- ابني يا سناء.. ابني يا بنتي..

اضطربت سناء وهبت تلحق الكوب الذي انكسر والماء الذي أغرق المائدة وتسألها:

- د. رمزي؟
- نعم.. هو.. حبيبي يا بني.. كيف أذهب إليه.. كيف أراه.. كنت أنتظر هذا اليوم..
- اهدئي يا أمي.. اهدئي.. سوف نعرف كيف نراه، ونعرف أين يسكن.. علينا أولاً أن نهدأ لنستمع..
- ابني.. يا ترى أنت هنا ولا هناك...
- في أمريكا.. قلت مرة إنه في أمريكا..
- نعم..
- لكن من يتحدثون معه يتكلمون بالعربي وهو يتحدث بالعربي.. وإن كنت لا أفهم كلامه..
- محتارة يا ابنتي.. من يدلنا؟

مضت سناء تفكر، ثم قامت إلى التليفزيون وتحدثت إلى ناجي ابن عمها، وهو صول في المباحث، لم يفدها بشيء.. اتصلت بزوج بنت خالتها.. الأستاذ حسين مدرس الابتدائي، قالت له: افتح التليفزيون..

فتح.. سألته عن الضيف الذي يتكلم في القناة الأولى..

قال لها: إنه المفكر المصري المشهور، د. رمزي الدمنهوري..

قالت له سناء على الفور: براوه عليك.. هل تستطيع أن تعرف إذا كان هذا اللقاء في مصر أم في الخارج؟

قال بثقة: اللقاء في مصر.. تقريبا في قاعة محاضرات بفندق.. بفندق..

قاطعته: خدمة العمر تقدمها لي.. لو عرفت مكانه وكيفية الاتصال به.. شاهد البرنامج ثم اتصل..

أغلقت السماعة وطمأنت أم رمزي بأن الرد سيأتي بعد قليل.. وجلسا يتابعان البرنامج.. والدموع تفيض.. كل الدموع التي تجمعت، ربما طوال عمرها تسيل الآن..

اتصل حسين وأنبأها بمكانه، طلبت إليه أن يتفضل بزيارتها الآن، كان يسكن الشارع المجاور.. حضر إليها وتعرف على أم رمزي.. وعرف القصة.. قرر أن يأخذها إليه، ولا يتركها حتى تلقاه..

سناء سيدة بسيطة تعلمت الخياطة على يد أم رمزي قبل عشر سنوات وخطبها عبد الباقي النقاش وسافرا معا إلى الإمارات.. عمل هناك وعملت.. عادا بالأموال.. اشتريا شقة جديدة في دار السلام.. فكرت سناء في أن تزور صاحبة الفضل عليها.. من علمتها.. وجدتها بعد السؤال في "الخرابة".. أصرت على أن تأخذها معها.. أقسم عبد الباقي ألا تبرح داره.. وأي شيء تطلبه يوفره لها في ثوانٍ..

عندما التقت أم رمزي بولدها سقطت من طولها.. وأحضروا العطور.. أفاقت ثم عانقته وسقطت من طولها.. وأفاقت وبقيت مع ولدها في الفندق أربعة أيام، رجعت بعدها سنوات في اتجاه الشباب.. شكر د. رمزي عبد الباقي وأخبره أنه سيستأجر شقة لأمه لتعيش فيها، ومن يود رؤيتها.. يزورها في بيتها.. وسوف يكون إلى جانبها تليفون ليتحدث إليها كل أسبوع.. رفض عبد الباقي ورفضت سناء.. ورفض أولادهما الثلاث الصغار، ترك "نينة إنصاف" وقالوا جميعا: البيت بيتها وكلنا خدامها..

أقسم عبد الباقي ألا تغادر "نينة إنصاف" وطلب طلبا بسيطًا من د. رمزي هو أن يحجز لها كي تحج إلى بيت الله الحرام، فهذا حقها على ولدها، والباقي على عبد الباقي..

اختلطت الألوان العديدة من الدهشة في رأس رمزي.. الدهشة لموقف إخوته.. أبنائها.. والدهشة لموقف شخص غريب، أمه نفسها لم تكن تعرفه قبل شهر على الأكثر.. وسناء المتشبثة بالتراب الذي تسير عليه أقدام أمه لمجرد أنها علمتها الخياطة ثلاثة أشهر منذ سنوات.. وكانت هناك دهشات أخرى لما عرفه من أحوال الناس، والبلاد.. وما لبث أن نسي كل ذلك.. وأعاد ترتيب عقله وتنظيمه ليلائم بلادا أخرى، وإليها انطلقت الطائرة التي لوحت لها طويلاً قلوب ودموع..

(٤٠)

مضى سراج يجهز أرض الطريق الصحراوي التي تبعد عن الهرم في اتجاه الإسكندرية بنحو ثلاثين كيلو لاستغلالها كمصنع مع شريكه فريدريك شقيق زوجته إليزابيث.. ومع أول ضربات البلدوزر في الأرض، طلعت من باطنها لوحات معدنية عليها أرقام سيارات ملاكي الجيزة.. تملكت سراج الدهشة.. ما كل هذه اللوحات.. حوالي ثلاثين، ولماذا يدفنها مرور الجيزة في أرضنا..

عاد إلى نرجس وسألها عما إذا كانت تعرف أي شيء يخص الأرض، أو أن ثمة اتفاقًا بشأنها أو فكرة مشروع معين، أو تم تأجيرها لجهة رسمية أو غير رسمية..

قالت نرجس إن يحيى كان قد استخدمها عدة أشهر كمخزن لقطع الغيار، وسألته عن أي تغيير في شكلها أو في سورها.. فأجاب بالنفي، فقد كان كل شيء على ما هو عليه بالضباب كما تركه سراج قبل سفره حتى الكوخ والطلمبة وشجر الكافور.. لا تغيير يذكر إلا زيادة كمية الحشيش

والهيش والغاب في الأطراف بجوار جدران السور، وكمية من الثعابين والسحالي والفئران..

أبلغ الشرطة، تم التحقيق.. أجرى البحث في ملفات إدارة مرور الجيزة.. تبين أن اللوحات كلها لسيارات مرسيدس.. سرقت وأبلغ عنها أصحابها ولم يعثروا لها على أثر..

كان يحيى صقر قد نسى موضوع لوحات السيارات تماما، لكنه أغرق سراج وزوجته وأخاها بكرمه واهتمامه، ولم يشك سراج فيه، لكن علامة استفهام كبيرة كانت تحيط به استمرت تحريات الشرطة دون نتيجة، وانتشر الخبر بين الناس.. سيارات المرسيدس التي اختفت منذ ثلاث سنوات وانتقل هشام اللبودي ضابط المباحث إلى الصعيد، لأنه انهال على السياس الثلاثة حتى مات منهم واحد وبقي الاثنان على قيد الحياة، لكن بعاهات.. وجدت لوحات هذه السيارات في أرض البارودي، فمن الذي سرقها وفككها وأخفى في تلك الأرض لوحاتها..

كان يحيى قد أغلق مخزن قطع الغيار المستعملة، لكنه ظل في حيازته، ولما وصلت إخبارية للشرطة من فاعل

خير مجهول، تفيد بأن صقر عضو مجلس الشعب كان يتاجر في قطع غيار المرسيدس المستعملة سنة كذا، وهي نفس السنة التي اختفت فيها هذه السيارات، قامت قوة من الشرطة بالهجوم على مخزن قطع الغيار بعد استئذان النيابة، وعثرت على قطع عليها أرقام شاسيهات السيارات المسجلة لدى إدارة المرور..

طلب النائب العام من مجلس الشعب رفع الحصانة عن العضو، قاومت اللجنة القانونية في المجلس هذا الطلب، لكن الصحافة وصلها الخبر، فخرجت الأقلام تسأل عن سر القوة التي يتمتع بها العضو، وتؤكد عدم وجود أي شخص فوق القانون مهما علا مركزه.. وأخيرا رفعت الحصانة وتم توجيه الاتهام إلى يحيى صقر لقيامه بسرقة تسعة وعشرين سيارة مرسيدس حديثة الصنع وتفكيكها وبيعها قطعة قطعة..

كلف يحيى أكبر المحامين للدفاع عنه، واستعد لدفع مليون جنيه من أجل البراءة، وأكد له محاموه العتاة، أنها مضمونة إذا اتبع الخطة التي وضعوها له وتحتاج إلى مليون آخر لن يدخل جيوبهم هم، فسيأخذ طريقه إلى جيوب أخرى ذات حيثية في عدة سلطات..

فعل بالضبط كما طلبوا، واستمر في تحركاته وابتساماته وسهراته، كما كان، حتى يوحي بمصداقيته وسلامة موقفه، وأرسل – كجزء من الخطة – رسائل إلى أكبر المسئولين يحدثهم عن مشروعاته وسعادته ببلاد الأمن والأمان وسيادة القانون ومناخ العدالة الذي يرفرف على الجميع وعهد الرئيس مبارك الذي ليس كمثله عهد، وكان قد حل موسم الحج، فانطلق يؤدي المناسك ويدعو الله أن ينصره، ويتعهد إذا خرج منها على خير لينفق الكثير من ماله على المحتاجين والأيتام.

سأل سراج أخته نرجس عن رأيها في اتهام زوجها بسرقة المرسيدس. قالت إنها لا تستبعد ذلك لأنه عندما تزوجها لم يكن يملك شيئًا، واشترى سيارة أجرة بالقسط وسرعان ما أصبح غنيا ويقيم المشروعات الخيرية، وينفق على حملة فخمة لانتخابات مجلس الشعب..

لم تقتصر معرفة النيابة بحالة يحيى صقر على إخبارية واحدة، فقد تلقت نحو عشرين رسالة تتحدث عن السائق الجائع الحافي الذي كان منذ سنوات قليلة..

كان يحيى تقريبا قد دفع كل أمواله لسكان الحي وأوشك على الانتهاء من المساكن التي يتعين أن ينتقلوا إليها، وبدأت مقالات علي جودة تنشر في الصحف المختلفة، داعية وملحة أن تقوم هيئة الآثار ووزارة الثقافة بالتحفظ على قصر الأميرة وتحريره من المحتلين، وترميمه ووضع حراسة عليه ثم فتحه للزيارة..

أما خطة صقر فقد كانت إرجاء الهجوم على القصر إلى ما بعد التخلص من سكان المنطقة من جنوب مجمع الكنائس حتى مدرسة المعاقين.

لكن إيقاع علي جودة المتسارع لدعوة الآثار كي تتبنى قضية القصر وتتولى ترميمه تمهيدا ليصبح مزارا، دفعت يحيى إلى أن يسرع بإحضار البلدوزر ويبدأ الهدم ليضع الجميع أمام الأمر الواقع، هكذا كانت خطته من جين ديكنسون، والصدفة البحتة جعلت الخبر يتسلل آخر الليل إلى محسن اللبودي الذي كان هو وأهله غير راضين عن صقر، وسرقة المرسيدس التي أطاحت بأخيه وأثرت على مسيرته في الشرطة، رغم أنه هو الذي سعى بعد ذلك وأعاده..

أبلغ محسن علي جودة، فمرا على نبيل ومضوا يدعون الناس جميعهم إلى اللقاء غدا والتجمع أمام القصر المهجور.. طلب الشباب من السكان الخروج لحماية الأثر المهم من أيدي المخربين، ومن أسنان الجشعين اللصوص.. طلبوا منهم التخلص من السلبية والعمل يدا واحدة للوقوف في وجه مصاصي الدماء. أغنياء الغفلة.. ولم يخفِ نبيل دهشته لموقف علي جودة العملي الثوري المناضل، وهو الذي كان يائسا ومنعزلاً ولا يعترف بحاجة الجماهير إليه، كما أنه كان حريصا على تجنب مشاركة الجماهير إنقاذًا لنفسه من تبديد طاقته مع غفلتها وغياب وعيها واستسلامها للعشوائية.

مع شروق الشمس تجمع الناس من كل الأعمار، تحدث الشباب إليهم عن الفئة الدخيلة التي لا تقدر عراقة الشعب وطيبته، وتستغله أسوأ استغلال: تلك الفئة التي تود أن تمحو أي أثر يشير إلى ماضينا وتراثنا وأمجادنا القديمة والتي تواصلت عبر الأجيال، تريد أن تزيل أي ملمح من ملامح حضارتنا وتاريخنا المجيد.. هذه الفئة التي كبرت وترعرعت في الظلام، وتريد أن ترمي بسكان المنطقة.. بكم

بعيدا، وتبقى هي لتبني الكباريهات والملاهي وصالات القمار والرقص والتدليك والدعارة.. ولتذهبوا أنتم إلى الجحيم..

بعد ساعة.. دمدم من بعيد وزمجر.. يسبقه ترابه وتهديده.. جاء البلدوزر.. ضخما وقويا جاء.. مهددا.. ومزلزلاً جاء..

جاء ومعه الرجال، يتقدمهم صقر وديكنسون.. رأى صقر عددا هائلاً من الناس كلهم من سكان المنطقة، ولم يكن قد تصور أن يكونوا بهذا الكم وهذا الاحتشاد.. النساء.. والشيوخ.. الرجال والشباب، الأطفال والبنات، يقفون كالسد أمام القصر..

أشار صقر إلى الرجال بتجهيز بنادقهم.. فطرقعت بتحد وصلف ثم أشار لهم فأخذوا مواقعهم في الأجناب، وانتظموا في أوضاع الضرب.. ثم أشار للبلدوزر كي يتقدم.. زمجر البلدوزر.. وتقدم..

أمسك الجميع بأيدي بعضهم البعض وتقدموا خطوات في اتجاهه ثم توقفوا.. كان يونس اللبان وملاك ونبيل ومحسن وعلي جودة والشيخ إبراهيم وشبل اللبودي ونصحي عبد النور وسيد غراب الحلاق وميشو وغيرهم في المقدمة..

وصل البلدوزر إلى آخر المتاح له من الأرض حتى لمست سكينه الضخمة أجساد الصف الأول..

زعق صقر طالبا الابتعاد.. لم يتحرك أحد.. أمر السائق بالتقدم.. حاول.. لم يستطع..

بذل علي جهدا كبيرا ليقول: ارجع يا صقر.. كفاك ما بلعت في بطنك..

قال صقر: تقدم يا خميس.. المسئولية تقع علي وحدي..

قال الجميع: لن تمر إلا على جثثنا..

فجأة علا صوت رجب سرحان: يا جماعة.. علينا أن نحتكم إلى العقل والحوار، وقد أعددنا بعض المطالب للسيد/ يحيى، مقابل السماح له بهدم القصر..

وصرخ الجميع فيه: لا مجال للعقل الآن يا رجب.. يسحب البلدوزر ونحن نعود إلى بيوتنا ولا يقترب من القصر..

قال رجب: الحاج صقر ابن المنطقة، وعلينا أن نتحاور.. امنحوا فرصة للعقل والسلام..

وتحول إلى الحاج صقر وقال له: هل تقبل يا حاج أن تقرأ مطالبنا؟

وصرخ الجميع: ليس لنا مطالب يا رجب.. اسكت..

قال الحاج صقر: هات وخلصني..

ذهب إليه رجب ومد له ورقة، وسرعان ما التف حوله ووضع سكينًا في رقبته وهو يقول: لا يصلح معك إلا هذا.. الغدر يا غدار.. قل للسائق يبتعد وإلا أغمدت السكين في رقبتك..

يهلل الناس..

يقول يحيى: أنت جننت يا رجب.. ابعد السكين..

يضغط رجب أكثر..

يستشعر يحيى إصرار رجب، يضطر إلى إصدار أوامره بسحب البلدوزر وابتعاد رجاله المسلحين وكذلك ديكنسون..

بعد أن يطمئن رجب إلى تنفيذ مطالبه يدفع صقر دفعة قوية أوشكت أن تطيح به.. وهنا يسمع الجميع صوت آلات تنبيه عالية ومميزة خاصة بالشرطة..

يهبط الرجال وعلى رأسهم هشام اللبودي وسيارة أخرى سوداء يهبط منها رجال هيئة الآثار ليتسلموا المبنى، وتعلق لافتات تحذر من الاقتراب مهما كانت الأسباب، ووضعه تحت الترميم والحراسة..

وفي هذه اللحظة وفي غمرة الحماس الفرحان بفشل مهمة صقر، ونجاح الجماهير في استعادة القصر المهجور واستعداد الآثار لرعايته، أحس رجب سرحان بيد حنون تلمس ظهره، وسرعان ما هلل فرحا في شبه دهشة:

- أهلاً يا ثريا..
- أهلاً بك يا عمي.

فجأة.. طفر الدمع من عين الفتاة ابنة إمام سرحان، ربت رجب على ظهر ابنة أخيه، وسألها وقد تغير شكله وانكمش:

- ماذا جرى.. ما بك.. قولي؟

تماسكت البنت ومسحت دموعها وهي تقول:

- لقد بحثنا عنك في البيت والورشة، لقد كانت أمي تريدك..
- تحت أمركم، ماذا جرى؟

- أبي أخذ الفلوس المتبقية من مهر رباب وتزوج بها.

- ماذا.. مستحيل.. متى؟

- أمس..

فرد طوله وغمغم: معقول يا إمام!!.. كل الناس ممكن تعمل هذا إلا أنت.. هيا بنا يا ثريا.

ذهبا إلى بيت إمام في "شق التعبان".. وصل إلى أم ثريا منبع الدموع التي لا تجف.. قالت له:

- سأجن يا رجب.. "القرشين" أبقيناهم لثريا والأولاد.. كان دائما يحارب كي يصل إليهم. مصيبة، وياريت المسألة توقفت عند زواج إمام، لكن كمال ابني غائب منذ ثلاثة أيام، لاف على مجموعة أصحاب، ومنعته عنهم، بلا فائدة..

حار رجب ماذا يفعل.. هل يحاول أن يعيد إمام أخاه الأكبر؟ وكيف يعيده؟.. إنها تقول لقد تزوج فعلاً بثالثة.. عليه إذن أن يبحث عن كمال.. سألهم كيف حدث ما حدث لكمال..

قالت ثريا:

- لقد بدأ بتدخين السجائر..

وعقبت أمها..

- من خيبته كان يقول أريد أن أكح كـأبي وأطـرد البلغم..

ضرب الرجل كفا بكف..

- يريد أن يكون رجلاً، ويحسب أن الرجولة بلغـم وبصاق وكحة..

سأل رجب عن الأصحاب الذين يمكـن أن يتـردد عليهم كمال منكسا رأسه، وقد نسي تماما بهجة ما فعله مـع صقر، استدار لينصرف.

وقبل أن يمضي ليبحث عن كمال، قالت أم ثريا وهي تمسح دموعها:

- أنا خائفة.. قد يرفض العودة.

- لماذا تقولين هذا؟

- لما زعقت له آخر مرة.. قال ورحمة أبويا ما أنـا راجع..

- قال "ورحمة أبويا"..

لم يدر رجب ماذا يفعل بالضبط.. هل يبكي أم يضحك..

اكتفى بأن قال وهو يتجه صوب الباب:

- كلام شباب.. اطمئني..

شهقت أم ثريا وقالت:

- افتكرت يا رجب يا خويا.. عارف شعيب أخو شبل اللبودي.

- ماله؟

- ابني يصاحب ابنه.

- ياه.. هذا الرجل عنده أموال لا تحصى..

- أسمع أن عنده محلات كثيرة.

- محلات وشركات يديرها وهو في بيته بالمحمول.. لأنه مشلول.

- أتاري ابني قال لأخته: أنا مصاحب عيال تسهر وتروش.

- كلام شباب، لا تحطي في بالك.

- تروش.. كلمة لا أفهمها يا رجب.

رغما عنه ضحك وأخذ الباب في يده.

(٤١)

عندما أطلت في المرآة طالعها وجه علي فوق جسدها، مبتسما وعيناه السوداوان الصافيتان تلمعان بابتهاج روحي راسخ، ابتسمت له، فلوح لها وذهب.. ظهر وجهها فوق جسدها يبتسم، ويدها تلوح، ولما سحبت الابتسامة بسبب فراق علي، راعتها البشرة الصفراء، وتذكرت أنها ربما لم تأكل منذ شهر، هي لا تشعر برغبة في طعام أو شراب، ولا برغبة في الذهاب إلى الجامعة.. العالم لم يعد بحاجة إليها، وهي لم تعد بحاجة إليه، علي هو كل عالمها، شرابها وطعامها.. نومها وأحلامها، لا داعي حتى لأن يكون بقربها، وليس مهما أن تراه، فهو فيها، فيها تماما ودائما وأبدا.. أصبحا شخصا واحدا، وإذا احتاجت أن تراه فإنها تخرجه من قلبها، أو تدخل إلى قلبها لتحدثه وتطمئن عليه وتسأله عن أحواله.. نظراتها الزائغة تفكر لها وتدور في اللامكان.. تحلق في اللاأفق.. في اللاشيء..

يخامرها إحساس مؤكد بأنها غير قادرة على فعل أي شيء أو أداء أي عمل أو تلبية أية رغبة، أو حتى قول كلمة.

وهي ليست في حاجة إلى فعل شيء ولا توجد بها رغبة تطمع في تحقيقها، ولا تشعر بأنها تتوجب أن تقول شيئًا.. كل شيء لا شيء..

أبوها لا يأكل إلا نادرا جدا.. منذ سنوات وشهيته تفتر وتتراجع، لكنه في الفترة الأخيرة وهو يرى حال ابنته الذاهلة عن الدنيا، يكاد لا يأكل، ولم يعد يكتب حكمته.. ولم يعد يتكلم، ولم يعد تقريبا يفعل شيئًا إلا أقل القليل..

وعملية البيع في المكتبة تفتقد الحرارة.. الأتربة في كل مكان، مطمئنة في مواضعها فلا أحد يقترب منها أو يعكر صفو استقرارها.

ها هي الحياة تصفو وترق وتتخلى عن ثقلها السخيف وكابوسها الذي كان يقبض على صدرها.. النهار يمضي متسللاً في هدوء بلا أي مشاكسة أو أحداث أو إزعاج، وربما هناك الكثير من توابل الحياة، ذلك كله لا يخص ملاك وابنته بوصفهما كائنين منعزلين.. ماجدة تمضي في درب الغياب وأبوها يتبعها في استسلام ودعة.. غير قادر على السؤال عن شيء أو الاعتراض أو.. لعله لا يزال مالكًا زمام عقله..

ليس عقله كله بالطبع، لكنه ربما يفضل أن يتبع ابنته، فهي الباقية له.. وهما يمضيان حثيثًا وبثقة نحو الانقراض.

الصمت شجرة مترعة بالخضرة كاسية الفروع، تبسط أمامها ظلا وارقًا يحتضن كل المخلوقات.

رفعت ماجدة ببطء يدها.. ببطء شديد. رفعت يدها. مدت أصابعها النحيلة التي يشك من يراها أنها أصابع إنسان لا يزال له قلب ينبض.. التقطت صليبها الذهبي المعلق في سلسلة ذهبية تتدلى من عنقها الثلجي الشاحب.. أحنت رأسها وقبلت الصليب، تمتمت بكلمات في أذن العذراء الطاهرة وطفلها الإلهي يسوع.. توسلت إليهما أن يحفظ حبها المسمى.. عليا، أكدت للبتول ووليدها المجيد أن العالم أصبح يعيش حالة حب اسمها علي..

بأطراف أناملها ظلت ممسكة صليبها، ثم قربته من فيها.. وشوشته وقبلته ثم عادت توشوشه وتقبله.. رفعت عينيها إلى لوحة العذراء والطفل.. لوحة مقلدة طبعا.. رسمها الفنان الإيطالي بيزالينو.. اشتراها ماجد منذ سنوات قبل أن يغيب في بحار أوروبا.. عادت تتمتم، وتبث الكلمات والتوسلات بعينيها في الوجه المريمي النبيل، وكذلك في وجه

الطفل المبارك، تتمتم وتبث رسائل قلبها.. عبر نظراتها إلى الوجهين وكذلك الرداء الأحمر وتجعداته وثنياته، وتمضي مع يد السيدة المحتضنة وليدها، وتنتقل إليه فتسأله أن يرضى عنها وتحمل نظراتها أمانيها إلى الساقين العاريين والأصابع الدقيقة..

لما أوشكت أن تقع من فرط الوهن والتهافت وتراجع نبض الحياة، واستندت إلى المنضدة، وهبطت ببطء على الكرسي الوثير الذي تعودت أن تقبع فيه ساعات إلى جوارها أيقونة ماري جرجس وهو يطعن الوحش..

أدركت أخيرا أنها بلا قدرة.. أي قدرة.. لكنها لا تحتاج إلى طعام أو شراب..

قالت لعلي الذي رأته إلى جوارها:

- حسن ما فعله أبي.. لقد وضع أجسادنا هنا في هذا القبر، نحن الآن دائما معا..

سمعت علي يقول لها:

- وهل يتمنى المرء شيئًا غير أن يكون مع من يحب.. في قصر أو كوخ أو قبر، خلق كل شيء أصلاً للحب، لأن الحب هو طريق الله.

بلعت ريقها بصعوبة، وحاولت بل شفتيها، وقالت وهي توزع الكلمات على أنفاسها:

- إلى أين أنت ذاهب..؟ علي.. أنت تتمدد على الكنبة.. هل ترغب في النوم؟. إذا كنت تنوي ذلك هيا بنا ننام، فربما نصحو من هذه النومة على لحظة الحساب، ألسنا نتجنب طعام الأرض.. لا بأس في انتظارنا طعام الجنة. هأنذا أنام إلى جانبك.. هات يدك.. دع أصابعي تتخلل أصابعك واسمح لرأسي أن ترتاح على وسادة رأسك.. هل ترى هذا العصفور الذي يرفرف في قبرنا الواسع؟.. هل تعرف ما هو؟. أصبت. إنه حبنا يحلق في الظلمة، ويضيء كما يضيء هذا الصليب ووجه العذراء ووجه يسوع وتلك الأيقونة.

ابتسمت عندما سمعته يقول:

- وأنت أيضا تضيئين.

دخل أبوها.. وقعت عيناه عليها فسألها:

- لماذا تنامين على الكنبة هنا في الصالة؟

اعتدلت وفغرت فاها دهشة، وقالت:

- هل أنت مت يا أبي؟

بهت الرجل وراح في لحظة غيبوبة، ثم سألها بينما يترقرق الدمع في عينيه: لماذا تقولين هذا يا ماجدة؟

زاغت نظراتها، وقالت: لأنك جئت إلينا هنا في قبرنا..

لمسها برقة وهو يدقق النظر في وجهها: ماجدة.. ماجدة.. ماذا بك؟

ردي على أبيك يا ابنتي..

كان الرجل تقريبا يسيل ويتحلل.. هزها بحنان وقلق. اعتدلت ماجدة وبدت نظراتها أكثر تحديدا وتركيزا بعد حالة السفر والسباحة في المجهول.. قالت:

- لا شيء يا أبي.. أنا كنت..

- تعالي.. استندي على ذراعي.. اجلسي هنا على هذا المقعد، أحضرت لك طعاما.. طبق كشري بالشطة.. من زمن لم تأكليه.. محل ممتاز، أحضرت لنفسي أيضا.. أعرف ما ستقولينه.. كنت أمنعك عنه، لكني أحضرته لك اليوم بنفسي.. هيا.. كلي كي آكل أنا أيضا.. ألا تريدين أن آكل.

- شكرا يا أبي.. ليست لدي رغبة.

- يا ابنتي أرجوك.. ستموتين.

ابتسمت وهي تمضي إلى حجرة النوم في تثاقل وتمايل..

- يا أبي.. أنا أسعد ميتة.. هيا بنا يا علي.. سنترك أجسادنا يا أبي في الفراش ونخرج للقاء العصافير.. هناك ما يحتاج للمناقشة.. هيا بنا يا علي..

انحط ملاك على الكرسي.. حاول كثيرا منع الدموع، لكنها انفرطت وغسلت وجهه وسقطت في حجره، ومعها تساقطت أسئلته التي تمزق لحمه، وفاحت بشدة رائحة الحيرة المتعفنة.. ماذا يفعل في ابنته؟ وهو لا يود أن يخبر أحدا من أهله..

- لم أتكلم إلا مع الشيخ إبراهيم.. وعلي لم يعد يراها.. بل أنا نفسي لم أعد أراه، وهي لم تخرج من البيت لأني أغلقه بالقفل من الخارج.. يا رب أنت عالم بالحال.. رأى زوجته بحذاء الجدار وكذلك ولده..

نهض فجأة وهو يقول:

- لابد أن يعرف أبونا.. ليس غيره لديه الحل.. لابد أن يعرف..

ذهب كل أهالي الحي تقريبا إلى كنيسة العذراء لتعزية ملاك في وفاة زوجته. فوجئ عند العصر بعمال يكنسون وينظفون شارع تقاوي الذي يقيم فيه.. نثرا الماء ورشوا الرمل، ثم وصلت سيارة نقل، هبط منها عاملان وشرعا في إنزال كراسي مغطاة بقطيفة قرمزية ويرتبانها في مستطيل ينقص ضلعا صغيرا.

جاء الحاج شبل واطمأن بنفسه على وضع الكراسي، وأفسح قليلاً بين كل كرسي والآخر، وتمتم رافضا ومستاء من تصرف العمال الكسالى الذين ألقوا الكراسي وذهبوا دون أن يحسنوا أداء العمل المكلفين به.

صعد إلى شقة ملاك وهبط ممسكًا بذراعه، جلسا معا، وما لبث الشيخ إبراهيم أن جاء، وكذلك عواد النمس وعلي جودة وبركات السكري ونبيل وإمام وسيد الحلاق ونصحي عبد النور الفران ويونس اللبان وموافي العجلاتي وشبراوي الديب ورضوان وعلي سمك، وشكورة ومحسن اللبودي وطارق ابن د. شاهر لطفي وحنفي العربجي الذي

كان يقيم مع حماره في القصر المهجور، ودهش الناس لما شاهدوا سراج البارودي، جاء يأخذ بخاطر ملاك، وجاء كثيرون، منهم ميشو الذي فتح دكان قطع غيار سيارات سرق معظمه من محلات صقر، وهو الآن الذي ينفق على والديه وحضر أيضا كل من علم بوجود فراشة أمام بيت ملاك حتى لو كان قد ذهب إلى الكنيسة، الكل جاء ليشارك في العزاء المصري الذي يتحقق له الإعلان في الشارع، على مرأى ومسمع من الجميع.. تهدأ بتأثيره النفوس، وتتراجع إلى حد ما بعض الآلام التي تجثم على صدر أهل من رحل.

لما جاءت بعض النسوة والبنات من زميلات ماجدة يردن تعزيتها، اضطر ملاك إلى أن يقول: إن أهل أمها أخذوها معهم إلى الصعيد.

لم يستطع أحد من الحضور حجب ملامح الدهشة التي ارتسمت على وجهه لرؤية حالة ملاك المسرفة في الجزع إلى درجة الانهيار، وكلما طيب أحد خاطره، انفطر الدمع سيالاً من عيونه، كأنه لم يبكِ من قبل أبدا.

قال الشيخ إبراهيم: المؤمن يا ملاك والكلام للجميع مطالب ألا يحزن لأن المبالغة في الحزن عدم ثقة بالله،

وإعلان برفض الاعتماد عليه، وأيضا دلالة على عدم الإيمان بالقدر خيره وشره.

اندفع شبل اللبودي: يعني ينكتم يا سيدنا الشيخ، لازم البني آدم ينفس ويفضفض وإلا فسوف يموت.. مواقف كثيرة وأنت سيد العارفين تفاجئ الرجل منا وهي أكبر من احتماله، وصعب أن يتجاهلها ويمنع نفسه من الحزن.. المدرس الذي اغتصب تسعة من البنات كان يعطيهن دروسا والآباء آمنوا له وسلموا ووثقوا فيه، ما شعورهم بعد الحادث.. ألن يكونوا شعورا بالحزن الشديد والثورة، جابر بائع الكبدة عنده سبعة أولاد، كلكم تعرفونه يوفر لهم الخبز بالعافية، توفيت زوجته، بعد عذاب مع المرض "اللي ما يتسمى".. ماذا يفعل؟ أليس هذا موقفًا فوق الاحتمال يوجب الحزن، وأي حزن يكفيه.. خاصة أنه يرى ناسا آخرين يحصلون بسهولة على الملايين ومحتارين كيف ينفقونها، ومولانا يقول لا يصح أن تحزن.

كلما حاول الشيخ أن يلحق شبل ليقاطعه أو يوقف ويوضح. انطلق شبل يستأنف حديثه، أخيرا قال الشيخ إبراهيم: يا حاج شبل.. المقصود بألا تحزن.. ارمِ حمولك على الله، أنا معك، لابد من الحزن، ولكن في البداية، عند

سماع الخبر.. ربما بحكم المفاجأة، لكن لأن الله رحيم بنا، ويعرف أحاسيسنا لا يرضى أن يقتلنا الحزن، أو يضيع منا الطريق ويذهب العقل فنضر أنفسنا وغيرنا.. لذلك علينا أن نقول: نفوض الأمر إليك يا رب، أنت حسبنا ونعم النصير.. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ليس لك من الأمر شيء. إن الأمر كله لله.. ماذا تملك أنت.. أنت لم تجر الضرر أو الفقر على نفسك.. أنت تريد أن تكون سعيدا أبدا.. ولكن الله له قضاؤه وقدره الذي يديره بين المصائر، ليعلم الناس ويحفظ الحياة ويدفعها للتطور، ﴿لَولاَ دفْع اللهِ الناس بعضهم بِبعضٍ لَفَسدتِ الأرض﴾ صدق الله العظيم.

اندفع بركات السكري يقول: سامعنا يا عم ملاك، أنت مسافر بعيد، كن معنا، ولا تأس على ما فاتك.. الله جاب، الله أخذ. الله عليه العوض.. كلها ابتلاءات ومن يفهمها غير هذا يكن مخطئًا.. قال إمام وهو يخبط بيده على ساق بركات: أحسنت يا بركات.. خلينا نسمع رأي الشيخ..

قال الشيخ إبراهيم: المثل الشعبي يقول "من شاف بلوة غيره هانت عليه بلواه"..

يس اللبان: ارتاحت يا مولانا..

قال سيد: أمر الله ولا يجوز أن نعترض.

وقال الشيخ إبراهيم: جاء في كتاب الزهد للإمام أحمد، أن المسيح مر وهو في طريقه من قرية إلى قرية على شيخ عجوز يجلس على حافة الطريق، وقد أصابه العمى والجذام وضرب جنبه الفالج، فتأثر لمنظره وتوقف لحظات، فسمع الرجل يقول: أحمدك ربي على أن متعتني بما لم تمتع به أحدا غيري..

دهش المسيح، ودنا من الرجل وسأله:

- أي شيء متعك به ربك، وهذا حالك لا يخفى على أحد.

قال الرجل:

- لقد وضع في قلبي معرفته، وهي خير كنوز الأرض، لا حرمني الله منها أبدا.

ابتسم المسيح ومد يده الكريمة فمسح على عيني الرجل ووجهه وبدنه، فارتد بصيرا وسليما معافى، واستأنف المسيح ﵇ سبيله إلى القرية التي يقصدها..

قال نبيل: أحسنت يا سيدنا.. إنت بركة كبيرة بيننا..

قال الشيخ إبراهيم: ليت لي عشر حظ أبيك..

دهش الجميع، صحيح أنهم يعرفون أنه لزم المساجد، لكنهم كانوا يعتقدون أنها مجرد دروشة، سألوا الشيخ عن الذي دعاه ليقول ذلك، فقال:

- الشيخ يس الفار قرأ كتب حجة الإسلام الغزالي ورياض الصالحين مرات والقرآن يتمه كل شهر مرة، وقرأ صحيح البخاري ومسلم ثلاث مرات، كذلك ويصوم بالنهار ويقوم بالليل ويكفي الناس شره..

قال يونس اللبان: ربنا يزيده.

وعلق سيد: سبحان مغير الأحوال.

وقال بركات: يغير ولا يتغير.

أما عواد فقال: فتاب عليهم ليتوبوا، اللهم أحسن ختامنا.

قال الشيخ إبراهيم: الصبر جزاؤه عظيم يا ملاك لأن الصبر على قدر الله إيمان به.

انصرف البعض، وجاء آخرون، وكان الجميع مستنكرين حالة الحزن الشديدة التي تلبست ملاك، وكان معظمهم يعلم أن زوجته كانت بمستشفى الأمراض العقلية،

وبعضهم يعلم أن الشقاق بينهما كان متواصلاً ومتجددا، فلماذا كل هذا الأسى، وقليل جدا الذين كانوا يدركون أنه لا يبكي فراق مريم بقدر بكائه على ابنته الشابة التي على وشك أن تقتفي أثر أمها وتمضي في طريقها، وعلى الولد الذي ذهب ولم يعد..

مضى الشيخ إبراهيم وبعض الحاضرين يخفون عن ملاك أساه، ولزم البعض الصمت، فلم يكن هناك ما يقال، ظل نبيل وعلي جودة حتى النهاية ثم نهضا وخرجا معا.. تقدم علي من ملاك وعانقه في صمت وقوة.

همس له كأنه يفشي له سر بضاعة مهربة:

- سأسافر بعد غد إلى الإمارات.

ثم تسلل مغادرا سريع الخطوات، ليختفي عند أول ناصية..

صعد ملاك بعد رحيل الجميع إلى شقته وأغلق بابها عليه.. اصطدمت يده بجيبه المملوء بالورق.. جلس على الكرسي الذي تعودت ماجدة أن تجلس عليه.. أخرج البرقيات التي وصلت إليه.. مضى يقرؤها والدموع تتساقط على الكلمات الآسفة.

- الصدمة قاسية والعيون باكية وذكراها باقية.

- فراقك أدمى قلوبنا، لكن عزاءنا أنك تركت أرض الشقاء وربحت أمجاد السماء، فهنيئًا لك صحبة القديسين.

- عاشت نسمة وديعة، ورحلت بهدوء الملائكة.

- جوهرة ثمينة فقدناها وعند المسيح أودعناها.

في الطريق قال نبيل لعلي.

- كسبنا القضية.

صرخ علي فجأة وهو يتقدم لمعانقة صديقه.

- الحمد لله.. ياه.. ألف مبروك.

كان نبيل شاردا وعابسا.. قال علي مندهشًا لحالة نبيل.

- هل هذه هي حالة مليونير.

- لا تفرح هكذا.

- ولماذا لا أفرح.. أصبحت صديقًا لمليونير.

- مع وقف التنفيذ.

- لماذا.. ألم يصدر الحكم؟

- صدر.

- والمشكلة.

- عمي بنى عمارة على الأرض كما تعلم.

- يدفع حقها نقدا.

- يقول ليس عندي مال للدفع نقدا، ادفعوا أنتم ثمن ما عليها من مبانٍ وحلال عليكم.

- مستحيل.. المباني ليست أقل من مليون.

- قل نصف مليون.. قل أي رقم مهما كان ضئيلاً.

قررا فجأة أن يجلسا على الأرض، وجه كل منهما في وجه الآخر، والخدود فوق الأيدي في وسط الطريق جلسا يحدقان ويمطان الشفاه والناس كذلك، يمطون الشفاه ويخبطون الأكف.. بقيا لحظات على هذه الحال، اتفقا على مقاومة فضول الناس والاستمرار في التعبير عن الدهشة بهذه الطريقة، لولا أن ظهر سراج البارودي وهو يقول:

- الله.. الله.. أبحث عنك في كل مكان يا سي نبيل، ثم أجدك في وسط الشارع على هذا الوضع، ولولا أن لدي حب استطلاع ما وجدتك.

ظل نبيل كما هو وسأل.

- أهلاً يا أستاذ سراج.. ماذا تريد؟

- أريدك أن تعمل معنا في شركتنا.

ظلا هكذا لحظات، ثم قفز نبيل قائلاً:

- أخيرا.. هناك عمل.. يلعن أبوها البطالة.

ثم توقف وهو يقول:

- الله.. سراج نسيب يحيى.

ضحك سراج وهو يقول:

- اسحبها.. اسحبها فورا.

- ألست نسيبه؟

- هناك فرق.

- سلام يا علي.. لازم أشوفك قبل أن تسافر.

شاهد الناس ما يجري وعادوا يضربون الأكف على الأكف، وتنبهوا أخيرا لآلات التنبيه التي أطلقتها السيارات، فأفسحوا لها وتفرقوا، وأسرعت السيارات تركض وتفرح بالفراغ..

- جئت إليك منذ شهور يا أبانا وقصصت قصتي.. وعرضت مشكلتي.. إنها تتفاقم، وحالة البنت تسوء وأشرفت على أن تلحق بأمها.. فانصحني.. انقذني.. أشر علي بالطريق الذي أسلك فأهتدي..

حطت عليهما لحظات صمت.. قال الأب المبجل بهدوء رصين، ومن وجهه يطلع البهاء وتتألق السماحة والرضا: لقد أطلعني الأنبا مرقص الذي زارها منذ أسبوعين على حالها.. ولكن اعلم يا ملاك أن في جسد كل إنسان لا ينفك المسيح يتجلى ويتحد بنا، بحيث يمسي كل رفض لحياة الإنسان بكل أشكاله، رفضا للمسيح ذاته.. تلك هي الحقيقة الصارمة التي يكشف لنا المسيح ولا تنفك الكنيسة ترددها..

غرق المكان في السكون من جديد، قطعه ملاك ببعض العبارات عن حالة ابنته وانفطرت دموعه رغم تماسكه وحرصه على الثبات أمام الأب الوديع..

سكت ملاك.. وجاءه صوت الأب.

- إن شريعة المسيح هي الحفاظ على الحياة، والذود عنها والعمل على تأسيس دولة إنسانية، ومهمتنا المطالبة بحقوق البشر والدفاع عنها.

لما سكت الأب لم يتكلم ملاك، واستشعر أنه سوف يقول الآن ما يهديه.

- علينا أن نعتني بالآخر بصفته إنسانًا أناط الله بنا مسئولية رعايته، نحن مدعوون إلى أن نكون أقرباء كل إنسان، والحياة البشرية مقدسة، ويجب أن تجد لدينا الحصانة، فعلينا إذن أن نعني بكل الحياة وحياة الكل، فنسعف بأسرع وبأقصى ما نستطيع الجائع والظمآن والغريب والعريان والمريض والسجين والمشرف على الموت، ولابد أن يكون ذلك من مطلق الحب.

سكت الأب وتنهد ومس شعرات ذقنه ثم وقف وسار خطوات.

لم يظهر على ملاك التململ، لكنه يتجول في أعماقه، كان يتعجل كلمة واضحة، وجاء صوت الأب دافئًا ومتئدا يقول:

- لا تحسب أن الكنيسة تحرص على القواعد والشريعة أكثر من الحياة، بل تبحث دائما عما يعزز قيمة الحياة وتكافح كل اعتداء عليها، فنحن نحاول أن نقيم حضارة الحياة في مقابل حضارة الموت.. يقول البابا بولس السادس:

- لقد افتدانا المسيح بدمه الكريم وبغسل المعمودية ردنا إليه أغصانًا تستمد من الشجرة نفسها ماويتها وخصوبتها فصرنا شعبا للحياة، وعلينا أن نتصرف هكذا في ضوء شريعة المحبة، ومن يفعل ما هو ضد المحبة لا يكرم المسيح، بل يحتقره.

سكت الأب وبدأ التململ يظهر على ملاك في يديه وساقيه.. ولم يدر بالضبط ماذا يفعل.. وأحس بحرج وحيرة.. وهم أن يسأل من جديد سؤالاً محددا، يطمع به في إجابة محددة تريح ضميره، لكن الأب قال له فيما يشبه الهمس.

- ما رأيك في الشاب المسلم؟

- هذا ولدي، أفضل من رأيت من الشباب.

عاد الأب إلى الصمت، ولكنه بدا مشغولاً بالفكر، شرد الرجل المهيب وأغمض عينيه ومضت يده تتلمس بعض

الشعيرات في ذقنه الرمادية الطويلة وتنهد، ثم نهض وتوجه إلى صورة المسيح وأمه، وكان تحتهما كتاب فوق منضدة صغيرة وبسيطة، وضع يده على الكتاب، وتمتم.. وملاك محني الرأس، لكن عينيه تتبعان الأب وفكره يغلفه القلق والحيرة.. قلبه يدق.. عاد الأب فجلس، ثم قال:

- ملاك.. ادعها إلي.. لقد سبق أن تحدثت إلى زملائي في الكنيسة وهدانا الرب إلى رضاه.

انفتحت فجأة طاقة نور في أعماق ملاك المعتمة، واطمأنت نفسه المضطربة في موقعها بعد طول تجوال في متاهة لا نهائية من القلق والضياع.. يجب أن ينصرف بسرعة، ليس هذا أوان أو مكان التفكير.. انحنى يقبل يد الأب السمح، وشملته السكينة كما شملته رائحة الثوب الكهنوتي التي طلعت عليه من أغصان الزمان والحكمة المغموسة في آبار الحنان والسماحة.

تعثر في هبوطه الدرجات الكثيرة وتماسك.. أسرع إلى بيت علي جودة، لم يجده.. مضى إلى بيته مرتقيا سلالمه مرتقًا أنفاسه اللاهثة، وقد بدا قويا عن ذي قبل.. طرق باب شقة آية.. لا أحد هناك..

أسرع إلى ميشو في دكانه.. لم يجد ميشو.. سأل عنه شابا في مكانه.. أنبأه بأن الجميع ذهبوا منذ ساعة إلى المطار لتوديع علي.. تجمد في موضعه.. كان قد نسي ما أخبره به علي..

- إذن علي سيسافر حقا.. ما العمل الآن؟.. هل أتركه يمضي في سبيله ونرتاح من المشكلة ولا نحرك رمادا خامدا فيصبح نارا تحرق القريب والبعيد.. هذا ليس هو المهم.. المهم جدا على الأقل بالنسبة لي هو ماجدة التي توشك على الجنون، بل هي جنت فعلاً.. سعادة ابنتي هي الدنيا.. هيا إلى المطار.. إنها إرادة الله.. مؤكدة إرادة الله..

وقبل أن يتجه إلى المطار، عاد إلى بيته واصطحب معه ماجدة التي لم تعرف إلى أين يمضي بها أبوها.

الهرم في يوليو ١٩٩٩